البلد الجميل

روايــــــــة

أحمد سعداوي

القسم الاول

ملاك وحيد

[أنت هي التي خرجت من عقلي وفكري ! ومع ذلك يا شهرزاد، تخطفينني اليوم وتحبسينني بين جدران هذا القصر الكبير؟!]

(القصر المسحور/ طه حسين، توفيق الحكيم) ص39.

- 0 -
نـود، أغـنيتي التي رحلت. نصف تفاحتي، سمكة ايـامي اللائبـة فـي بحيـرة صـمتي، كلمتـي التـي أكررهـا مـراراً. لمـاذا أنـاول نفسـي مـن يـدي، واسـكر بلـذة فقدك؟ لمـاذا أتيـه وانـا بجـوارك، واتلمس في العتمة كل شيء إلاكِ. لا أستطيع النظر الى العيون

التي ترنو اليك، وانت تنزلين من الحافلة، بشفتين مضمومتين وظهر حدبه ارهاق يوم العمل الطويل. لا استطيع منعهم ايضاً، من ان يفعلوا بعيونهم ما يشاؤوا وانت تدخلين الزقاق، متجاهلة أنتظاري. ومن أجل ذلك سأسدد في المرة القادمة أطلاقة الى صدرك الجميل، امزق لغط السابلة بصوت حاد. فبهذه الطريقة، ربما سأتحرر منك. ومن تذكري الدائم لك ولنا. ومن الصور التي تنهمر علي طوال اليوم لما تقومين به بعيداً عني، من وجوه الاخرين وهم ينظرون اليك، وأنحشارك بين الركاب والتصاق اكتفاهم وارجلهم بك. أنت لا تكترثين ، وترميني كل مرةٍ بأجابة باردة، تجعل السنة النيران التي تلهب شفتي ، تلتف داخلة الى اعماقي. ولكنك بعيدة الان، وانا اثرثر وحدي، مسوراً بيقين مؤلم ، انني كنت مكشوفاً أمامك مثل راحة اليد يا نود، وذلك ما لم أقو على الاعتراف به أبداً.

- 1 -

زارتني صديقتي الفرنسية. دخلت الى شقتي أخيراً يا نود. كان الجرس يخن كأنه صوت شخص مصاب بالزكام، بينما كنت نائماً على الكرسي الطويل. ظل الصوت المزعج يداعب اذني حتى انتبهت في النهاية أن احداً ما يضرب عليه فعلاً، لن اقول ان ذهني كان منشغلاً باشياء كثيرة لحظة دخول هذه الصديقة، بجسدها المضموم الصغير. لقد أنتبهت عيناي الناعستان فقط الى شيطان الحب او ملاكه، وهما يدخلان معها. لم تكن اجمل منك، لقد تعرفت عليها مؤخراً اثناء تجوالي في المدينة، ولربما كانت ميزتها ، هي انت يا نود ، انك تنبعثين من كل جزء فيها، فتملأيني اثارةً، أتملى سترتها الجلدية الطويلة، وحذاءها ذي العنق، ياقة قميصها المكركشة والمدلاة بعبث حول رقبتها النحيفة البيضاء، ولا أملك تفسيراً اخر لأنجذابي نحوها.
بدأت تتفحص شقتي الصغيرة. تقترب من الاشياء المبعثرة، تمعن فيها النظر للحظات ثم تلتفت إليّ باسمة. لقد قرأت أن كل

أمرأة غريبة تفعل ذلك حين تدخل شقة صديقها لأول مرة. لقد قرأت ذلك في الكثير من القصص الاجنبي. وليس هنالك ضير، في ان تفعل صديقتي ذلك ايضاًَ، أنها تعرف مثلاً، ومنذ لقائنا الاول، أننا غير قادرين على التواصل عبر اللغة بشكل اكيد. أتلعثم بكلماتي الانكليزية القليلة، وتتلعثم هي بكلماتها الانكليزية القليلة، محاولين مد حوار عقيم، لكنها على اية حال اكثر جرأة مني، تحرك يديها اثناء الكلام، وتشير الى اتجاهات كثيرة، باصرار غريب على جعلي افهم ما تريد قوله.
جلست على الكرسي الطويل، ووضعت حقيبتها الصغيرة على المنضدة المزدحمة باغراض وكتب تتحدث عن بلدي الذي اتيت منه، بعثها لي عبر البريد اصدقاء طفولتي. بعد همهمات وجمل ناقصة واشارات من يديها ويدي، تركتها جالسة تعقد ساقيها واقتربت من الثلاجة وفتحت بابها الصغير ثم فكرت، كيف سأسألها عن العشاء، ماذا يسمون العشاء، هل سنتعشى مثلاً؟ اخذت علبتي بيرة مثلجة وهممت بالجلوس الى جوارها، كان شيطاني الصغير وملاكي الاصغر يبتسمان في وجه بعضهما البعض، كأنهما ينظران في مرآة ، حين أنحنيت إليها باسماً بعلبة البيرة الباردة.
لم تكن زيارتها لأجل البيرة أو العشاء، أنا اعرف ذلك ، ولا حتى من اجل الحوار المستحيل، لذا اشعر في هذه اللحظة بالخيانة. رغم أن ما يجذبني فيها هو انت يا نود. انت تفهمين . دعيني اخطب في حشد حضورك الدائم: " انني اهبط من عليائك الى هذه المرأة الغريبة. فأغفري لي أن كنت تفكرين بذلك الان ".

-2-

تسكعنا أنا وصديقتي الفرنسية على الارصفة العريضة والمصقولة لهذه المدينة الغريبة. ورغم ان الجو يحمل برودة خفيفة إلا ان الارصفة العريضة والمصقولة ذات اللون الدموي الداكن أمتلأت بحركة اشخاص ذوي هيئات وسحن تحيل الى بقاع مختلفة من العالم يتقاطعون في سيرهم ويتحدثون بلغط

مبهم. يمتد الرصيف العريض بمربعاته الحجرية اللامتناهية ليؤطر كل شوارع المدينة . وأنتبهت ان النهر الثقيل ذا لون القيح مؤطر ايضاً برصيفين طويلين. قالت صديقتي الفرنسية، أن هذا هو السبب في تسمية النهر بأسم (الشارع الاقدم).
قضينا ساعات النهار الاولى ونحن نتسكع، ونضحك، ونأكل البطاطا المقرمشة . تركتها تتحدث لي عن البطاطا المملحة، وعن البطاطا بالفلفل، وعن البطاطا التي تهرس ثم تعجن ثم يعاد صبها على شكل اقراص مشابهة لأقراص البطاطا. إلتفت إليّ وقالت: " هذا هو معنى تقدم الطعام عبر التاريخ". وانتهت بشرحها الى البطاطا المشوية، وقالت أنها تزيل العزلة، جرّب بأيمان شديد، ان تشوي حبة بطاطا ، ثم كلها قبل مغيب الشمس، سترى أن عزلتك تزول بهدوء. قلت لها: ماذا لو ان البطاطا نفدت من بين ايدينا الان، عن ماذا سنتحدث بعدها؟
ضحكت وهي ترفع شالها الصوفي الاحمر الطويل ، وتدليه وراء رقبتها ثم قالت : " لماذا تفكر بهذه الطريقة؟ حرر نفسك ولو للحظة واحدة من هذه العبودية".
قلت لها : " أنت من أوحيت لي بكل هذه الاشياء".
ضحكت ثانية، وهي تقرص انفي كأنني طفل صغير، ثم رفعت يديها في الهواء وحدجتني بنظرة جانبية وقالت: " لم افهم منك شيئاَ ، قل ذلك ثانية بالاشارات". وفهمت أنها تحتفل بلحظة مميزة هبطت عليها فجأة، لذا رفعت يديها في الهواء، خصوصاً وان السابلة في المكان الذي توقفنا فيه كانوا من القلة بحيث بدوت وصديقتي وكأننا نكتشف مكاناُ جديداً لم يصل اليه أحد في هذه المدينة الشاسعة.
قلت لها مبتهجاً وانا اتعلق بطرفي شالها الطويل واسحبها ألي مثل صيد ثمين: " أنا أحاول أن أتعلم منك ، اريد أن أحتفظ بك ، من اجل نود. أنت نود مهروسة ومعجونة ومعاد صبها على شكل نود ايتها الفرنسية الجميلة".
استدارت حولي متأرجحة وقالت، أنني ابدو وكأنني اغني.

-3-

ما حدث بعد ذلك، كان يتكرر دائماً. بدأت صديقتي الفرنسية بالتلاشي. ليس اختفاءَ مفاجئاَ، وأنما مثل دخول الظلام أو انبثاق ضياء الصباح. وهذا الامر يقلقني، ويؤكد أنني أعاني من مشكلة أو مرض نفسي غريب. اتقلب في فراشي صباحاً، وتلسع البرودة قدمي. امد يدي الدافئة وأتلمس جسدها داخل الاغطية، ويتمغط صوتي بتثائب خشن. وحين ادفع رأسي الغاطس في الوسادة الناعمة نحو شعرها ، وادس انفي قرب اذنها ، يأتيني صوتك أنت يا نود!

أفتح عيني فأراها تدعك انفها مغمضة العينين. احوطها بذراعي تحت الاغطية، كنوع من الاعلان عن بدء النهار الجديد، فتقول بهدوء " هششش" كأنها ترغب بالانصات الى صوت يأتي من الحلم. لكن ذلك كان صوتك أيضاً يا نود.

قلت مع نفسي، حسناً..انه الامر نفسه يحدث مرةً اخرى.

تثرثرين معها على الافطار، وانتما تجلسان على المقعد ذاته. اسمعكما، وأنا ازدرد صامتاً شرائح الخبز الاسفنجي المغموس بالحليب. تضحكان مني، وتقول هي أو انت، أنني آكل مثل طفل. أسمعك تقولين : " أنك تحب تلويث فمك واصابعك حين تأكل". لكن صوتها كان ينطق بذلك أيضاً. أشرب من كوب الشاي بالحليب الساخن، وتقومان من على الكرسي البلاستيكي الواطئ، وتذهبان الى الكاونتر المزروع في الحائط، تفتحان باباً صقيلاً، وتخرجان علبة القهوة الجاهزة، ارى عجيزتك وعقصة شعرك الاجعد الاحمر، وحين تلتفتان بكوب القهوة، أرى اثداءها الصغيرة المحزمة والمأسورة بثوب النوم القطني، سيستمر الامر كذلك طوال النهار، ونحن نتحدث ثلاثتنا/ او كلينا، عن اشياء كثيرة غير مهمة. لأن الامر المهم في النهاية، كما تقول صديقتي الفرنسية/ او انت، هو الحديث عن أي شيء لا اكثر.

لقد حدث كل هذا سابقاً يا نود. حدث نفس الشيء مع صديقتي الدانماركية، والسويدية، والاسبانية، ومع صديقتي الصينية، ذات الشعر الداكن، التي تجيد ست لغات.

-4-

الوقت مساءَ، التلفاز في الصالة يقدم فقرات استعراضية صاخبة. انت بشورت قصير وقميص معقود على بطنك العارية، وشعر معصوب بمنديل احمر، منهمكة بتنظيف السجاد بمكنسة كهربائية صغيرة. حاولت ثنيك عن فعل ذلك الان، وتأجيله الى نهار الغد، لكنك تقولين، أنك تتشاءمين من رؤية البيت مبهذلاً نهار عطلة الاسبوع، ولا تريدين أن تضيعي يوم الاجازة بأعمال بيتية. لكني افكر بليلة من العربدة واللامبالاة. ليلة واحدة من البعثرة وقشور المكسرات والعلب والاكياس الفارغة، يسوغها أن نهار الغد هو يوم عطلة.

انشغل بسبب مللي، وجو العمل الذي تثيرينه داخل الشقة، بتفحص الصور ذات الاطارات الخشبية على الحائط. أعدل المائل منها، او أميل بعضها. أقف امام سيف الساموراي المعلق بست مسامير خشبية على الحائط. أمسكه من المقبظ وأسحبه ثم ادخله . اسحبه وادخله، وصوت الاستعراض البهيج يأتي من التلفزيون مهروساً بصوت مكنستك الدؤوبة. أدخله ثم اسحبه لمساحة اكبر، ويلتمع نصله على ضوء النيونات البيضوية في السقف الثانوي لصالة الشقة ، ثم اعيده بحزم، حين تخطر في ذهني صورة ساموراي متقاعد، متعاطف مع حالتي.

بعد ساعة من ذلك، لم تكن اعمالك قد انتهت. بينما أنتهى الاستعراض منذ وقت طويل، وبدأت نشرة الاخبار المفصلة:

(قوات معادية تنتصر على قوات صديقة..

(أحلام شعبية تتحول الى كارثة شخصية..

(البابا يسافر.. والوزراء يجتمعون.. والناس يتظاهرون.. والجوع يقف في اخر الطابور..

أنظر الى التلفزيون بكسل، ونعاس يداعب رأسي. فأرفع الريموت وأخفض صوته لأنني تخيلت سماع شيء. كأنه ضحك مجلجل أوصراخ يأتي من الشقة المجاورة، بينما ما زلت تغسلين الملابس في الحمام.

بعد لحظات سمعت الصوت المعربد يأتي من الممر خلف باب شقتي ، ثم سمعت ضربات لحوحة على الجرس والباب، فقمت قلقاً وأسرعت الى الباب. صحت :"من؟" ، فغمغم صوت مألوف لدي، ثم هدأت الاصوات الاخرى، وجاءني سؤال وقور يطلب فتح الباب لأمر هام.
وياليتني لم افعل، دفعني اشخاص ضخام جانباً، وارتفعت صيحاتهم وهم يدخلون بتدافع واحداً تلو الاخر مقلدين الهنود الحمر، داروا حول الاثاث، وحين رأوني واقفاً خلفهم ، سحبوني ضاحكين وانا احاول تهدئتهم، كان السكر باديا عليهم وجل ما كنت اخشاه هو ان تخرجي وتريهم، ولأنك لم تخرجي خمنت أنك ظننت هذه الاصوات فقرات تمثيلية واستعراضية يبثها التلفزيون.
كان الامر يبدو لي عبثاً ولهواً من جيران سكارى لا يعون ما يفعلون، لكنه سرعان ما تجاوز هذه الحدود. انقلبت المناضد الصغيرة ثم تأرجح التلفزيون وهو يعلن عن كوارث طبيعية في احدى البلدان النائية.
وقبل ان أهم بفعل شيء هوى التلفزيون على الارض بصوت ارتطام حاد، ثم صمت نهائياً. وحين ألتفت الى جهة باب المطبخ خشية ان تكوني سمعت ذلك، تفاجأت بوجودك هناك ، واقفة بردنين مرفوعين وكفين ملطختين بالصابون، ونظرة خوف عميقة تنقلينها ما بين وجهي ووجوه هذه الوحوش التي هبطت إلينا فجأة.
اكتسى الامر مع دخولك طابعاً اخر. ما الذي كان سيجري لو انني وحدي في الشقة؟ فليذهب التلفزيون الى الجحيم، لن يحدث شيء خطير ، تتكسر بعض الاغراض ، وفي النهاية سيخرجون ، ثم يأتون صباحاً ليعتذروا.
قال صاحب الصوت الذي قلت انني اعرفه، بأنهم عصابة (Midnight) فأنفجر لاخرون بضحك صاخب، ثم اكد صاحب الصوت المألوف بلكنة وقورة، أن أي عمل اقوم به سيعرض حياتي للخطر، لذا عليّ أن اعطيهم جميع مدخراتي الان. قال هذه الكلمات مع أشارة حازمة من يده. صمت متأملاً وجوههم

وعجزت عن معرفة هل كانوا يمزحون ام هم جادين فيما يقولون، وارتجفت شفتي دون ارادة مني وقلت لهم أنني غريب هنا، وانا لا اكاد اصرف شيئاً، أنا لا أعرف حتى ما هي نقود بلدكم، انني أعتاش على الاحلام. قال صاحب الصوت المألوف بحزم، بأن ذلك لا يخصهم، وانهم يريدون النقود، قلت : خذوا أي شيء تعتقدون انه ثمين، واذا صادفتم اثناء ذلك اية نقود، فخذوها، رغم أني لا اكذب عليكم.
حدقوا الي طويلاً بعيون محمرة، كانوا غلاظاً ذوي زنود اسطوانية ، وشعر مسترسل، ولم أنتبه الى ذلك تماماً حين لعبوا لعبة الهنود الحمر حولي قبل قليل. نظروا نحوك، كنت تتراجعين الى الحائط فلا تسعفك قدماك، من المؤكد انك لم تتعرضي لمشهد مثل هذا سابقاً ، وإلا ما بدوت بمثل هذا الرعب. رجعوا ببصرهم الي وقال صاحب الصوت كأنه يحاكمني: " هذه زوجتك؟". قلت: نعم.
ـ اين الاوراق التي تثبت ذلك؟
ـ حدث الامر منذ زمن بعيد، ولا اذكر أن بدأ بورقة أو غير ذلك.
رأيت ابتسامة سخرية على شفتيه، وهو يسمع جوابي، وشعرت بوخزة عميقة حين شاهدت الجوع في عيونهم الناظرة اليك. لقد اعطيتهم الاذن قبل قليل بأخذ اي شيء ثمين يرونه، ولم اكن افكر بك. لمحت سيف الساموراي على الحائط خلفهم، واحسست ان علي التصرف بسرعة، فالوقت يداهمني. " ان هذه المسرحية الصغيرة يجب ان تنتهي" قال شخص ما في داخلي " يجب ان تستثمر اية فرصة لذلك".
يجب ان اصل الى السيف، ليس لدي شيء اخر. رفعت يدي دون ان أفكر كثيراً وقلت لهم محاولاً الابتسام:" اذا اردتم خذوها". واشرت اليك. اية لعنة دفعت هذه الكلمات الى فمي، وماذا كان امامي من افكار مشوؤمة غير هذا الخاطر المفاجئ. لم أكن احتاج إلا ان يبتعدوا عن الحائط قليلاً، اردتهم ان يبتعدوا عن الحائط فقط. كانوا غير مسلحين إلا بعضلاتهم

، وبخطوتين سريعتين استطيع الوصول الى السيف، وأستلاله بلمحة عين، حينها، سأحدد أنا اتجاه مسرحية منتصف الليل.
شاهدت الاستياء والرعب على وجهك ، وخيل الي انك ترتجفين. كنت أعول على امل ما بعيد جداً ، هو كونك قد فهمت خطتي الصغيرة.
علا صوت الهنود الحمر من جديد، وبدأوا يرقصون وهم يقتربون منك ويدورون حول الاثاث. كان باب الشقة مفتوحاً، لذا حمل الينا اصوات استغاثات مفاجئة، وصراخ، وعربدة موسيقى وغناء غير مفهوم. الامر الذي جعل رفقاء ليلتي الغريبة، يلتفتون برؤوسهم جميعاً الى الخلف،ثم بنظرة فاحصة الى وجهي ووجهك وانت تقعدين متكئة على الحائط ، حددوا أمراً ما. صمتوا للحظات وكأنهم استفاقوا، ثم ركل صاحب الصوت المألوف الطاولة المقلوبة وراءه، واتجه الى الباب فتبعه الاخرون، وفي غضون لحظات غادروا الشقة جميعاً.
أنظر من خارج باب شقتي الى الممر الفارغ والمضاء بمصباح أحمر صغير، ولا ارى أو اسمع شيئاً. أغلقت الباب بأحكام ثم قلت: هل كان عند الباب احد؟.. هل طرق على الباب احد، ام أنني اتوهم ذلك.
دخلت، فتيقنت من الامر حين وجدت الصالة التي انهمكت طوال المساء بتنظيفها ، مبعثرة ومربكة، وزجاج شاشة التلفزيون متناثر على السجاد، كذلك طين وتراب من احذية المقتحمين، ورماد واعقاب سجائر، وأشياء اخرى، لا اعرف كيف ومتى سقطت او تحطمت أو أنسكبت. ووجدتك هناك عند الحائط تبكين، وصوت الماء في المغسلة يأتي من عمق المطبخ. اقتربت منك، فسحبت ذراعك، وشتمتني ثم نهظت لتدخلي المطبخ. وبقيت حتى وقت متأخر أحاول يائساً شرح خطتي الصغيرة المتعلقة بسيف الساموراي التي كنت بصددها . لكنك تقولين أنني لا أملك اثباتاً لذلك:" لقد دعوتهم لأغتصابي بكل برود، أردت أن تنقذ نفسك لا اكثر".
قبل ان ننام في مكانين منفصلين، قلت لك صادقاً، أن عليك أن تتأملي جيداً في داخلك. أنا حقاً لا املك اي اثبات، ولكني كنت

واثقاً ـ ويالخطأي ـ بأن احساسك سيحسم الامر لصالحي، قلت ذلك بفم مرتجف، لكنك لم تسمعي شيئاً، كنت اشبه بمن يهذي مع نفسه داخل الشقة التي عبثت بها الفوضى.

-5-

ها هي عزيزتي نود بجواري، ولا استطيع مخاطبتها. انني اتحدث عنها الان بصيغة الغائب، ولقد رويت الحكاية السابقة، لأنها ترمز الى كل ما يحدث في العادة بيننا. ان لديها قراءة مختلفة للاشياء. وتعوزني دائماً الادلة لأثبات أي شيء أمامها. فينتابني حزن شديد لمجرد التفكير بأنها تعاني من العزلة بجواري، أحاول صنع اي شيء لأجعلها تشعر بالسعادة، أحاول ان اكون سبباً لسعادتها . لكنها لا تساعدني في ذلك.
نتجول على الارصفة العريضة ذات اللون الداكن، ونثرثر ونحن نأكل البطاطا. وارى في وجهها وعينيها تأنيباً دفيناً. رغم انها تضحك، وتتكلم بحماس. لكن لحظات الصمت الطويل التي تمر بين احاديثنا هي اللحظات التي تجلدني فيها بشرودها.
وقفنا أمام نهر (الشارع الاقدم) ، وشاهدنا عدداً كبيراً من القوارب الورقية وهي تتأرجح على سطح الماء الثقيل، ثم رأينا طيوراً تشبه النوارس، ولكنها اكبر حجماً تحوم حول الجسر الحديدي الضخم القائم على النهر، ترتفع مع هبات الهواء ثم تنخفض. وحانت منا التفاتة الى قارب صيد يستعمل من قبل السياح، وهو يتقدم بصخب دافعاً الامواج الطينية الى جانبيه. اقترب من الضفة، وشطر كتيبة القوارب الورقية البيضاء التي كنا نتأملها الى نصفين بحركته العجولة. شاهدنا سوية هذه القوارب الصغيرة التي تركها اصحابها، كيف تنقلب يائسة أو يرميها الموج على الصخور، عائدة الى كونها كتلاً ورقية مجعدة ومبللة لا اكثر. كان منظراً محزناً. شعرنا بالخوف، وضممت نود الى ، فوجدتها ساكنة وباردة كالجثة.

-6-

في هذا البلد ، هناك من يؤمن بالاساطير والخرافات ايضاً. لمست ذلك وانا اتجول مع نود. وإلا ما هذا البخور في الشوارع والساحات العامة والنوادي والكافتريات ومراكز التسوق واللهو، أن لم يكن لطرد الارواح الشريرة ؟ ولماذا هذه الرسوم البشعة لشياطين وغيلان وكائنات مشوهة؟ هل هو فن حديث؟ ولكن لماذا اراهم يقتربون منها كأنهم يصلون، وتتجمد ملامحهم بنظرة مبتهلة. أهذا ما يريده الفن اذن؟ ان يستحوذ على الروح التائهة، ام انها ثقافة القاع وقد طفحت على سطح المدينة الصقيل؟
افكر بذلك وانا اتذكر البطاطا المشوية قبل مغيب الشمس التي تزيل العزلة والقنوط وريح البطن والكآبة وطوارق الشؤم، واعجز عن تذكر الذي انبأني بذلك. قلت سأجرب مع نود هذا السحر الغريب، مادام ذي فائدة للناس هنا. ولكن، كيف سأقنعها؟
وجهت وجهي الى القرص المدمى للشمس الغاربة، ورفعت الثمرة الكالحة اللون كأنها حجر، نفظت الرماد عنها ثم قشرتها بأظافري، وأكلت منها لوحدي.
قالت:" انا لا املك ذاكرة، انا لا أتذكر من انت حتى". قلت لها:" بسبب ذلك.. انت تشعرين بالغربة معي". قالت:" انا كائن بلا ذاكرة.. اتفهم؟.. انا ابنة اللحظة". قلت لها :" الا يمكن مثلاً ايجاد حل وسط". قالت :" أذا اردت يمكن ان ننهي هذا الامر تماماً، كما تنتهي الحكاية عادةًً".

-7-

قالت وهي تفتح الشرفة وتتكئ على سياجها المعدني :" انظر"، رفعت يدها النحيفة واشارت الى سلسلة جبال واطئة خلف حدود المدينة، ثلاث أو اربع قمم باهتة اللون، ليست بارتفاع كبير، ولكن الكل هنا يسميها جبال المخلص. ربما لأن الشمس تشرق عادة من بينها، فتغمر بدفئها البرودة الدائمة لهذه المدينة. إلتفتت إلي ووجدتني اتنشق الهواء واطبطب على صدري بأرتياح. أبتسمت ثم قالت:" انظر.. هناك.. الثاني، ذاك

الجبل ذي اللون الوردي.. اتراه؟". قلت :" نعم". فأكملت :" هنا في هذه المدينة.. يسمونه جبل العزلة، او جبل خالق الماء .. تقول الاسطورة ان اول قطرة ماء خلقت عند قمة هذا الجبل، هناك طقس قديم لا يعرف احد كيف أبتدأ.. لكن الكثيرين يزاولونه سراً، لأنه يخالف الايمان بالعقل. عندما يشعر احد ما بعزلة شديدة، فأنه يرتقي سفح هذا الجبل حتى يصل الى قمته، وهناك سيجد خلاصه من سجنه لينزل بأمل جديد.

قلت لها: كيف يجد ذلك؟ قالت: أنها قضية تجربة، يجب ان تفعل ذلك حتى تعرف.

في الليل وقبل أن نأوي الى الفراش، كنا انا ونود قد حسمنا أمراً ما ، غداً هو يوم أجازة. سنرتدي ملابس رياضية، واحذية مطاطية، سنأخذ غداءنا معنا ونقضي نهارنا في تسلق الجبل. نستنشق هواءً نقياً.. ونبتعد عن الارصفة الحجرية الحمراء، ونهر القيح الثقيل وغرف العزلة الخانقة بجدرانها مانعة الضوء.

-8-

رمتنا الحافلة عند آخر نقطة لها، وما بعدها يمتد الشارع الكبير الذي يربط المدينة بما ورائها. رفعنا رؤوسنا الى السلسلة الصغيرة، وحسبنا انها في متناول اليد، لكننا كلما تقدمنا بحقائبنا الرياضية ونظاراتنا الشمسية، نلمس بعدها، حتى انني فكرت لو اننا كنا قد جلبنا معنا دراجتين هوائيتين، لأختصرت المسافة. متناسياً أن ما كنا نرغب فيه ، هو استكشاف الطريق والاستمتاع بما يصادفنا ، دون حرص على الوصول بسرعة الى هدف ما.

وصلنا بعد جهد الى سفح الجبل الوردي، وكانت الشمس تندفع ببطء لتحتجب وراء الغيوم. لم يكن الجبل وردياً تماماً، ولا اعرف لماذا يبدو من شرفة شقتي بهذا اللون، ألقت نود حقيبتها وجلست بأعياء على حجر صخري وقالت : " لا استطيع ". جلست انا ايضاً متكئاً على الصخرة ذاتها،

فأنحدرت نـود وتمددت بجواري. قالت أنه بارتفاع تلة " لا يرعبك ارتفاعه ". قلت لها أذا كنت تعبة فلنعد. لكنها لم تجبني، نظرت الى الخلف ورفعت رأسي متابعاً الطريق النيسمي الواضح على منعرجات سفح الجبل، وخمنت ان عشرات أو الوفاً ربما سلكوا هذا الطريق. كم هو مضنٍ هذا الامل بالخلاص أذن.
مرت أمامنا سيارة حمل مسرعة على الشارع، بصوت منبه حاد، فنهظنا ونفضنا التراب عن ملابسنا، أنتهت استراحتنا وحان وقت الصعود. كنت امسك نـود من يدها مخافة ان افقدها ، او لنشترك في لحظاتنا المميزة هذه، واعيننا لا تفارق الطريق الشاهق الذي يغيب ثم يظهر مع التحدبات والانحناءات الصخرية للجبل. نرتقي بحذر، او نسير دون جهد كبير على سطوح قليلة الانحناء، نمسك الصخور الناتئة ونسحب اجسادنا اليها، نجلس وننظر للأسفل فنرى المدينة الترابية القريبة البعيدة، وهي تكشف عن اجزاء جديدة فيها. تشير نـود باصبعها الى الاسفل حيث المدينة، وتضحك، ثم تقول :" كان علينا ان نجلب منظاراً". فأقول هازئاً:" لماذا؟.. حتى نعود الى المدينة؟ ".
نرتقي ثم ننظر الى الاسفل، وتغدو المدينة رسماً بألوان ترابية صفراء وخضراء على الارض، مخططاً لمدينة، أو شيئاً لا واقعياً أكثر فأكثر. وبدا النهر الذي يخترقها أكثر تعرجاً، وذا لون قاتم ، لا يحيل الى لون الماء.
تتعلق نـود بكتفي وتقول: " لا استطيع" . أقول : " فلننزل أذا، يكفي هنا، فلنوفر جهدنا الباقي للنزول"، لكنها تقول :" لا .. فلننه الامر". تصمت ثم تنظر الي بوجه متعب وتقول :" ألست الذي يفكر دائماً بالاشياء المهمة، لماذا تبدو متردداً أمام القيام بها؟". فأبتسم واضمها، واهمس مشيراً الى الصورة الغريبة : " أنظري الى المدينة، ألا تشبه رسماً مدرسياَ، أتصدقين أننا نعيش في هذه اللوحة البدائية؟". لكنها لا تجيب.
اخذ الجوع مأخذه منا، فجلسنا عند مساحة مستوية تطل على منظر شاسع ومثير، المدينة المعينية الشكل ذات الالوان

السجادية من جهة ، ومن الجهة الاخرى، النهر الاسود والشارع الطويل الذي ينحني عند خروجه من المدينة ليغيب داخل امتداد بني مرقط بالاخضر، وخلف كل ذلك، فضاء مضبب حليبي اللون ، يمزج الاشياء المقتربة من الافق مع بعضها. قلت مع نفسي، ربما بهذه الطريقة يكتشف احدنا الحل، أنك صغير جداً وضئيل أمام اللامتناهي أيها الانسان الساكن هناك كنملة تحت السقوف الحجرية الواطئة.

بعد وجبة الغداء، وجدنا في انفسنا القوة والنشاط للمواصلة، استراحت اقدامنا بما يكفي لأستئناف الصعود، وخفت حقائبنا. كان امعان النظر الى امتداد سفح الجبل أسفلنا يورثنا قلقاً وخوفاً. لقد وصلنا الى مكان شاهق، كيف سننزل، أن الجاذبية تبدو من هنا وكأنها متآمرة مع اغراء الوصول الى القمة، ولربما سيقرران ضدنا في لحظة ما شيئاُ ليس في الحسبان.

بعد مدة ، بدا لنا ان شخصاً ما كان قد سبقنا في الصعود هذا النهار، حيث شاهدنا في الاعلى جرماً صغيراً يظهر ثم يختفي في التموجات الصخرية للجبل. وكلما اقتربنا أكثر، توضحت لنا هيئة هذا الجرم، أنه امرأة ببنطلون وشعر معقود على شكل ضفيرة صغيرة، نقترب، وتبدو هذا المرأة بطيئة الخطوات، ثم ها هي تلتفت للوراء وتقف، تسكن في نظرتها إلينا ثم تجلس كأنها تنتظر وصولنا. حييناها من بعيد كأننا نعرفها، او كأننا اصحاب هدف مخجل واحد. وحين وصلنا اليها، أنطرحنا على ظهورنا بجوارها بطريقة استعراضية تدل على الانهاك، وبدأت هي تضحك.

كانت واحدة من فتيات المدينة. قالت أنها خططت لهذه الرحلة الصغيرة منذ زمن، لكن المشاغل الكثيرة تؤجلها. بدا وجهها ضامراُ وذراعاها نحيفتان مثل ذراعي نود.. وشعرها الاسود، وروحها الرياضية اللطيفة. بدأت تسألنا دون تحرج اسئلة عديدة، يبيحها ربما هذا الاختلاء الذي نحن فيه. انه شيء اشبه بما يحدث بين نزلاء السجن. أختراق لحجب شخصية كثيرة لدى الاخر بأتفاقٍ خفي، كتعويض عن حرارة الوجود الاجتماعي. تكلمنا عن المدينة، وعن التلوث، وعن الرغبة

بحياة أقل احتداماً وأكثر توافقاًُ وانسجاماً، وبدت نـود صامتة أثناء ذلك، ترمق بعينين حياديتين وجه هذه المرأة التـي لا تبدو أنـها تعاني من أية مشكلة.
نـهظنا وبدأنا نصعد ثلاثتنا، وكـان لأحاديث رفيقتنا الجديدة اثـراً طيبـاً، وممتعـاً، تتوقـف ثـم تنظـر الـى الاسـفل وهـي تثرثـر، ثـم ترفع حجراً وتلقيه ضاحكة، يهوي الحجر قافزاً حتى يغيـب، ثم تلعن المدينة، وألاحظ أنها لا تحمل ايـة حقيبـة. بعد مدة توقفت نـود، وهي تقول : " لا استطيع". توقفت رفيقتنا ايضاً واقتربـت منا، قلت لها بخفوت : " استريحي قليلاً ثـم نكمـل" . قلـت ذلك وانـا انظـر اليهـا والـى رفيقتنـا مشـجعاً، قالـت : " لا اسـتطيع". قلت لهـا محـاولاُ حسم رحلتنـا المرهقـة : " يكفـي اذن، سنجلس هنا حتى تستريحي ثم نعود أدارجنا". نظرت رفيقتنا نحو القمـة وقالت بأسف :" لم تبق سوى مسافة بسيطة". قلـت وانـا امسد علـى سـاقي نــود : " لا نشـعر برغبـة شـديدة لأكمـال المسـافة، اردنـا ان نرتقـي هذا الجبـل فحسـب، لـيس مهمـاً ان نصـل الـى ارتفـاع معـين". لكـن نــود أعترضـت وهـي تنظـر الـي :" انـا سأبقى هنـا، سأستريح ثم ألحق بكم. عليك ان تصـل الـى القمـة، تـذكر". قالـت ذلـك بتصـميم، وخجلـت مـن الهـدف الـذي دفعنـي لكي أكلفها كل هذا العناء، أي شيء تجريدي وغير واضح ذلـك الـذي جلبنـي الـى هـذا المكــان. غيـر ان عينـي نــود الصــافيتين تصـران علـى اكمـال مـا بدأتـه، اكسـر بصـري الـى الارض، متسائلاُ، الم تكن تريد هـي الاخـرى أن تشفى بهذه الرحلـة من شيء ما؟
تركتهـا علــى مضـض، وبـدأت اتقـدم صـعوداًً مـع رفيقتنـا الغريبة، وانظر كل حين الى الوراء، فأرى نـود حيث جلسـت ، تنظر الى السفح الممتد نحو الاسفل. قلت مـع نفسـي .. ستلحقنا بعد قليل. وقالت الفتاة الغريبة دون ان تنظـر الـي.. ان اغـراء القمة لا يقاوم، ثم بدأت تغذ من خطواتهـا الرشيقة، وأنـا اتبعهـا بحمـاس غيـر مؤكـد، واشـجع نفسـي قـائلاً :" ان كـل شــيء فـي النهـاية هو من اجل نـود".

بدأت اشعر اننا بدأنا ندخل الغيوم، واذا لم يكن شعوري صادقاً، ففي كل الاحوال، أنا هنا اقرب الى الغيوم من أي شخص آخر يحبو على الاسفلت.
وجاءت اللحظة التي انتظرتها، ها أني اطأ بقدمي قمة الجبل، لقد عرفت الان مشاعر آرمسترونغ، باقة زهور على قبرك أيها الرجل الذي اخرجت دوسة القدم من رتابتها، أنتابتني نشوة مشابهة لتلك التي يشعر بها من ينفصل عن الارض. وعن كل شيء. تركز شديد للذات ، تركز اجباري تفرضه النقطة التي وطأتها. كنت فرحاً دون شك، لكن الفتاة التي كانت معي بدت فرحة اكثر مني .أندفعت صارخة بهستيرية، وبدأت تقفز بأنفعال، وخشيت أن تنزلق في اية لحظة فتهوي الى الوادي، لكنها تعلقت برقبتي فجأة، وسط دهشتي، وبدأت تدور بي وهي تطلق ما يشبه العواء، وبسرعة انتقلت عدوى فرحها المفرط إلي ، فغدوت اضحك أيضاً، وانا احاول فك خناقها عني.
نظرت الى الاسفل كأنني احسب المسافة، او كأنني اتوقع ان تظهر نود بين لحظة واخرى، وتمالكت رفيقتي نفسها أخيراً، فذهبت بخطوات نشطة لتجلس على مقعد صخري يطل على المنظر وراء الجبل، وحين اقتربت منها شاهدت معها وراء الجبل شيئاً يسلب اللب، بحر شاسع من اللون الاخضر الداكن يتصل بالافق، ذهلت، واخذتني زوبعة انفعالات متضاربة، ساد الصمت بيننا للحظات، ولم يكن سوى صوت الريح وهي تلتف في آذاننا. قلت مستغرباً :" لا يمكن ان تكون كل هذه غابة؟". قالت رفيقتي ناظرة الي :" ماذا تعتقد، ما أسم هذه الغابة؟". قلت :" هل هي غابة ؟.. لا اعرف". مدت يدها الى ضفيرتها وبدأت تعالج الشريط المطاطي الذي يربطها، ثم شرعت كأنها تقرأ في كتاب :" هذه الغابة ليس لها اسم، كل من يصل الى هذا المكان يطلق عليها أسماً جديداً، كل من يقطع هذه الرحلة يمتلك الحق في تسميتها اسماً شخصياً، لا يعني احداً غيره". قلت لها مستغرباً :" من أين لك هذه المعلومات؟". فضحكت وهي تحرر شريط المطاط من

ضفيرتها وتلقيه في الهواء. دعكت بيديها على زنديها كـأنها تستشعر برداً خفيفاً ثم قالت : " هل صدقت؟.. لقد اخترعت ذلك لتوي". ثم ضحكت من جديد.
تأملت القمم الخضراء المدببة والبعيدة ،انها تختلط وتمتزج، حتى لتغدو سجادة ذات لون كامد، يبهت كلما اقتربت من الافق اكثر. كنت مصغياً لكلمات رفيقتي ومستثاراً. قلت أن ذلك يلائمني، فليكن مختلقاً، أنا لا أعرف هذه الغابة الهائلة، ولم يخبرني احد عنها سابقاً أي شيء، حتى نود لا يبدو انها تعرفها، وبأمكاني بعد كل هذا الجهد في الوصول الى هذا المكان أن اصفها على الاقل. أطلق عليها اسماً يعني لي شيئاً حين اتذكر هذه التجربة الفريدة. ألتفت الى رفيقتي فوجدتها ترخي من ضفيرتها بهدوء أمام امتدادات الاخضر الكثيف، قلت لها :" ماذا ستسمين هذه الغابة لو اتيح لك ذلك؟". قالت دون تردد :" سأسميها .. الغابة الخضراء الكثيفة الممتدة بأتساعها حتى الافق". فأبتسمت وأتكأت براحتي على الملمس البارد لصخر الجبل وتذكرت نود، أنها تشبه نوعاً ما هذه الغابة بشيء ، هناك ما لا يرى أو يقبض عليه مهما اقتربت منه. قلت وانا ألملم جسدي تحت وطأة هبة هواء باردة: " أما انا فسأسمي هذه الغابة.. نود". ألتفتت إلي وهي تغالب المفاجأة، وخجلت من التعبير الذي بدا على وجهها، ربما اعتبرتني شخصاً ساذجاً يلهج بأسم حبيبته في كل مكان، أو انها اصلاً لم تعرف ماذا تعني هذه الكلمة لدي (نود). اشاحت ببصرها عني ، وبدأت تحرك باصابعها خصل الشعر المتموجة، ثم انكفأت على نفسها تنظر الى نقطة غير محددة.
مر وقت لا أعرف امده، قضيناه صامتين، ثم التفت اليها وقلت كأنني استيقظ:" لقد تأخرت نود ، يجب ان اعود الان". لكنها لم تجبني، وحين اقتربت من وجهها شاهدتها تبكي بصمت، تفاجأت من هذا التحول الذي اعتراها، سألتها عن الشيء الذي يبكيها، فمسحت باصبعها وجنتها المبللة ولم تجبني ايضاً. كنت راغباً بالنهوظ ، لكن كيف سأترك هذه الفتاة في وضع كهذا، وضعت يدي على كتفها مواسياً وقلت :" لا بأس". ارخت

وجنتها على كفي واغمضت عينيها، فسرت في جسدي للمرة الثانية خلال هذا النهار، عدوى هذه المرأة، شعرت بالحزن، لأجلها، ولاجل نفسي ونود، ربما سمي هذا الجبل بأسم خالق الماء، لأن من يزوره يشرع بالبكاء، وإلا لماذا ارغب الان وبشدة في البكاء، ألاني ضعيف هكذا أمام انفعالات الاخرين أم لانني أساساً في وضع مشابه لوضع هذه المرأة التي تنحدر الدموع على وجنتيها بصمت. من المؤكد أن رحلتها الى هنا كانت بمنتهى الجدية، ليس الامر نزهة، اشعر بذلك الان، ألتفت الى الوراء، ورغبت لو أتركها، لكن آه.. كم انا حزين، هل سأسألها ثانية عن مشكلتها؟ وهل أنا قادر حقاً على مساعدتها، يا للسخرية، ان هذه وظيفة شخص أخر غيري، والا ما كنت كلفت نفسي هذا العناء وجئت الى هنا. ولربما أنا في الحقيقة الاكثر حاجة الى هذا البكاء الحار.

جلست بجوارها ، فانحنت ببكائها عليّ أكثر، هدهدت بيدي الاخرى على كتفها واغمضت عيني، ولم اعرف لماذا تذكرت وأنا أحضن هذه الفتاة حكاية قرأتها في كتاب ، عن اثنين يشبهاننا، وصلا الى قمة جبل، وكانا في صدد ان يريا العالم من فوق. تلفتا في جميع الاتجاهات، وألتقطا صوراً لجزء لا بأس به من العالم كما يبين من اعلى القمة، ثم جلسا سعيدين، ولم يلبثا طويلاً ليتكشف لهما الهدف الحقيقي من رحلتهما، كانا يبحثان في أعماقهما عن مكان يختليان فيه. تعريا تماماً، وألقيا ملابسهما في الوادي، وعلى الصخور الملساء والناتئة، مارسا الحب لأول مرة، او ربما ثاني مرة، عاشر مرة.

- 9 -

لبست رفيقتي قميصها وزررته، ثم ادخلته في سروالها، وبدأت تمسد على شعرها وتحركه في الهواء، بينما وقفت انا اتبول بأتجاه الغابة الداكنة. قلت لها: هل سننزل الآن؟ .. لكنها لم تجبني. اشتدت سرعة الهواء وارتجف خيط البول قبل ان ينقطع.

ارتقت الفتاة بعض الاحجار، ثم نظرت بأتجاهي وجلست. اقتربت منها وانا ارفع سحاب بنطلوني، كانت تدعك وجهها بيديها وشعرها المحلول يتطاير في الهواء. قلت : ستغيب الشمس قريباً، علينا أن ننزل، رفعت رأسها بأتجاهي ، كان الكحل الذائب بسبب بكائها قبل ساعات يرسم هالتين باهتتين حول عينيها، قالت مغمغمة : " لن انزل ". سألتها :" لماذا ؟" قالت : " لأن عزلتي لم تزل بعد ". قالت ذلك وحدجتني بنظرة اشعرتني بأني غريب عنها تماماً.
كررت امامها مثل طفل : " يجب ان ننزل الان ". وتحركت عدة خطوات قلقة ، ثم نظرت اليها ملياً علها تجيب، لكنها اشاحت بجسدها جهة الوادي الاخضر، ثم كأنها تعطيني أمراً بالمغادرة قالت محركة يدها بحزم :" أنزل .. هيا.. أريد ان ابقى وحدي".
لملمت الخذلان في داخلي، وبحثت بعيني عن حقيبتي، لكني تذكرت انني تركتها مع نود. يا ألهي.. ما الذي جرى لها الان؟ نظرت طويلاً الى الفتاة الغريبة وخمنت انها ستلتفت لتلقي علي نظرة وداع ، لكن ذلك لم يحصل، كانت اشبه بمن يترقب شيئاً في البعيد، ربما هي من المؤمنين بالمخلص الذي يقال انه يهبط على هذا الجبل استجابة لمن يطلبه، كانت الجدية البالغة في هيئتها الساكنة تثير الكوامن في ، لذا نزلت بخطواتي البطيئة على النتوءات الصخرية. ألتفت كل حين وأراها كتمثال جالس يحدق مع اتجاه الريح، وكأنها موجودة هنا منذ الازل، وكأن رحلتي المضنية كانت من اجلها، من اجل ان ألتقيها على هذه القمة، او أمر بها في طريقي فحسب، نحو شيء اجهله.

- 10 -

وقفت خائفاً، وحدقت في جميع ارجاء المكان، كانت حقيبتي وحقيبتها في موضعهما الذي تركتهما فيه، لكنها لم تكن موجودة، هل هجست بالذي جرى لي مع الفتاة الغريبة في

الاعلى، هل غضبت؟ ربما تأخرت أكثر مما يجب فنزلت لوحدها؟
حملت الحقيبتين، وبدأ يتنامى في داخلي وانا اشرع بالنزول خوف ثقيل، ياالهي .. ربما سقطت، سأصل الى الاسفل واجد في احد الوديان المنبسطة جثتها وقد تمزقت على الاحجار الصخرية. بدأت اسرع من خطواتي، متمالكاً نفسي كي لا انزلق واسقط أنا ايضاً، ولم يعد يعنيني أن انظر الى الاعلى أو الى أي شيء اخر، وتضخمت في ذهني مؤامرة الجاذبية والقمة التي تخيلتها، وبدأت وساوس مختلفة تسرع من تكاثرها في داخلي. الشمس تنحدر وراء حدود المدينة، والهواء يصبح اكثر برودة، وانا اؤرجح جسدي المتعب، واقفز بأنفاس متسارعة على الاحجار، محاولاً تذكر طريق الصعود، وها أنا اصل الى المكان الذي بدأنا منه، أنظر الى الشارع، ثم التفت وانظر الى القمة، ما زالت الشمس تضيؤها. نود ، اين ذهبت ؟ أجلس مرهقاً، وافرك وجهي واحاول أن استضيء ببوصلتي الداخلية ولكن عبثاً. هل ذهبت الى المدينة ولكن كيف استطاعت ان تعود لوحدها. هل هي هنا بجواري في هذا المكان وانا لا ادري، مسجاةً على الارض دون رمق؟ أم ما زالت في الاعلى مختبئة خلف صخرة لم امر بجوارها اثناء نزولي.. ؟ .. يا الهي.
امضيت ساعة وانا جالس تتناوشني افكار شتى تشل رغبتي بفعل أي شيء، لكني ما لبثت ان حسمت أمري ونهظت وقد قوي ظني انها عادت الى شقتنا، سرت بمحاذاة الشارع ثم اخذت سيارة اجرة. عدت الى وسط المدينة، ورمتني السيارة امام العمارة التي اسكن فيها. كانت الحركة على الارصفة العريضة على اشدها، ولم يشغلني شيء سوى الصعود الى الشقة والتأكد من وجود نود.
فتحت بيدين مرتجفتين الباب، وصحت بخوف وقلق حال دخولي : " نود.. نود ؟" لكن احداً لم يجبني، اضأت المصابيح، ودخلت غرفة نومنا، ثم فتحت باب الحمام، وصحت بحنجرة يابسة على نود، خرجت الى الشرفة ونظرت

الـى الشـوارع المزدحمـة فـي الاسـفل ، دعكـت شـعر رأسـي، وغالبت حرقة تجمعت في حنجرتـي، اردت أن ابكـي ، رجعـت وفتشت من جديد، وقلت ستفتح بـاب الشقة بين لحظـة وأخرى وتدخل. اين يمكن أن تكون قد ذهبت، انها مثلي لا تعرف أحداً في هذه المدينة.
هبط الظلام كثيفاً، وكنـت أبكـي، وأنـا أتشمم ملابسـها، لـم انـزل سـابقاً الـى المدينـة لـيلاً، أيـن سـأفتش عنهـا؟ أبكـي واشـتم فـي داخلي جبل المخلص أو خالق الماء، ثم شعرت بأني غير قـادر علـى تحمـل البقـاء فـي الشـقة اكثـر . نزلـت ووطـأت ارصـفة الشارع وبدأت أسير محدقاً في وجوه النسوة . خطرت نـود مـن امـامي .. صـحت عليهـا : " نــود . . نــود ". لكنهـا التفتـت بعبوس . وكشفت لي بعينيها الناريتين انها ليست نـود .. نـود .. نـود ..اعبر الشارع وتمرق سيارة مسرعة من ورائـي .. ثم فجـأة شـاهدت الفتـاة الغريبـة صـاحبة الجبـل .. ركضـت اليهـا واوقفتها وانا الهث مثل المجنون ، قلت لها ،لقد اختفت نـود .. الم تريها ؟ ارجوك .. انا اريدها.. ساعديني . لكنها قالت ببرود انهـا لاتعـرف عـن مـاذا اتكلـم .. قلـت لهـا سـاعديني ارجـوك. نظـرت الـي باشـمئزاز، وفتحـت حقيبتهـا واخرجـت ورقـة نقديـة ومدت يدها الي .. قلت لها اريد نـود.. لكنهـا قالـت وهـي تبتعد: " ليس عندي سوى هذه .. خذها " . ورمت الورقة منزعجة .
لا اعرف كم تقضى من الوقت ، واي الشوارع سلكت ، وكيف تصرف معي من استوقفتهم لاسألهم عن نـود. هل كنت ابكـي ، ام انـي تجـاوزت حـدود ذلـك ؟ لقد قالـت أنهـا ستسـاعدني علـى الحل ، هل هذا هو الحـل اذا.. ان تختفـي . أهذا هو معنـى انهـا كائن بلا ذاكرة ، هل نسيتني بمجرد تركي لها لساعات ؟
ذابـت الارصـفة وانـدمجت مـع اسـفلت الشـارع. تقـاطع السـابلة بسيرهم مـع السـيارات المارقـة بأضـويتها الحـادة مـن امـامي .. وبدأت الاجساد تغيب لتغدو كتلا سـوداء امـام بصـري يقطعهـا بـين حـين واخـر مصـباح سـيارة مفـاجئ ، كنـت اسير، او اننــي واقـف ولا أعلـم بـذلك، غارقـاً بأسـتغاثتي الكبيـرة : " نــود.. نــووووود ". وهاهمـا مصـباحان يقتربـان بسـرعة مـن كتلتــي

الداكنة .. فيضيئان حدقتيَّ بفضاء من ضوء باهر ، صوت صرير عجلات حاد.
ثم صمت ،
وهمود.

- 11 -

حين فتح عينيه، كان الالم ما يزال ينبض في ركبته اليسرى، ووجد عند رأسه طبيباً ذا لحية حمراء، واثنين بملابس أنيقة ونظارات يقفان كتمثالين. احسوا بأفاقته فجلس أحدهم على كرسي وقربه الى سريره، ثم قال بعربية شامية :
" على أي بلد بدك تروح.. .. إلي وأنا حَ ملي الاستمارة" .
فكر والالم يعتصره ، أن نود أختفت ، ما الفائدة من الذهاب الى أي بلد في العالم لوحده. لا يريد أي شيء ، ما دامت نود غير موجودة.
أعاد الرجل الشامي سؤاله مرة اخرى، فنظر اليه، كان مهذباً وصبوراً. أجابه بصوت متجرح : " اريد ان اعود الى بلدي.. اريد بلدي.. لا أرغب بالذهاب الى أي مكان اخر.

القسم الثاني

أنا.. وحلوم

[.. لن أكون مذنباً، ولكني لن أكون بريئاً ايضاً. إن ما بي لن يعرفه سواي، ولعلي الوحيد الذي يمكنه أن يبحث. فإذا كنت أخشى الألم والحزن والحسرة وتأنيب الضمير، وهي الاشباح التي لا تفارقني في منامي على الاقل، فأني سأمهد بشكل أكيد لحكم أشد قسوة لن يتأخر صدوره عليَّ.]

- الرجع البعيد / فؤاد التكرلي ص27.

- 1 -

عليَّ ان اكتب، وإلا فأنني سأذوب وسط لغط من حولي، والاحساس بتقضي الوقت . كلهم يشعرون بثقل الوقت، وأنا اشعر بخفته، أيامهم الثقيلة ليست شيئاً أمام ادراكي بأن حركة الليل والنهار بدت ومنذ ان وطئت قدماي هذا المكان اسرع من المعتاد. لا اريد أن اتذكر في كل لحظة أن يوم خروجي من هذا المكان يقترب ويقترب. ولأجل ذلك سأؤلف حكاية، هكذا ، اشخبط في اعلى الصفحة الاولى، واتوقف، ثم اشرع في وصف شارع في مدينة شبه ريفية، ناس كثر يتجولون، لأن الوقت عصر، وهناك من يتجه مع عائلته الى موقف السيارات، تمرق سيارة أجرة من امام جنبر معدني للسجائر

على الرصيف، بجوار صبي يلبس قبعة رياضية، يخفف السائق من سرعته بسبب مرور عنزة صغيرة، ويخرج رأسه حانقاً من النافذة، ويشتم الراعي العجوز، الذي يمرق مع عنزاته الاخريات من امام السيارة دون اكتراث، ثم تستأنف سيارة الاجرة حركتها على الاسفلت، بينما يجلس بطل قصتي في المقعد الخلفي لها. يوقد سيجارة ويشرع في التدخين، مطلقاً زفيراً كثيفاً، ثم يفتح النافذة ليحرر خيوط الدخان الملتفة أمام وجهه.

- 2 -

الشمس انكسرت خلف البنايات، أسراب من الطيور تحلق في دورات قصيرة تتشابك ثم تنحل، وتهبط في دورانها، والهواء الفاتر لأخريات الربيع ينساب بهدوء حتى انه لا يكاد يحرك سعفات النخيل المزروع في الجزرات الوسطية أو في باحات البيوت الضيقة والمكتظة على بعضها. ولأن الوقت عصر، تبدو الشوارع مزدحمة بسيارات الركاب الكبيرة الملطخة باوحال المياه الطافحة من المجاري، والتي صدأ بدنها القريب من الارض وتقشرت صبغته، اشخاص يركبون الى الكاظمية والعلاوي والنهظة والباب الشرقي والساحة وباب المعظم، وعربات حلوى وعصير، بمصابيح كثيرة أوقدت مبكراً، ومسجلات تصدح بأغاني شعبية عند ركن الشارع، يمر سرب من عربات نفط خضراء اللون تجرها خيل هزيلة، ويقودها صبية سمر البشرة يعتمرون قبعات شبيهة بقبعات الكاوبوي، ينعطفون مزهوين ليدخلوا الشارع الرئيس، وهم يقرعون اسطوانات حديدية صغيرة مربوطة على يمينهم بأيقاع منغم، يجذب انتباه السابلة.. (الشقراء الاصيلة)..(هنادي).. (محبوبة السهارى). وعبارات اخرى مكتوبة بخط بدائي على بدن العربات الاخضر الغامق. ويكون بجوار ذلك عادة عين جاحظة يخترقها سهم غليظ.

يفكر (حلمي) واضعاً كوعه على حافة النافذة المفتوحة لسيارة الاجرة، وهي تهدهده بتوقفاتها الفجائية ثم شروعها بالحركة،

بأنه لم يكن يتوقع ان يرى الحياة على احتدامها السابق، وكـأن شيئاً لم يحدث. لقد كـان يسمع هنـاك أن بغداد محيت من علـى الخـارطـة، وان اطنـان المـواد المتفجـرة جعلتهـا هبـاءً منثـوراً. يتابع السابلة بدشاديشهم البيضاء وبناطيلهم وهم يدخلون محـال الصاغة أو يخرجون من محال المأكولات السريعة، أنـه الوقت المميز خـلال اليوم، حيث يتسكع الجميع ليرفهوا عن انفسـهم بعـد نومـة الظهيـرة، أو بعـد الاغتسـال لأزاحـة يـوم العمـل الطويل، وانتهاز ساعتين للتحرر من الحياة المرهقة ، أو ربمـا لأجـل التبضـع لا اكثـر. انـه وقـت مميـز حقـاً، حتـى غـروب الشمس، أو ما بعده بقليل، يفكر حلمي بذلك ، ويخمن ان الوقت سيكون كافياً لاهلـه كـي يعبروا عن فرحتهم بوصـولـه قبل ان يداهمهم الظلام.
سيرميه السائق العجوز النكد الذي لا يتوقف عن الثرثرة وشتم كل من يمر من امامه، عند الرصيف امام زقـاق السـادة، هنـاك في منتصف الزقاق تماماً ، بيت ابي حلمي وبيت عمه. ملابسـه الجديدة والغريبة ستجعل التعرف عليه صعباً في البدايـة. ولكن الاطفال الذين يملأون الشـارع سيتوقفون عن لعب الدعابل أو الشحيتان، وسيركض اثنان او ثلاثة منهم بسرعة البرق داخلين الـى الزقـاق، ويهدوا بقبضـاتهم الكالحـة الصـغيرة ببيـان بعض البيوت لينبؤا الجميع ان حلمي قد رجع.
فرقـة رزاق الامير، التـي تنـافس فرقـة عزيـز الحـزين، ستراه بقامتـه الممشوقة وتـورد خديـه يتجـه الـى بدايــة الزقـاق فيقطـع اعضــاؤها تمــارينهم الارتجاليــة، ويخرجـوا بــالاتهم الهوائيــة والايقاعيــة ليبــاغتوه مــن الخلــف بزفــة مفاجئــة امــام مــرأى الخــارجين والـداخلين الـى الزقـاق او اولئـك الشـباب المراهـق المتبطـل الواقـف فـي اركــان الشــارع او عنـد جنبـر الحــب الشمســي والســجائر، ويســتعر جنــون رزاق ببوقــه النحاســي المخسـف، منغمـاً لحـن أغنيـة اشـتهرت منـذ يـومين فقط، ينظـر اليه حلمي ويضحك شاعراً بالخجل.
تصـل السـيارة بحلمــي الــى بدايــة سـوق الحراميـة المترامــي الاطراف، فيستيقظ من هواجسه ويطلب من السائق أن يتوقف،

ثم ينزل ويسحب حقيبته الملونة الكبيرة الخفيفة، وينظر الى بداية الزقاق فيضرب قلبه بشدة.
يخطو على الرصيف العريض المتشقق كأنما بفعل زلزال قديم، ويتحاشى بقعة ماء زرقاء اللون تغيب فوهة منهول طافح، يرفع رأسه الى ستارات الاسطح العالية المخرمة والمزخرفة بألوان البيج والكاكاو، ويرى سجاجيد مبللة وأخرى ناشفة، وأثواباً نسائية منشورة عليها، أطفال ونساء عجائز ومراهقات ، ينظرون اليه بأعين ساكنة، يتقدم داخلاً الزقاق والاسطح ملئى بالاطفال والنساء، والنظرة المنشدهة نفسها على كل الوجوه، ثم ترتفع من الابواب المفتوحة والمعتمة زغاريد منخفضة، تتصاعد شيئاً فشيئاً وتتزايد بنغم واحد متصل، ينظر الى الابواب الواطئة المعتمة فيرى بالكاد أعين نساء سود البشرة وقد غطين وجوههن بفوط داكنة، يدخلن أيديهن تحت الفوط الى مستوى الفم ويزغردن، وفي أثناء ذلك كان سرب من السعفات المنتصبة يحملها أولاد بدشاديش مقلمة وبيجامات بازة ثخينة ، يتقدم اليه من الطرف البعيد للزقاق.
وقبل ان يصل الى باب بيته شاهد امه وهي تخرج مع ثلة من نساء اعمامه واخواله وبناتهن وهن يزغردن ويرمين الملبس والجكليت في كل الاتجاهات. اراد ان يبكي لما رأى أمه، لكنه قرر ان يبتسم، افرد وجهه بابتسامة هادئة وواسعة، وما ان شرع بذلك حتى أحس بان وجهه قد تشنج ، ولم يستطع بعدها ان يرخي عضلات فكيه، وهو يقابل أهله، واستمر وجهه بهذه الابتسامة الى ما بعد منتصف الليل. استخدم ابوه واولاد عمه المراهم والتدليك من اجل ايقافها ، لكنه نام ليلتها واللعاب يسيل ولا يتوقف من فمه المبتسم.
يستيقظ حلمي مرة اخرى، حين تحتضنه امه وسط الزقاق، ويشعر بدفء رائحتها، تقبله في كل جزء من وجهه، وينوي ان يبتسم ، لكنه يجد البكاء اقرب اليه من ذلك.
تسلمه امه الى خالته ، وتتلاقفه نساء البيت تباعاً ، ثم ينحني الى جدته قصيرة القامة، ويغفو على شيلتها الرمادية ذات

الروائح القوية للحظات، ولم يكن وهو في كل هذا منتبهاً الى ابنة عمه وخطيبته نادية التي لم تتمالك نفسها فذبلت أقدامها وهي تحاول لمسه وجذب انتباهه أليها، أمسكته من قميصه ثم انحدرت لتتشبث بقدميه المسمرتين على ارض الزقاق وقد حوطه الناس من كل اتجاه، بللت سرواله بدموعها، واعتصرت وجهها عليه حتى اخر شهقة حنين.

- 3 -

كان اليوم الذي تلا وصوله يوماً مميزاً، كنس البيت عند الفجر ورشت ارجاؤه بالماء، وفرشت غرفة الضيوف بسجاجيد حمراء داكنة الزخارف من نسج سوق الشيوخ. ذبح الاب المتكرش ذو الصلعة المملوحة خروفاً، في بادرة لا تشهد العائلة مثلها كثيراً، وجاء احد الاخوال بخروف اشهب مكحول العينين، وحلف بالايمة أن يذبحه اكراماً لـ (حلوم) وعودته سالماً. اخذ اولاد العمة هذا الخروف وذبحوه عند الحائط غير المكسي قرب تنور الطين في بيت العم غانم.
ظلت الجدة وسط هرج البيت ومرجه تصيح بصوت جرحته السجائر من داخل غرفتها، وكل من تدخل اليها من النساء لاجل غرض ما في الغرفة تتعارك معها وتقول حين تخرج : " تريد تسوينه فضيحة للعالم؟". وعرف حلمي فيما بعد ان الجدة تريد تنفيذ نذرها الذي قطعته على نفسها عصر يوم شتائي وهي تتوجه من على سطح البيت الى مرقد ابي الفضل العباس، فيما لو عاد حلمي سالماً بأن ترتدي ثوباً ملوناً مما ترتديه الشابات الصغيرات وتسير في الزقاق (أمفرعة) أي بدون عباءة حتى تصل الى دكان أبي ناجي ثم تعود الى البيت.
أكتشف حلمي أيضاً ان (حِيوان) الجرو الذي جلبه أبوه منذ زمن بعيد ، قد غدا كلباً ضخم العضدين ذا شعر متموج نحاسي اللون. اقترب منه ، لكنه عاجله بنباح مستعر، وكأنه ينكره. رمى أولاد العم مصارين الخروفين المذبوحين لـ (حِيوان) ليسكتوه، فأندفع يلتهمها بحماس، وحين علمت العمة سليمة

بذلك، صاحت على ولديها ودعت بالويل والثبور عليهما، لأنهما يتدخلان في شغل النسوان ولا يعرفان شيئاً، والا ما رميا المصارين للكلب، قالوا لها (انها قذارة) ، فرمتهما بطاسة نحاسية وهي تقول منفعلة (انتما القذارة)، فابتعدا ضاحكين.
بقع ماء غسل اللحم ملأت الحفر والتشققات على ارضية البيت، قشور الرز والفضلات الاخرى توحي بأعباء تنظيف لا نهاية لها. يستند حلمي على ستارة البيت بدشداشة بيضاء فضفاضة تبدو اكبر من مقاسه ، اهداها له محمد أبن عمه وزوج اخته سناء ليلة البارحة، يحدق الى الزقاق ويرى سلام وهدى ولدي عمته كريمة يبتعدان، ثم يقفان عند دكان ابي ناجي، فيرجع ببصره الى السطح الترابي ويرى (حِيوان) وقد غفا في الظل بعد وجبته الدسمة، فيتذكر ذلك اليوم البعيد الذي جلب فيه الاب هذا الكلب من اخواله في الجنوب، لم يكن هناك من يؤيد أحضار كلب الى البيت، لكن الاب ذكرهم بالملابس التي سرقت من بيت ياسين، وقنينة الغاز التي سرقت من الجيران وراء بيتهم، :" نبحتان او ثلاثة كافية من هذا الكلب لتغيير رأي اللصوص". قال الاب ذلك وهو يشير الى الجرو الصغير احمر اللون الذي ينظر الى الاب المتكلم وكأنه ينصت اليه ويفهم ما يقول.
ولأنه يستجيب للاوامر التي يصدرها الاب :" روح.. تعال.. اصعد .. انزل". فقد اطلق الاب عليه في الايام الاولى وسط استغراب العائلة، اسم (انسان) . وكان يبرر ذلك بأن هذا الجرو ليس حيواناً بالتأكيد، وان فيه روح جني أو انسان، أنه يشبه الانسان فعلاً، يفهم ويعرف ما يقال له، أنه يفهم ما نتحدث به مع بعضنا مثلا. وكان الكل يسخرون من هذا الكلام، ولم ينصتوا الى حجج الاب، وبدأوا يكررون أمامه بألحاح : أنه حِيوان ، حِيوان ، حِيوان، حِيوان. فتلقف الاطفال التسمية الجديدة وبدأوا يطلقونها على الكلب: (تعال حِيوان .. روح حِيوان). وبهذه الطريقة عاد (انسان) حيواناً مرة اخرى، متملصاً من ارادة الاب.

إن حِيوان لا يبدو الان بذلك الذكاء والفهم المشاعين عنه، يفكر حلمي وهو يمسد على فروة رأس الكلب، بعد ان هادنه واقترب منه، انه بليد وثقيل الحركة ، ولا يكاد ينبح إلا اذا شاهد شيئاً غريباً في السماء، ويقضي الليل وأكثر ساعات النهار غاطاً في نوم عميق.. هكذا اخبرته العائلة.
أنتهى الغداء ، وتفرق المعازيم، ووزعت امه وعماته ارباع اللحم والعظام الملفوفة بالورق على الجيران ، الذين تسلموا هذه الاعطيات وهم يتشكرون ويباركون، وتكأكأ الاقرباء والجيران على حلمي ليلاً يستمعون لقصته، تجحظ العيون حين يورد حادثاً مؤلماً ، وتبتشر الوجوه حين يروي مفارقة ما، او يبتسم البعض، ثم يضحكون حين يمثل بيديه موقفاً كوميدياً.
بعدها، حين خلا الى نفسه، وجد ان اغراضه ما زالت كما تركها، كتبه المدرسية، وملابسه ، اوراقه التي يخربش فيها مذكراته، أو خواطره الشعرية، ثم وكأنه يحاول استرجاع صلته بذاكرته يشرع في القراءة:
.... تتحرك (ع) أخيراً، فالمح وجهها الملتفت جهة الشمس/ اليوم ابتسمت لـ (ع) لكنها اشاحت بوجهها/ وقفت مع عيدان حسن قرب حديقة المستشفى ، كان يتحدث عن الرسوب لكني طلبت منه (راسبوتين) ، قال أن اخاه الطبيب اقفل زجاج مكتبته، قلت له لا تخف لن ارسب/ عند عصر هذا اليوم ترك عيدان كتاب راسبوتين لدى والدتي، كنت ذاهباً مع ابي الى عرس عدنان ابن حجي زهر، بعد الغروب استلمت الكتاب من امي واخبرتني بمجيء عيدان، فتحت الكتاب ووجدت رسالة منه على ورقة صغيرة " هذا هو الكتاب الذي طلبته.. وانا واثق من انك سترسب هذه السنة ايضاً" / كنت جالساً مع عيدان على مصطبة اسمنتية واطئة في الحديقة المقابلة لمستشفى الچوادر، وخلفنا سياج الـ BRC الذي يفصل الحديقة عن الشارع العام، مرت (ع) بعباءتها وقذلتها الحمراء المدلاة بتموج على جبينها وعلاقة الخوص البرتقالية على رأسها، التفت دون ان أعرف السبب وقطعت حديث عيدان فوجدت

عباءتها ترفرف قرب السياج، نظرت ألي وابتسمت أخيراً، وقبل ان افيق من سحر وجهها قالت (انكليزي)، بنبرة استهزاء وغنج، تابعتها معقود اللسان حتى اختفت وراء الاشجار ، وضحك عيدان ملء قلبه من منظري وانا متسمر بوجه ابله/ قلت لعيدان ربما سأكمل بدرسين .. لكنه قال : لا .. سترسب هذه السنة ايضاً/ لم يدخل عيدان الى كلية الطب مثل اخيه الكبير ودخل الى علم الاجتماع، وانا ذهبت الى معسكر النهروان.

يرجع حلمي اوراقه ودفاتره الى عمق الكنتور، واذناه تستقبلان دون اكتراث همهمة التلفزيون البعيدة، ولغط العائلة الفرحين بعودته، يتذكر عيدان واصدقاء مدرسته الاخرين، كرة القدم، والتسكع في الاسواق، انه لا يعرف حتى أين هو منزل عيدان ، كانا يخرجان من المدرسة ويركب عيدان في سيارة تذهب به الى بداية المدينة، من المؤكد انه الان في السنة الثالثة من علم الاجتماع، او انه تخرج. يتكئ حلمي على الحائط ويطوي اطراف دشداشته الكبيرة في حجره ويشعر بنعاس، وخمود في أعماق روحه.

- 4 -

لقد عاد، ما الذي أمامه في الافق؟ كان الشيء الذي يفعله سابقاً هو القراءة، والاستغراق في قراءة أي شيء، لم يكن يملك حس التوازن الذي تحدث عنه أستاذ درس الانكليزي في معرض نصيحته للطلاب وهم على ابواب الامتحانات. يتكلم الاستاذ عن حس التوازن ويضرب نفسه مثلاً على كلامه، كان في الاعدادية يلعب كرة القدم ، ويجلس في المقهى يلعب الدومينو والطاولي ويشرب الشاي، ويقرأ المجلات ، ويتابع برامج التلفزيون ، ويذهب للسينما، ويزور اقرباءه واصدقاءه، وينام جيداً، وفوق كل هذا وذاك، يقرأ دروسه وينجح بتفوق. يعرض الاستاذ كل هذه الاشياء بأرتياح وأبتسامة اعجاب على شفتيه، ثم يرفع اصبعه ويكرر :" انه حس التوازن".

من المؤكد أن حلمي لا يملك هذا الشيء السحري، حس التوازن، وإلا كان قد نجح، ودخل الجامعة مثل زملائه الكثيرين. يتذكر ملامح الثقة في وجه (الاستاذ الاسطورة) ويشعر بأسى وضعف شديد.
في السنة الاولى صمم على ان يجري امتحاناً خارجياً، واصطحب كتبه معه الى المعسكر، وظل يقرأ في واجبات الحراسة وفي كل فراغ يسنح له. فعلى الاقل سيحذف نجاحه ونيله شهادة الاعدادية سنة كاملة من خدمته العسكرية، لكن حماسه غادره بعد مدة، وفترت همته، ليجد نفسه وقد تروض شيئاً فشيئاً لحياة جديدة وزملاء جدد.
لكن هذه الاشياء كلها غدت من الماضي، لماذا يفكر بها الان؟
يتذكر (مسافر) صديقه الجريح الذي كان ينام في سرير مجاور له في المستشفى العسكري الامريكي، كان مصاباً في ساقه مثله، لكن اصابة حلمي اخطر، كان من الممكن ان تودي بساقه، لولا العناية الطبية الشديدة. كان مسافر يثرثر كثيراً ولا يترك صديقه لهواجسه وخيالاته، ويبدو مزهواً بجملة اشياءً يكررها كل يوم على مسامع زميل غرفته. " أن أبي كثير السفر لأنه يعمل خبيراً في النفط، وفي احدى اسفاره ولدت، فسمتني أمي مسافر). قال ذلك لحلمي كل يوم تقريباً.
حين افترقا فيما بعد، كان كلاهما يشعر ودون اية عاطفة مفرطة، أنهما لن يلتقيا بعد الان، ولم يكن الامر محزناً بالنسبة لمسافر، لأن امامه اشياء كثيرة ليفعلها، كما يقول لحلمي دائماً، (الحياة قصيرة ، يجب ان اقوم بكل ما يقوم به البشر قبل فوات الاوان) يقول مسافر ذلك ثم يضحك، ويفهم حلمي الاشارات الحسية في كلام مسافر دون جهد كبير. افترقا، ولم يكن حلمي على أية حال يرى أن امامه شيء ما. كان لديه شيء واحد على الاقل ، وأجهز عليه مسافر هذا!
لكن العائلة ترى امراً اخر، أن امام حلمي اشياء كثيرة جداً، سيتركوه لشأنه مدة من الزمن، ريثما يسترد انفاسه ، ينظرون اليه ببشرته الموردة وشعره الذهبي، فيطمأنون الى كونه اكثر صحة وعافية مما كان عليه سابقاً، ينطرح على الارض متكئاً

على وسادة لينة، ينظر الى التلفزيون، يكرز الحب الشمسي، ويلعب حتى ساعة متأخرة الطاولي مع ابن عمه محمد، يخرج الى رأس الزقاق ويثرثر ويتمشى مع ابناء المنطقة، ويستمتع أثناء ذلك بأستجواباتهم له، وفضولهم الذي يصبونه لمعرفة كل شيء. تنظر امه اليه حين يخرج من الحمام يدعك رأسه بالمنشفة وتتخيله عريساً على ابنة عمه نادية، كما كانت تحلم بذلك دائماً، وها هو الان بينهم، ليس عليه سوى ان يعمل ويجمع المال ليتزوج. ستقول له ذلك، ولكن ، ليس الان. فليعمل مع عمه غانم اسطى البناء، أو فليجد له والده عملاً في مصلحة نقل الركاب. هناك اكثر من فرصة لعمل مجدٍ لو طلب ذلك، يفكر ابوه وهو يشاهد ولده يمشط شعره الجميل امام المرأة، وتمر في خاطره كما مرت مراراً صورة ابيه كشاش، الذي يعرف الجميع ان حلمي يشبهه تماماًَ.

- 5 -

لم ترث العائلة من ملامح وصفات كشاش البدنية أي شيء، ولدا كشاش، غانم وسالم، وبناته الثلاث، سليمة وكريمة وتماضر، كلهم خرجوا سمر البشرة بشعور سود، مشابهين في ذلك أخوالهم واعمامهم. وبقي هذان الفريدان، كشاش وزوجته قسمة، يتلمسان أنفاً هنا، واذناً هناك، ولكن ما من أحد من ابنائهما أخذ عنهما كل شيء. ولأجل ذلك كانت قسمة ذات البشرة الباهتة كالرخام، تنادي اياً من بناتها في لحظات انزعاج بـ (الدبسة)، وتشتم عماتها وخالاتها.
تزوج غانم، الابن الاول لكشاش وقسمة، وبعد حين حملت زوجته، ثم ولدت. وفي ذلك اليوم اقتربت قسمة وكشفت بلهفة القماشة البيضاء التي تغطي صينية الوليد، وحدقت بوجهه الصغير ملياً، ثم اشاحت عنه عابسةً، وقالت لأبنها المزهو:" انه يشبهك.. حبة ومقسومة". وظل خاطر ما ينبثق ثم يغيب لديها، كلما رمقت بعينين كليلتين صورة زوجها الغائب. كانت تأمل بأن تراه ثانية، مرسوماً على وجه احد احفادها، ولم يطل الوقت بها لكي يتوج أملها البسيط في لحظة كانت تنتظرها

بشدة، فقد انجب سالم (ابنها الثاني)، ولده البكر واسماه بأسم غريب على مسامع العائلة (حلمي)، وكأنه ينطق بلسان حال الجدة حين اسماه بذلك. فهاهي تجلس قرب الام النفساء، تهدهد صينية الوليد، ونشوة غامرة تتراقص في وجهها، ترمي بنظرها الساهي الى وجه الطفل الصغير، وتلمس بيقين ثابت انه يشبهه، يشبه كشاش، أنه هو، رغم أنها لم تر كشاش في عمر كهذا، لكنه مزروع في اعماقها، كأنها تتشمم للأن انفاسه، وتلمس وجهه ويديه، ومنابت الشعر على وجنته، ورموشه الشقراء الكثيفة. وبعيداً عن كل هذا وذاك، فقد علمتها الايام، وهدهدتها للمواليد، كيف تعرف اصل الشبه في المولود الجديد، حتى قبل ان يصرخ صرخته الاولى.

" بس حلوم" ، تقول ذلك وهي تقبله حين يأتي اليها راكضاً، ويجلس في حجرها، وتظل تناغيه وتشبعه قبلاً. لكن (حلوم) لم يستحوذ على كل اهتمامها حتى النهاية، فسرعان ما ولدت زوجة غانم طفلها الثاني، وكان بنتاً اسموها نادية. وكما جرى الامر مع (حلوم) عرفت الجدة دون جهد كبير أن البنت لا تنتمي لوجوه وسحن العائلة، وانها هذه المرة ، تشبهها هي، ان المولودة الصغيرة تشبه الجدة قسمة، وكأنهما حبة مقسومة الى نصفين.

" نودة لحلوم، وحلوم لنودة"، قررت الجدة، وهي تناغي شبيهتها ذات الفم المبلول، وتقبلت العائلة راضية ، قسمة الجدة، فهذا ما سينتهي اليه الابناء عموماً. كبر حلوم، وكبرت نودة، كما كانوا يسمونها تحبباً، ويرى الجميع في افق حياتهم، قدراً غريباً يبعث فيه الجد والجدة ثانية، صغاراً يقتربون من يوم عرسهم، والذي كان قد حدث في ازمان ماضية.

ولكن هل سيجري هذا الزواج لمرة ثانية، ام أن كشاش وقسمة، كانا قد ألتقيا ، وعبر ازمان سحيقة، لألاف المرات؟

- 6 -

كانت العرب تسمي عبيدها بأسماء مملوحة، وأبناءها بأسماء مستقبحة، معللة ذلك بأن عبيدهم لهم وأبناءهم لأعدائهم، لكن

ذلك لا يفسر كل الاسماء الغريبة التي يحملها الكثير من الرجال في مدينتنا شبه الريفية. يقال ان الهنود الحمر حين يولد لهم مولود ينظرون حولهم، ويستلمون أية اشارة طبيعية أو حادثة مصاحبة، ليشتقوا منها أسم المولود الجديد. وهم بذلك ينساقون مع نظرتهم للحياة، ومعنى الوجود وطبيعة ارتباطهم به. هذه الرؤية ذات المكونات الاسطورية والغيبية، تفعل فعلها في ثقافات مختلفة ، وليست التسمية سوى اثر من اثارها. أن المجاعات والامراض المجهولة، والخوف من الحسد والعين وفقدان الابناء سند المستقبل، يدفع العائلة التي تهبط عليها النعمة الالهية بمولود ذكراً الى ان تتلفت حولها وتلتقط أي شيء لتسمي به ابنها. أنها الالية نفسها كما لدى الهنود الحمر أو اقوام عريقة أخرى، ولكن الهدف يختلف. (چليب .. جريدي.. زبالة .. جحش). أما اذا زاد الامر وكان المولود جميلاً يشبه فلقة القمر، فأنها الطامة الكبرى. يغطى الرضيع ولا يعرض على أية عين قريبة او بعيدة، وتجيب أمه أو جدته أو خالته حين تسأل النساء عن جنس المولود (انه أنثى) أتقاءً لشر الاخبار الاول عنه، فالشر مرافق دائماً للسؤال الاول. وبعد حين يطلق الاب عليه اسماً منفراً، وهذا ما حصل لـ (كشاش) جد حلمي.

أن ما يجمع بعد كنس الغرف وباحات البيت من تراب وفضلات وقشور ثم يرمى، يسمى في لهجة الجنوبيين (كشاش).

كبر كشاش، وتجاوز الحصبة والتهابات الجهاز التنفسي والاورام الخبيثة والرمد والثألول والعرج والزحار والملاريا، حتى وصل الى سن الرابعة بسلام، خرجت أمه به بعد ان لم تستطع أخفاءه عن العين مدة اطول، ولأنها أيضاً لا تريد ان تتركه في البيت لوحده. حصنته بشذرات زرق ملصقة على أطراف شعره الذهبي بالعلكة، وبأحراز مثلثة مغلفة بالقماش مخاطة على جانبي صدره، وحوطته بعباءتها مخافة أن تراه جارتها الحسودة ، لكن الجارة وهي تشجر تنورها عند طرف بيتها، شاهدت ومن خلف السياج الطيني الواطئ الذي يستند

اليـه التنـور، هـذه الام وهـي تسـير خارجـة بأتجـاه مقبـرة (الوداعـة) بقـدميها الحـافيتين وبجوارهـا اسـفل العبـاءة قـدمان بيضاوتان صغيرتان تسيران على عجل.
جمعت الام نبات الگوگلّه الشائخ والمتيبس وصرتـه الـى بعضـه ثم لفته بخرقة طويلة ورفعته على رأسها وسحبت طفلها خلفها، وامام تلال ترابية صغيرة متجاورة توقفت. وأحست بأنهـا تريـد قـول شـيء. التفتـت بعينيهـا الـى وليـدها وقالـت :" هـذه قبـور اخوتك.. محمد وعلي وفاطمة وحسن وحسين" . نظر الصبي الـى أمـه ولـم يفهم شيئاً ، كـانت حزينـة وخائفـة، لأن مـن أخـذ هؤلاء قادر وبسهولة على اخذ كشاش ايضاً.

- 7 -

كشـاش الهزيـل والنحيـل والـوامض مثـل بيضـة مقشـرة يسـمع النـواح والصـراخ. لقـد قتـل ابـوه. ضـاع معيـل العائلـة. اخـذوه وغسلوه وكفنـوه، وكشـاش يلـف رأسـه ووجهـه بفوطـة مرقطـة، ويشـد المعـزون علـى يـده، مـات الاب وبقـي الشـيخ حيـاً. كـان الاب يخرج مع ثلة من الجائعين ليغيروا في غزوات ليلية علـى بيـوت الشـيوخ ، فيسـوقون الغـنم والحـلال امـامهم، يسـرقون السجاجيد والوسائد والاواني، ويضربون العبيد علـى انـوفهم او يقيدونهم، وكـانت يد الاب معروفة في كل القرى، لأن صـفعتها تنيم العبد شهراً. لكن احد العبيد كـان ممتزجاً بالليل فـي الغـزوة الاخيـرة، سـدد اطلاقتـه المفاجئـة مثـل شـهاب أنبثـق مـن عمـق السـواد ليـردي الاب المجالـد فـي الوحـل قبـل ان يغـادر بغنيمتـه حـدود السـلف. يـبس الرعـب الـدم فـي عـروق اصـحابه وهـم يحملونـه ويتلفتون فـي كـل اتجـاه، تـاركين الغنم والحـلال . لقـد قر في يقينهم، في اللحظة التي سقط فيهـا اشـجعهم، ان الليـل قـد غدا ، ومنذ الليلة، عبداً اخر يحرس اموال الشيوخ.
يرفـع كشـاش يديـه المعـروقتين كجريـدتي نخـل ، ويقـرأ الفاتحـة مترحمـاً علـى روح ابيـه، وروح جـده مسـروط وارواح اخوتـه الخمسـة الـذين لـم يـرهم ابـداً. يسـتغرق مـع الـرحمن الـرحيم ولا الضـالين، ويغمـض عينيـه لأن هـذه هـي الخاتمـة، فينبهـه احـد

المهاجرين ليكمل المسير، فيقترب من امه واختيه ويمضي معهم بمتاعهم القليل، ولفات من البواري والحصران على حمار اسود يتقدم امامهم. يلتفت الى مقبرة الوداعة للمرة الاخيرة. كان من الممكن ان يكون ومنذ زمن بعيد قبراً اخر بجوار قبور اخوته الرضع. لكن اسمه انقذه. الاسم القبيح الذي اطلقه الاب. والان، ليس له من مكان ها هنا، سيأكله الجوع مع عائلته بعد موت الاب، ولن يكون للأسماء القبيحة من فائدة في صد ذلك بعد الان.

- 8 -

[ها أنذا اخرج. لم يعد من المجدي البقاء في الاسفل أكثر مما بقيت. سأتعفن أن بقيت. إن بقيت.. لن اخرج ابداً.
هل ترى لون بشرتي وشعري؟ لون عيني؟ أن ما تراه بسبب العتمة. ابدو كملاك ببشرة شفافة صافية، أبدو نقياً وبريئاً من ادران العالم، لكن ذلك لا يعني أنني على الحقيقة بريء ونقي، أنه يعني فقط، أنني لم أتعرض للفرن الشمسي بما يكفي لأكون مثلكم، لم أتعرض للشمس ابداً. أنتم ولدتم من المجرور فقط. أما انا فقد تأخرت ولادتي، كان عليَّ أن اكون مثل جدي مسروط ، الذي تروي الشائعات ان امه ولدته في الشهر الثالث من حملها، ولأنها محرومة من الاولاد، سارعت الى الكتلة اللحمية الهشة لجنينها المجهظ وسرطته، اي أبتلعته، لتعيده الى بطنها ثانية، وصلت لله أن يبقيه حياً هناك، وبعد ان أتمت من الحمل سبعة اشهر، ولدته من جديد، فنزل كأبن تسعة اشهر، وعاش ونمى، فسمته مسروط.
لقد سرطني رحم ما في غفلة مني، لأني لم اكن مهيئاً بعد للخروج، وها اني اقرر مواجهة الشمس، ليس في الامر أية بطولة أو تحدٍ، أنني اواجهها مثل اي موظف يخرج في صباح شتائي من بيته المليء بالمشاكل والكآبات، متجهاً الى كرنفال الضوء والموظفات].

- 9 -

من قال ان حلمي نقي وبريء؟! ، لقد فعل كل الموبقات، إبان مراهقته الاولى [لقد مر كشاش مثلاً بمراهقة ثانية في اخريات حياته، اسقطته من سقالة البناء، وفرطت فقراته القطنية]. كان جميلاً وذا مسحة انثوية، لذا لم يسلم من تحرشات اصدقائه الجنسية، وان كانت بدافع العبث والمزاح، لكن هذه التحرشات جرحته جرحاً عميقاً. صادق (محبوبة السهارى) في الليل، و(ع) في النهار ، ثم شطب (ع) وفتح (ع) اخرى. مزق كعبي قدميه وادماهما بـ (البايسكلات). لعب كرة القدم في الساحة الترابية بين السدة وسوق الحرامية، كان حارس مرمى جيداً، لأن الفريقين يركضان دائماً بجميع اللاعبين وراء الكرة، ومن ضمنهم حارس المرمى الاخر، يخرجون خلفها من حدود الملعب الترابي نحو الشارع العام أو حتى الى داخل السوق. بينما يبقى هو جالساً لوقت طويل، يتابع بعينيه الكرة المتقافزة في دوامات التراب.
كانت قبضة امه لينة، لكنها خانقة، سؤالها وحنوها ومحبتها، وثرثرات الجدة قسمة عن كشاش ومسروط والحرامية والفلس والعانة، احتضانها له وبكاؤها السريع والصامت لسبب او بدونه، وكأنها تضغط زراً خفياً في مكان ما لتتدفع الدموع ميازيب على وجهها الرخامي المتغضن.
كل هذا خانق، رحم من رائحة أمومية ودعوة للنوم ونسيان الحياة برمتها، اغفاءة على شيلة سوداء والتدثر بعباءة سوداء، ولو كان هناك ثدي في الفم ، فسيكون السواد ابدياً يشبه العماء الاول الذي انبثقت منه الاشياء.
كان عليه أن يغدو رجلاً فحسب، أن يخرج من الرحم الثاني الذي سرطه. وهذا وحده عمل يمكن أن ينفق الانسان حياته كلها من أجله، كان عليه فقط، أن يهتك النقاء والبراءة والبشرة الصافية. ومن أجل ذلك، قفز مع رفقاء الزقاق والمدرسة في (قناة الجيش). الظهيرة الحامية شوت كل الاجساد إلا جسده، وهو يغط في الماء ثم يرتفع، ويخبط بذراعيه، ثم يخرج ليجلس على الحافة الطينية للقناة مولياً ظهره للشمس كي تشويه جيداً، لكن نتائج ذلك لم تكن مرضية بما فيه الكفاية.

كـانت هناك طبرة عميقة في وجه رزاق الامير، تجعل سحنته مخيفة و(رجولية!). قال له أن شقاوات من باب الشيخ تعـاركوا معـه بـأمواس العمليات فـي أحـدى الليـالي، وأنـه مزقهم جميعـاً وحـولهم الـى اربـاع وانصـاف ! لكـنهم تركـوا لـه تـذكاراً علـى وجهه. كذلك كـان أبـن عمـه محمـد الـذي يكبـره بـأربع سـنوات اسـمر البشـرة بوجـه مـدهون كثيـر الشـعر. كـان رجـلاً حقيقيـاً أخـر. فـي صـغرهما، كلمـا رأى محمـد حلمـي مـاراً مـن أمـام شباك بيتهم يصـيح عليـه " هـا.. المـايع؟". ثـم يخفـي نفسـه. لقد كـان مايعاً حقـاً، بينمـا محمـد يـابس مثـل ليـل الصـيف. أنـه قدر بائس. تمنى مثلاً لو ان له على الاقل أسماً قبيحـاً مثـل اسم جده كشاش، فلربما شغلته عقدة الاسم القبيح عن أي شـيء اخـر، أو اضـافت لـه خشـونة يرغبهـا ، ولـو كـانت علـى السـنة الاخـرين فقط.

قبل أن يسلمه (المعلم الاسطورة!) شـهادة رسـوبه، كـان حلمـي قد اكتشـف بألم ثقيل وبعد فوات الاوان أن عضـلاته لـم تـنم بمـا يكفـي، وأن شـيلة جدتـه قسـمة أنتصـرت بليلهـا علـى رجولتـه المجهظـة، فنمت مخيلته بسبب ذلـك وتضـخمت أكثـر ممـا كـان يخشى.

- 10 -

كـانت يد مسروط معروفة في كل القرى، فمـا أن يرفعهـا حتـى تفض أعتى المنازعـات، وحـين يـدخل الـى أي مضـيف بسـحنته الملائكية وشحوب وجهـه ولحيتـه التـي كأنهـا وبـر متفـرق علـى فكيـه، يقطـع الجميـع أحـاديثهم وينهظـون للترحيـب بـه كبيـراً وصـغيراً. قيـل أن الملائكـة تحفظـه وتسـنده، كـان كامـل النقـاء والبراءة، وجرت علـى يديـه كرامـات كثيـرة، ولـو قـال أحـد انـه شاهده يرتقـي درجـات خفيـة فـي الهـواء ليغيـب فـي العتمـة، لمـا كذبـه احـد. كـــان الـذي يـرفض حكمــه يسـتعد للعقوبـة الالهيـة العاجلة في نفسه او ولده أو ماله وحلاله، ولم يكن مسروط مع

كل ذلك متسلطاً أو متجبراً. كـان يرسـل الكلمـات مـن شـفتيه وكأنهـا نزلـت تـواً مـن مكــان أخـر غيـر بشـري، ولربمـا ادعـى بعضـهم أنه كـان يـرى النـور يرافقـه أو ينبعـث منـه أينمـا سـلك، ومن كـان سينكر او يكذب هذا الشيء حتى ولو مع نفسه؟!
تمسد قسمة على رأس حلوم، وتكمل: أن مسروط كـان كذلك منذ البدايـة. مرة عاد ابوه عند الغروب من الكرب فـي اراضـي الشيخ، ووجد مسروط نائماً، فقال لزوجتـه أنـه جـائع، فأجابتـه بأسى أن ليس في البيت لقمة واحدة، صمتت قليلاً، ثم اشـارت مرغمة الى مـاعون مغطـى بخرقـة وأكملـت " لـيس لـدي سـوى تمنـات مسـروط". والتـي كـانت قد أقتطعتهـا مـن عشـاء اليـوم السابق، لأنها لا تقوى على بكاء صغيرها حين يستيقظ جائعاً. اشـار الاب المهـدود الـى مـاعون الـرز وقـال بيـأس " يللـه .. جيبي.. آني هلكـان". فقدمت الام الماعون اليه على مضض ثـم لمعت عيناها مخاطبـة زوجهـا بـألم : " ولكنـه عشـاء مسـروط". لـم يرضـخ الاب لرجائهـا، وكشـف الغطـاء عـن صـحن الـرز، ونظـر مليـاً، ثـم تيبس وجهـه بصـمت قـاتم، لأن الـرز لـم يكـن موجوداً، فقد ابدله الله بكبشة كبيرة من مسامير حديدية ناعمة.

- 11 -

الذي لا يريد أن يكشفه كشـاش، هـو أنـه يخـاف الكـلاب، أو أنـه يكرهها الـى درجـة الخـوف. الليلـة التـي طرحـوا بهـا أبـوه فـرج الحرامي فـي وسط الغرفـة الطينيـة ذات النـور الكـابي، والـدماء تغطي ملابسه، كـانت ليلة كلبية الى حد الجنون، امه وجمع من نساء الاقارب تنـوح وتخمش الخـدود حـول جثـة الفقيد، وعـواء متفجـع مـن عشـرات بـل مئـات الكـلاب القريبـة والبعيدة يرتفـع وبنغمـات مختلفـة، وكـأن القريـة تعرضـت لغـزوة جـيش مـن اللصـوص. فيغلبـه القنـوط متـذكراً ذلـك الحـادث البعيـد الـذي اقتضم فيـه جـرو اسود ربلـة سـاقه حينمـا كـان فـي السادسـة، وتعثـر فــي الليــل بسـبب الوحـل والعتمــة. كــان يــرى لمعــة الاضـواء البعيدة علـى عينـي الجـرو المسعور وهـو ينـدفع مـن احـراش قريبـة بأتجاهـه، صـرخ علـى أبيـه الـذي كـان يتقدمـه

بخطوات، فأندفع الاب ليخلص أبنه من فكي هذا الشيطان الصغير، وبضربة واحدة من عصاته الغليظة أسكت هذا الجرو نهائياً، فلطالما صادف الاب مثل هذا الكلب أو ما هو افظع اثناء غزواته الليلية.
هل كان الجرو اسوداً أم ان الليل غطى على لونه؟ لم يعرف كشاش ذلك حينها، لكن العرج الذي رافقه عدة شهور بعد هذا الحادث جعله ـ كما هو الان ـ يكره الليل والكلاب الى الابد.

- 12 -

تضع قسمة يدها على فم سالم ثم ترفعها وتحاول اسكاته دون فائدة. تفسح له مجالاً ليسحب نفساً ثم تعاود كتم صياحه المزعج. تفعل ذلك مرتين او ثلاث لكنه يستمر بالصراخ والبكاء. ويصيح عليها كشاش لتسكته، لكنها لا تعرف ماذا تفعل، فالصغير يريد أن يربي كلباً والاب يرفض، لأن دخول الكلب الى البيت يجلب الشياطين كما يقول الحديث النبوي الشريف، وسالم لا يفهم ذلك، أنه لا يطيق السعادة التي يراها على وجه جاسم أبن الجيران حين يخرج الى الزقاق مع كلبه الابلق، ليلعب معه. يجلس امام الباب بدشداشته الصغيرة ويتابع أخوه الكبير غانم وهو يلعب الدعابل مع رفاقه، وعينه على باب البيت المقابل منتظراً خروج جاسم وكلبه.
" روح.. تعال.. اصعد.. انزل". يصيح جاسم على كلبه، والكلب ينفذ اوامر سيده ببراعة متناهية، ويتعمد جاسم ذو الوجه الكالح والشعر الاجعد الفاحم أن يفعل ذلك امام سالم كي يغيظه ، والصغير ينظر الى ما يفعله هذا الصبي بأندهاش وحسد.
ومرة، ذات صباح قال جاسم لكلبه أمام عيني سالم المدهوشتين " متْ "، فأستلقى الكلب على الارض وتماوت، ولما أقترب سالم من الكلب وجسه بيده ، ذعر لأدراكه أن الكلب قد مات فعلاً. نهظ راكضاً ودخل الى البيت الطيني ذي السقف الواطئ، واندفع ليمسك بثياب امه التي تفاجأت من دخلته الغريبة، حاولت أن تهدئ من روعه، وتفهم مابه، لكنه ظل

يردد جملة واحدة.. كلب جاسم مات.. الكلب مات.. كلب جاسم مات.

- 13 -

يدخل حلمي الى غرفة الجدة قسمة المليئة بالاغراض وصرر الملابس المكدسة ، ويرفع بصره الى بيت العنكبوت في الزاوية العليا فوق أكياس الرز والشاي والسكر المصفوفة على خزانة واطئة. كان بيت العنكبوت ما زال على حاله، لأن الجدة ترفض أن تنظف أي من نساء البيت غرفتها، وتقوم هي عادة وبجهد بالغ في كنس المساحة الصغيرة الباقية وسط الاثاث والاغراض ، وترفض أن يمسح احد ما بمكنسة أو سعفة بيت العنكبوت ذي الخيوط الدقيقة السوداء بسبب دخان الفوانيس والمدافئ النفطية، لأنها تقول، ان العنكبوت في البيت بركة، أنه الستار الاول، لأنه حمى النبي في الغار، وأينما يوجد يستر على اهل المكان.
يقترب حلمي من جدته النائمة والملفوفة بعباءتها ، ويتأمل خرخشة انفاسها الهادئة، كان قد اتفق معها ليلة البارحة على شيء ما، لقد شكت له أن أباه يرفض أن تفي بنذرها، وما الذي بقي لها بعد هذا العمر، سوى أن تصفي أمورها مع الله، لا تريد ان تموت وفي رقبتها شيء له، ولأنه (حلوم) كان عليه أن يساعدها. أتفق معها أن يجلب ثوباً من أثواب أخته سناء لترتديه، وتخرج معه الى الشارع بعد منتصف الليل، بأمكانها في هذا الوقت أن تسير في الزقاق حتى دكان أبي ناجي ثم تعود، سيرافقها، ولا أحد سينتبه الى ما فعلته. لكنه وجدها نائمة. وبدا وجهها المحجوب حتى الانف بفوطتها الرمادية هادئاً ومشعاً بنور طمأنينة غريب، فشعر ان من الدنس أيقاظها. أنها لا تدرك ان ما من أحد معني بنذرها الغريب، وأقصى ما يمكن ان يفعلوه هو الالتفاف عليه بوسائل سيقولون انها مشروعة، ولكن الجدة واضحة مثل نهار الصيف ومنبسطة مثل فيافي الجنوب، أن ارادت أن تسير بأتجاه شيء

ما فأنها لن تضطر الى الالتفاف والانحناء والدوران، انها تصل أليه دائماً بخطٍ مستقيم، وهذا ما لا يفهمه أحد في البيت. ينظر حلمي الى وجه جدته ملياً، ويرى كيف تهدل على عينيها حاجباها الموشومان بخطين أزرقين ثخينين، يتوقف للحظات ثم يلقي بنظرة اخيرة الى العنكبوت الحارس والساتر في عمق شبكته السوداء، ويتساءل، أنه البيت الخيطي الدقيق نفسه ، ولكن هل هو نفس العنكبوت؟

- 14 -

نادية التي لا تقوى على الوقوف طويلاً، تنظر الى حلمي وهو يلعب الطاولي مع أخيها محمد. وتشعر أن غيبته قد أبعدته عنها، لم يكلمها منذ عودته بأي كلمة مما كانت تنتظر، كان يكلمها ، ولكن ذلك يشبه كلامه كله، ولا يشبه الكلمات في رأسها ، لا يشبه كلمات التلفزيون ، أو كلمات ما بعد النوم، أو كلمات صديقتها التي تثرثر معها عصراً عبر الاسطح، حول فلان وعلان، بشعر رأسهم المصفف وقمصانهم المزركشة. يغني كاظم الساهر " اريد انهض وما بلحيل كوة" ويصدح صوته من المسجلة الموضوعة في مكان ما من حوش الجيران، بينما صديقتها تتحدث عن فلان وعلان، أحدهم ضربها بكتفه في السوق، تقول الصديقة، لكنها لم تلتفت ، انها تعرفه، وقد حلق شعر رأسه مثل سعدون الحلاق، سعدون الذي حفر جهتي رأسه مثل كاظم الساهر، الذي يظهر مساءً في التلفزيون وقت العشاء وهو يخوض في الماء مع رفاقه ويقول " على أجتافي اشيله الثوب گوة"، تضحك الصديقة، وينبح (حِيوان) من السطح المجاور، فترفع نادية رأسها الى السماء الشاحبة لبداية المغيب ، فترى في العمق ، شاهيناً يفرد جناحيه بسكون.

- 15 -

أعتاد اهل القرية في ملماتهم أن يتجهوا الى مسروط، كانت كلمة منه مهما كانت عادية كافية لأشاعة الطمأنينة وجلب

اطياف الراحة والفأل، يخرج بغنمه الى الفيافي المليئة بالعاقول والكرسوب ونبات الگوگلّه، وحين يرجع قبل الغروب يجد التبن أمام بقرتهم الوحيدة، ولا يسأل عادة عمن جلبه، لأنه يعرف، يجلس الى مريديه وطلاب بركته الذين يدخلون اليه دون أستئذان وفي كل الاوقات. يمسد على رأس الصغير الباكي ويقرأ الفاتحة، فيخدر الصغير تحت دفء اليد الحمراء، ثم يغفو، وتقبل الام ظهر هذه اليد المتقشف قبل أن تغادر بصغيرها النائم، لقد قرأ مسروط الفاتحة عدداً لا يحصيه إلا من احصى ذرات الرمال، وقطرات الغيث الهامي على زروع الشيوخ، وسقوف البواري والطين لفلاحين ورعاة أغنام منهكين، قرأها على ميتين يتقاطرون تباعاً الى مقبرة الوداعة، قبل أن يحين موعد رحلتهم الطويلة والشاقة الى مقبرة وادي السلام في النجف حيث يدفنون نهائياً، قرأها لعقد قران المعرسين، ولشفاء المعوزين، قرأها في صلاته وقبل النوم وفي اليقظة الاولى مع صوت ديكة يحتشد من كل الاسيجة والحيطان في القرية مرتفعاً بآذان واحد.

كانت بصقته شفاء، وصفعته شفاء، ضغطة قدمه الخشنة المفطرة شفاء، وزجره شفاء، عصاه.. اقدم صيدلية في العالم!

تمسد قسمة على رأس حلوم ذي الخصل الذهبية الملتفة وتكمل: كانت رؤيته تذهب الغم والكمد، ووجهه يغسل الارواح من ادرانها، لذلك كان جدك كشاش حين تمر به أوقات عصيبة، ولا يجد من ناصر او معين حوله يقترب من بركة او اي صفحة ماء وينظر الى وجهه ملياً ويقضي ساعات على هذا الحال ثم ينهظ وقد سكنت روحه وهدأت لواعجه، لأنه كان كما يقول يشبهه تماما، كان كشاش يشبه جده مسروط كأنهما حبة مقسومة الى نصفين.

- 16 -

في أوثق الاخبار، أنهم أستقلوا القطار الصاعد من الجنوب بأتجاه بغداد بمتاعهم القليل، مصحوبين بفكرة غائمة عما سينتظرهم هناك. أنحشروا مع بعض كالحيوانات، مخلوطين

مع صرر ملابسهم وأشيائهم، وحين صفر القطار معلناً بداية انطلاقه، تنفس الجميع الصعداء وحمدوا الله وشكروه، فكأنما هذا الصوت الذي اصدره الوحش الحديدي الهادر، قد حجبهم نهائياً عن الرعب الذي يلاحقهم من خدم الشيخ وعبيده.
يزرع كشاش عينيه في شق نافذة ترسم حقولاً هاربة، نخل يتدافع وراء بعضه مبتعداً نحو الجنوب، بيوت طين هاربة ومساحي واراضي متشققة تتلاشى خلف صوت الحيوان الحديدي الذي يعلك دون هوادة كل شيء في ذهن كشاش.
تنوح الام في بكائها الخفيض وترتل اشعارها في الاب الذي أودع في مقبرة الوداعة، وتركوه هاربين قبل أن ينقلوه الى وادي السلام. تستمر في نواحها وهي تحضن أبنتيها الصامتتين، حتى يسكتها النعاس أخيراً، فتغفو أمام عيني أبنها اليابستين، وتشحب الاراضي خلف فرجة النافذة حتى يغرقها السواد، وتغدو سواداً يدفع بعضه.
في الاعوام التي تلت هذه الهروب، سيتذكر الناس الذين بقوا في القرية هناك ولوقت طويل، كرامات الملا مسروط، ثم تتوالى الاخبار عن روحه المتجولة بين الحقول والبساتين والكرامات التي يصنعها امام الناس البسطاء. ينهظ شبحه في أحدى الليالي ليغرس عصاة ابنه فرج الغليظة في حلق أحد الشيوخ المتجبرين ويحطم فكيه، لقد عرف الناس ذلك حين اخبرهم احد الوجهاء الموثوق بهم أنه رأى في تلك الليلة الملا مسروط وهو يسير بعصاته المباركة وقد تضرج اعلاها بالدم، ويحث الخطا بين النخيل مجللاً بهالة من ضوء. وفي لحظة أنتبه الملا مسروط الى السيد الوجيه الموثوق بكلامه، فأقترب منه ناظراً اليه بحزم، ثم ضرب بعصا ابنه الارض، وقال كأنه يبلغه برسالة : " هنا.. المغيسل مالي". ثم لم يلبث أن أنشقت العتمة وابتلعته.

- 17 -

يرفع حلمي دشداشته قليلاً ليري نادية ركبته التي أجريت لها عملية، تشعر نادية ببعض الحرج حين ترى ساقي أبن عمها

البيضاوين بوبرهما الخفيف، لكنه يستمر يشرح ببراءة كيف كان على شفا أن يفقد ساقه اليسرى لولا العملية المعقدة التي أجريت له في المستشفى العسكري الامريكي، أنه الان لا يشعر بأي ألم إلا عندما يقفز أو يحاول الركض، ألم بسيط قيل له انه سيختفي مع مرور الوقت، لكنها تفكر مع نفسها وهي تنظر اليه أن ألمها لا يتوقف، أنه ألم خفيف وبسيط، ولا ينبثق في كل الاوقات، ولكنه يأتي بالحرقة نفسها، خصوصاً حين تراه، تنهصر معدتها وترتجف يداها. لم ترتكب هي أي ذنب لتجني ذلك، انهم هم من وضعوه أمامها منذ ان فتحت عينيها على الحياة، لذا لا تستطيع الان او في أي وقت اخر أن تحول عينيها الى جهة اخرى، أنها ببساطة تهيم به. كانت فيما مضى تجلس مع امه تبكي لبكائها ، وتجلس مع الجدة لتبكي شوطاً اخر حزناً على فراق حلمي، كانت تريد أن تبكي ما استطاعت الى ذلك سبيلا. وخجلت حين عاد من أن يدرك ضعفها لو وقفت آزاءه.

لكنه يتكلم معها مثلما يتكلم مع سناء اخته، مثلما يتكلم مع امه وجدته، كانت عيناه على الدوام تختلجان بصور واطياف بعيدة، أنها تشعر بذلك، على الاقل منذ الليلة التي سمعت بها كلامه مع ابناء عمه في غرفة الاستقبال عن تلك الممرضة السمراء التي كانت تعتني به طوال اشهر رقاده في المستشفى العسكري الامريكي، كانت كلماته عن الممرضة هي نفسها التي رغبت بسماعها منه، دون جدوى.

وماذا يعني هذا الامر في النهاية؟ لن يستطيع رؤية تلك الممرضة ثانية حتى الموت. وقد اصبحت من الماضي، ثم أنه لم يقل شيئاً، قال أنها كانت خارقة الجمال ! وتلمس بدنه بعذوبة، وانه أدرك بأنها تحبه، وقالت له ذات يوم أنه أنكليزي، وليس من شيء اخر!

"وهل هذا قليل يا نادية فكري؟" تقول صديقتها السمراء عبر الحائط وقد زججت حاجبيها وطلت وجهها بكريمات لتبييض البشرة. تزم نادية شفتيها ويغيم وجهها مستغرقة مع كلمات

صديقتها. " أنت گيمر مال الله" تحول الصديقة الضاحكة الموضوع قارصة وجه نادية الطري والخالي من المساحيق. " القريب يضيع البعيد" تقول الصديقة ثم تغمز بعينيها المكحولتين. " إللي ما يجينه.. أنروحله" تكمل الصديقة قارصة نادية من ثديها الناهد، فيتدفق الدم في وجهها خجلاً. وتشرع الصديقة بأخبارها عن فلان بن علان الذي (تشعوط) حين رآها [أي الصديقة] وفقد رشده، بسبب علبة مكياج رخيصة وضحكة صغيرة. ترفع الصديقة قذلتها الحمراء المدلاة على جبينها بحركة غرور طفولي ، ثم تقرر أمام نادية بتسليم ودراية : " شنسوي عيني.. أحمر واصفر واخضر.. ياالله تجي القسمة".

- 18 -

يتحرك الشاهين صاعداً امام دفعات الهواء الدافئة، من دون أن يثني جناحيه العريضين، وعيناه تتصيدان الفخاتي والعصافير في الاسفل. يسكن في حركته، ويلبث في ذلك للحظات وكأنه مسمر في مكانه الشاهق. ويتناهى الى سمعه الرهيف نباح ضعيف لكلب على احد الاسطح. بيوت واطئة ونخلات في باحات البيوت تنفرش مثل مروحة دائرية بسعفات ذات لون داكن، وطيور تدور في الاسفل دورات واطئة مخذولة قبل ان تحط منهكة على الستارات الحجرية، او بجوار ابراجها المصنوعة من الطين والچينكو، دجاج وحمير وعربات مخضر، وبقع مائية عريضة تعكس لون السماء، نساء يغسلن الملابس في طسوت معدنية قرب الحنفيات واخر واقفات أمام الدكاكين، اطفال يركضون ويملأون الازقة، وفتيات على الاسطح بأثواب زاهية، فتاتان تتكئان على حائط يفصل بين سطحين، واحداهما تحرك يديها اثناء الكلام، وبين لحظة واخرى تقرص صاحبتها. وفي الزقاق شاب اشقر يطوي كتاباً في يده ويسير بأتجاه الشارع، يدعك راحة يده لأن احداً ذكره في مكان ما. تغادر الفتاة الخجلة الحائط وترفع الملابس من حبل الغسيل، ثم تنزل درجات السلم الحجرية الى ساحة

الحوش المبلطة بالخراسانة، تكلم أمها ثم تدخل بالملابس الى احدى الغرف، بينما يصل الشاب الاشقر الى محل رزاق الامير عند ركن الزقاق المواجه للشارع. يحيي رزاق قبل أن ينحرف بسيره متجهاً الى سوق الحرامية.
تفتح الفتاة التلفزيون، وتجلس مرهقة، وترى كاظم الساهر يخوض في الماء.

- 19 -
لا يضيع القريب البعيد ، ولا نستطيع الذهاب للذي لا يأتي ألينا. يفكر حلمي بذلك حين يراها تنبثق في احلامه، فتوقظ رغبته النائمة، تمسد جسده العليل وتقبله فيشب اللهب في أعماقه، يستيقظ ليجد أحمر شفاهها على ذراعيه، على بطنه ورقبته، فيسارع الى مسحه خوفاً من ان يكون الامر حقيقياً. لقد كانت راقدة في مخيلته كشبح امرأة حنونة، ثم لملمت اشلاءها شيئاً فشيئاً، وأنبثقت من رقادها الطويل والغائم في روحه نهار ذلك اليوم، حين دفعت باب غرفته البيضاء مع ثلة من الممرضات، توزعن على اسرة المرضى، وأقتربت هي كما اراد ذلك، بخطوات موقعة على البلاط الصقيل، وأبتسامة تضيء وجهها، وقفت امام سريره وقبل أن يشهق كانت قد قبضت على يده وحركتها ثم تأكدت من انبوبة المغذي، ومست جبهته ، ضغطت براحتها على رقبته ووجهه، فاحس بأنوثة الارض كلها تتسرب اليه من يدها الدافئة.
يعبر الشارع بأتجاه بسطات الخردة وسط سوق الحرامية، ويتحسس رقبته قبل أن يسعل ، كيف له ان ينسى تلك اليد؟ مازالت مساماته تتعرق برائحتها، يتذكرها وهي تساعده على النهوظ من السرير والذهاب لقضاء الحاجة . ياللهول.. كان يضع ذراعه حول عنقها ، كان اقرب الى كونه يحتضنها في عدة اوقات خلال النهار.

- 20 -

ازدادت سمعة الضريح الذي أقيم على (مغيسل) مسروط بريقاً، بعدما تزايدت كراماته وهو ميت، وتصدى احد الميسورين لتجديد جدرانه الطينية التي بناها قبل سنين بعيدة ذلك الوجيه الموثوق بكلامه. وأستمرت النساء يتوافدن اليه من مختلف القرى، يلطخن حيطانه بالحناء، ويشعلن البخور قبل أن يغادرن مجبورات الخاطر، بوجوه غسلها الدمع على امنيات لم تتحقق ورجاء كاد ان ينقطع. ولم يعد أحد معني بذكر عصا فرج الحرامي التي قتلت الشيخ. لأن أباه مسروط هو من كان يحملها، بل شكك الكثيرون في أن يكون لمسروط أبن حرامي.

في هذه الاثناء كان حفيده كشاش قد عمر بيتاً جديداً ، ولكن هناك في منطقة العباسيات في وسط العاصمة على مبعدة من البلاط الملكي، قرب بيوت مشابهة لمهاجرين قدماء يرتبط معهم بنسب قرابة بعيد.

أشتغل كشاش في بداية مقامه حمالاً، ثم في اعمال تنظيف وحفر، ورغم رهافة عوده ورقة بدنه، تحمل راضياً هذه القسمة، ففي النهاية أما ان يزداد صلابة، أو يتحطم ، وما من حل اخر. ثم أنتهى به الامر ليثبت كعامل بناء، يستيقظ مع الاذان ليصلي ، ثم يذهب الى علاوي الحلة حيث يتجمع امام سينما قدري العمال والخلفات بعددهم وادواتهم، ويذهب مع اي خلفة يناديه. أستمر اعواماً على هذه الحال، حتى ترقى الى (مساعد خلفة) ينشر الاسمنت ويتلقف الطابوق. وحين وضع المهندسون الاساسات لقصر صالح جبر، دخل الى موقع العمل بمالجه وخيطه وشاقوله وقبانه مثل أي خلفة محترف. كانوا يسمونه (كركوز) أي الانكليزي، وكان هذا يبعث السرور فيه، خصوصاً أخر ساعة من النهار حين يسمع ذلك وهم يسلمونه أجره كاملاً.

في تلك الايام كانت امه تذهب كعادتها مع نساء الحي الطيني لجلب الحطب، او الى ضفة دجلة لجلب الماء. وعادة ما يكون ذلك في وقت معلوم خلال النهار. يقتربن من ضفة النهر المتدفق ذي الامواج الشفافة، ويملأن أوانيهن، ويستغرقن أثناء

ذلك بالاحاديث المتشعبة. وفي يوم أخبرته أمه أنها شاهدت ذات صباح فتاة كأنها فلقة القمر، تملأ عند شريعة النهر، وحين سألت عنها قيل لها أنها بنت مهاوي ، الرجل الضرير الذي بيته في وسط زقاقهم. كانت صلبة العود، ممشوقة القوام، وهذا ما يستفز الناظر، وتذكرت أم كشاش حين شاهدت هذه الفتاة ذلك اليوم البعيد الذي آذن بارتباطها مع فرج بحبل متين، حين كانت خارجة من أحد البيوت ورفعت لوحدها ، وهي البنت الصغيرة، شوالاً كبيراً عند الباب مليئاً بالحبوب. لمح الملا مسروط من المظيف المجاور هذه الفتاة القوية، وهي تسير بجسد مستقيم لا أنحناء فيه رغم حملها الثقيل، ثم سأل أحد الجالسين بجواره عنها، ولم ينته ذلك النهار ، إلا وهي مخطوبة لفرج أبن الملا مسروط.
في احدى العصاري، وإذ كان كشاش يتمشى قرب النهر مسترخياً وهو يطقطق بمسبحته، شاهد الحاج مهاوي يسير بتؤدة وتعينه فتاة ناحلة بيضاء البشرة، فشعر في الحال انها من كانت امه تتكلم عنها وتلح في ذكرها امامه. أرتجفت المسبحة في يده، وتدفق قلبه بفيض من الشفقة للرجل العجوز المتهالك. فكر طويلاً بحاله لو وصل الى هذا السن. وبعد ليالٍ أنتبه الى ان الصورة لم تغادر ذهنه، وان سيول الشفقة والحنين لم تتوقف لديه، وانها على الحقيقة لم تكن موجهة للرجل الضرير بالذات، وانما الى ابنته الناحلة.

- 21 -

الشفقة، هي من حركت كشاش نحو قسمة، وهي ما تحتاجه نادية الان. ترى ابن عمها شارد الذهن يقرأ في كتبه القديمة، أو يخرج صباحاً، ولا يعود الا وقت العشاء، يلعب الطاولي مع محمد في بيتهم وتقدم له الشاي، تهصرها الفطريات في المعدة، فتلتقم حبة دواء خضراء وتشرب الماء. ترتجف أمام التنور الطيني حين تلفحها ألسنة النار المتصاعدة، ثم تجلس بجوار أنجانة العجين للحظات.

قال أنه وجد عملاً في معمل لصب الزجاج المعاد، لكن اجرته غير مجزية، ربت الاب ذو الصلعة المملوحة على كتفه وقال، أن المهم هو ان تعمل في أي وظيفة، ليس مهماً مقدار الاجر الان.
أقنعته حجة ابيه، وباشر في عمله، لكنه بعد فترة أكتشف ان (الان) أستمرت معه لوقت طويل. فكل لحظة مرت عليه بدت وكأنها (الان) الذي تحدث عنه أبوه. لكن، ما جدوى (الان) ، انه ليس شفافاً بما يكفي لرؤية شيء ابعد منه، أنه مثل جدار معتم وصلد، يتوزع على الجهات كلها.
أشتغل في العمالة ليوم واحد، فتصلب جسده اسبوعاً. جلس في المقهى وعقد صداقات (رجولية) مع شباب المنطقة، وهي كذلك لان الحديث الدائم بين هؤلاء الاصدقاء هو عن النساء. يستمع لمغامرات اصدقائه الرجال. ويخسر في الدومينو دائماً،(ولماذا لا يخسر مع هذه اللعبة ايضاً).. يقول ذلك ـ بالنيابة عنه ـ احد الاصدقاء الرجال بيأس قاتم مغلف بأبتسامة ضائعة. يتأخر في العودة الى البيت حتى ينام الاب، وتتعب الام، فتقدم له طعام العشاء صامتة، أن عمل البيت ارهقها، ولا تريد الاستعانة بأبنتها سناء كلما ألم بها تعب. تريده ان يتزوج ويخلصها. هل في الامر معجزة؟ يلوك طعامه والتلفاز يعرض فلماً اجنبياً عن شخص يقتل زوجته ليلة زفافهما، وتسترخي ملامح وجهه حين يحمل الزوج عروسه باكياً. لكنها كانت بداية الفلم، او أن الخطيب يحلم قبل ليلة زفافه، والام صامتة، في الفيلم، وبجوار حلمي ايضاً، كأنهما تنتظران قدراً يتكشف ببطء ثقيل ، يقرأ في كتابه الممزق حكاية اخرى قبل ان يداهمه النوم، فيسكت عن الفكر المستباح بشؤون كثيرة. دوامة كبيرة تبدأ من الان وتنتهي اليه، يتنقل بين الاشغال والاعمال والتسكع والدومنة والاصدقاء العابرين، ويمر بشيوخ منتفخي الوجوه خلف زجاج مبرد، يذرع الشوارع ليلاً او نهاراً ، وحين تلدغه ساقه اليسرى بألم مفاجئ يتوقف، ليجعل الناس تمر من امامه ، بسحن وطبائع متباينة، ولكنهم متحدون في مغادرتهم (الان)،هكذا يفكر حلمي وهو يقبض على النقود

التـي لا تلبـث فـي يده طـويلاً. ليبدأ مـع كل صبـاح مـن نقطـة الانطلاق نفسها ، من (الان).
ذات ليلـة فتح كتابـاً شعرياً ، فوجد فـي الصـفحة الاولـى جملـة مقتبسـة مـن (الاوبانشياد) الهنديـة ، فأعتبرهـا خلاصـة مناسـبة لحياته :
" أن تبدأ .. هذا كل ما لديك "

- 22 -

[سأبدأ أذن من جديد، فهذا كل مـا لـدي أنـا ايضـاً، أضـع رقمـاً جديـداً ، واشـرع بالحيـاة نفسـها، أُعَـرِّفُ الصـباح والظهيـرة، وأمحـو أسـماء الليـل كلهـا، لكنـي أدخـل فيهم تباعـاً ، مثلمـا هـو عهـدي دائمـاً. انظـر الـى الشـباك بجـواري، وارى مـن خلالـه الصباح بشمسه الغائبة وراء غيـوم شـفيفة، وتـرد الـريح البـاردة حافـة الرقعـة الورقيـة التـي سددت بهـا ثقبـاً فـي زجـاج النافـذة، حاملةً البرد الى عظـامي، قبل أن أنتبـه ألـى ان هذا يتكـرر منـذ امـد يصـعب تـذكره، فلتتغيـر أيهـا الجسـد أذن، تثقـف بأمدوحـة البرد، تنعم بالارتجـاف، ولكـن عبثـاً أُملـي عليـك مـا لا يثبـت أو يمحـي. أنــي ارتجـف فقـط، مـرة اولـى تكـرر نفسـها الـى مـا لا نهـاية، وانـا المخنوق بهذا الادراك لا أنت أيها الجسد.]

- 23 -

أرتجف من البرد، بينما حلمي يتقلب فـي فراشـه الـدافئ. يـدعك وجهه ثم يرخـي يـده علـى الجانـب الخـالي من الوسـادة، فينتبـه، يفـتح عينيـه، ويسـتوحش للحظـة مـن العتمـة الشـفيفة لسـاعات الفجـر الاولـى ، ينـهض مـن رقدتـه، ورأسـه مشـحون بصـور اشياءٍ كـأنها غادرتـه قبـل قليـل ، يقتـرب مـن المـرآة البيضـوية المعلقة بأطارٍ مزخرف من السيراميك، ويشعل الضـوء، وحـين يرى وجهه، ترتفع في بلعومه غصة ثقيلة، ولا يعـرف مـا الـذي يفعلـه. كـانت أجـزاء مـن وجهـه ورقبتـه، ملطخـة بـأحمر شـفاه. دعكها بردة فعل لا شعوري تحت وطأة خـوف أو قلـق مفـاجئ، وتنبـه الـى امـتلاء مثانتـه، نظـر الـى جـانبي وجهـه، وتأكـد مـن

مسح آثار الاحمر الدامي ، ثم سارع الى الحمام. حين خرج سمع صوت جدته قسمة وهي تصلي في غرفتها. لقد تعود على صوتها المتجرح، حين تنتهي من الصلاة في اي ساعة من الليل أو النهار، فترفع يديها وتلهج كأنها تستغيث : " ياالله.. يا الله.. يا الله..". تكرر ذلك الاف المرات بألحاح يفطر القلب ويبعث الرعب في الوقت نفسه، حتى ليكاد من يسمعها يتحسس نذر القيامة، وهي توشك بالسطوع.

يعود لفراشه، ويتلفلف بأغطيته الدافئة من جديد، يغمض عينيه متناسياً هواجسه، ويسحب ذلك الشهيق اللذيذ، الذي لا يكون إلا عندما تدب سيول الدفء في ارجاء الجسد المبترد، ويفكر قبل ان يخمده النوم. أن صورة امرأته أقرب من ان تكون متخيلة، لقد كانت هنا قبل قليل، وتمرغت بجسده الملفوف بالعتمة ، جعلته يلمس لمس اليد أنه أكثر من شخص، وأنها واحد على الدوام. ثلاثة أو اربعة ، كلٌ بقلقه وهواجسه يتمازجون مثل كتل هلامية لا لون لها، وهي تتلوى بينهم، وتأيض بأنفاس لاهبة، ثم تشهق فيفتح عينيه، مثل من ايقظه ضم شديد لأجزائه التي بعثرها الحلم.

ولكي يتذكر ما ألم به، ينظر/ انظر الى الاجزاء الماضية من حصته الزمنية في الحياة، أو فصول حكايته في سجلات ذاكرة تتخيل نفسها، ذاكرتي ، او مخيلته، او بالعكس، أعني كليهما، أن لم يكن للأمر كله من ضرورة في اثبات شيء ، أنظر/ ينظر ، فيرى أنه الامر نفسه يحدث مرة اخرى، يتأخر قليلاً أو كثيراً ، لكنه سرعان ما يحدث، انه أنت يا نود، المرض الذي لن يشفى منه، أسميك فتنبثقين من جديد، وكأن شيئاً لم يحدث قبل بدايتك الدائمة.

- 24 -

يجلس في غرفة الاستقبال . في الحقيقة، هو مستلقٍ الان وتحت رأسه وسادة مطوية، ويقرأ في كتاب سميك ذي ورق احمر. لقد ترك العمل في محلج القطن قبل يومين، لأن المكابس الضخمة كادت أن تسبب له صمماً اكيداً كما يقول،

بالاضافة الى نتف القطن الصغيرة وتلك التي لا ترى إلا بصعوبة وهي تملأ الهواء حول العاملين، والتي ستسبب قبل نهاية الشتاء بأصابتهم بالربو جميعاً. بالطبع ما عدا مدير المعمل والخلّص من مساعديه الذين يحتجبون خلف مكعب من الزجاج والالمنيوم في الركن القريب من باب القاعة الواسعة.
لا يدري لماذا تذكر وهو يخرج آخر النهار، بعد ان أستلم اسبوعيته، تلك النشوة المشكوك فيها التي يقال أن جده كركوز كان يمر بها حين يستلم يوميته من شغله في (العمالة). ولم يعرف ايضاً لماذا انبثقت في ذهنه حين سلم على صاحب المحلج قبل خروجه ، صورة وحشية يظهر فيها صاحب المحلج السمين وقد حطمت فكيه عصا غليظة.
كانت اسبوعيته الاخيرة، ولم يعلم احد غيره بذلك، طوى كيس ملابسه، ودون مؤثرات درامية أو وداع للمقربين من شركائه في الحلج، قصد الباب بخطوات بطيئة. لم يلتفت بنظرة اخيرة، لم يرد - والصداع يأكله - أن يحتفظ بأية صورة عن هذا المكان. كان يريد أن يبدأ من جديد، وكأنه لم يطأ هذه الارض سابقاُ.
يقلب صفحات كتابه السميك المهترئ ويتناهى اليه لغط الوالد. الذي يرتفع صوته بنبرة حادة مختنقة ثم ينخفض، وكأنه ينزع الكلمات من احشائه، أو كأنها ملتصقة بمادة لزجة في سقف حلقه، ولا يميز حلمي ما يقوله الاب، لكنه يشعر أن (الان) قد أنتهى ! فقد نبهه ابوه قبل يومين الى ضرورة أن يقتصد في مصاريفه، ثم سأله عن عمله في المحلج، وكررت أمه على مسامعه رغبتها في أن (يلم) نفسه، ثم صرحت له بنواياهم تجاه (نادية)، " أنت بس گول يا الله ومالك شغل.. قابل هم اللي أتزوجو أحسن منك لو اغنى منك؟". كان في العادة يستمع لكلمات أمه بصبر ريثما تكمل، ويواسيها ويطمئنها على مضض، ثم يسلخ كل شيء من رأسه مثل ضماد لجرحٍ غير موجود.
يقلب صفحات كتابه الاحمر بعناية، ويحول ساقه مثل دفةٍ بأتجاه فرجة الباب المشعة بالنور المنعكس للشمس على

ارضية الحوش الخراسانية ذات اللون الرمادي الباهت. تدخل سناء ونادية ، عائدتين من السوق وتخطران من أمام باب الغرفة، وتلتفت نادية وكأنها تعرف أنها ستجده مستلقياً يقرأ، ثم تعود الى حديث سناء معها، متشاغلة بذلك عن هاجس غير مفهوم يتحرك مثل جنين في اعماقها.

مازال مستغرقاً في القراءة. لقد حصل على هذا الكتاب الذي بين يديه هدية من ناجية المخبلة، مر على بسطيتها قبل يومين، وشعرها الخارج من فوطتها يبين من آخر الزقاق مثل سنابل نبات غرائبي. اشترى منها حب عين الشمس ملفوفاً بقرطاس مخروطي، وحين دلق البذور السوداء في جيبه، سارع الى فتح القرطاس ، وهو يكرز ، ليجد انه الليلة الثالثة والعشرين بعد المئتين من ألف ليلة وليلة. طوى الورقة في جيبه، ثم قرأها بأمعان في وقت لاحق .. قمر الزمان يستيقظ ويفكر بنود، لقد كانا معاً في الحلم، قال لها أنه سيستيقظ ويفقدها، فأجابته أنهما لا يحلمان، ولأجل أن تثبت له ذلك نزعت خاتمها وألبسته أياه، ثم اخذت خاتمه ولبسته. وحين استيقظت من النوم سارعت الى يدها ورفعتها أمام عينيها، فوجدت ان خاتمها غير موجود.

فيما بعد اخرج قمر الزمان لفافات من أوراق وصحف قديمة، وذهب الى ناجية، وساومها على استبدال الكتاب الذي بين يديها بهذه الاعطية الثمينة. أشترى منها أربع قراطيس حب، ومنحها الورق لتلف به بدلا من صفحات الكتاب، وأعطته بوجه عابس متردد الكتاب،وشيعته بعينين ملؤهما الاتهام.

- 25 -

قال له جميل گيطان أنه يعمل في شركة لصناعة الحلويات، في منطقة جميلة عند بداية المدينة ، أن دوامه يبدأ من السابعة مساءً وحتى السابعة صباحاً. دعك جميل وجهه متثائباً ، ونظر الى ساعته اليدوية وقال انه أستيقظ منذ ساعتين فقط ، وسيذهب الى الدوام بعد قليل، انه عمل مرهق. انحنى على الطاولة الخشبية وتحركت احجار الدومينو المبعثرة فوقها، وانصت الى شكوى حلمي ، ثم قال جميل بأهتمام : "هناك

شفتان صباحي ومسائي ، بأمكانك أن تعمل في الشفت الصباحي، أنا ايضاً سأنقل دوامي على الشفت الصباحي، لقد تعبت من السهر، أن اجورهم جيدة ، لكن عملهم مرهق .. لا تقل أنني لم أنبهك منذ البداية؟ ". غير أن حلمي لا يكترث لهذه التفاصيل كثيراً ، لأن القضية الاسهل في الموضوع كله، هو تركه للعمل متى ما شعر بالصداع، أو تذكر صورة مخيفة تتأرجح في ذهنه : جده كشاش على سرير الموت. والمالج والخيط والشاقول والقبان تتأكل كلها في خراج الجد القماشي الحائل، بأيقاع مع انفاس احتضاره. من اجل ذلك وافق حلمي على العمل دون تفكير كثير.

يكاد حلمي أن يتداعى ـ دون ان يعرف ذلك ـ تحت مطرقة الام وسندان الاب. طرقات حنان خفيفة، ورجولية اب أخاذة ، يتسربل بها رويداً رويداً، ليذعن لهما، وهو يظن أن ما يريدانه أنبثق في رأسه أولاً، يوهم نفسه أن خاتم نود الذي تلقفه في الحلم، كان قد اخذه من جدته قسمة ، كآخر أرث غير معلوم من العائلة، لجده الذي تخلى ، بسبب الجص والاسمنت، عن لبس الخواتم منذ امد بعيد. سوف لن يراها ثانية حتى الموت، كما تقول نادية لصديقتها السمراء، واقول .. انها مثل سمكة لا تستطيع مغادرة الماء، لا ينبغي لها أن تغادر مخيلته/ ذاكرته، لتلبط بزعنفتها الذهبية العريضة على الرصيف أمامه. لأنه في أخر الامر لا يقوى على الدخول وراءها ، الى مسكن الحوريات في أعماق الحكايا، كما يقول الكتاب المتهرئ بين يديه.

يخبر أمه أنه سيعمل في معمل للحلويات، فتجيب الجدة من مكانها قرب موقد الشاي، أنها ستترك غرفتها قريباً، ستذهب الى بيت أبنها الكبير المجاور لهذا البيت. ولا يفهم حلمي شيئاً. والعائلة كما هو حاله، تتوهم هذه الايام اشياء كثيرة، منها.. ان الجدة ثقيلة السمع، أو ان المقترحات التي يتداولها سالم مع زوجته اشياء نهائية، وبالذات قضية الغرف الثلاث في البيت، والاثاث المخلع والمتكدس، وغرفة الجدة التي هي أيضاً شيء يشبه مخزن المؤن. لقد توهمت الجدة أنهم يستحون من

أخبارها برغبتهم بأن تخلي الغرفة من أجل زواج حلمي، وتوهم حلمي أن صمت امه هو نسيان لموضوع نادية وغير نادية، لكننا حين نطمئن أن خطة اللعب سارية بأنتظام، نعود الى مقعد المدرب، ونصمت أو نطلب لباناً لنعلك. لقد توهمت الام أيضاً أن ابنها يسير حسب الخطة التي أختطها قدر ما، يوم ولادة نادية.
أما أنا فقد توهمت أشياء كثيرة يصعب حصرها، منها أن الكتابة ستساعدني، ستبطئ الزمن الذي يلاحق نفسه، ستؤخر خروجي من هذا المكان، وتفصلني عن لغط المحيطين بي، الذي لا يشبه سوى خوار الحيوانات المحبوسة.

- 26 -

[لقد كنت جرذاً
اسودَ،
لذا لم أشأ أن تراني الاميرة.
أتحرك في المجرور
وأنام على اهجية طويلة للشمس.
أن الاميرة تساوي الجرذ
والنور يساوي الظلام بالضرورة..
حين يكون لونك أسود.
أما بالنسبة لي ..
فأنا لا احب هذه الرياضيات
في مسألةٍ تتعلق بمصيري الشخصي.]
(كوان شين طاو / 1435م - وثائق البلاط الملكي (عائلة سونغ).

- 27 -

كان صديقه عيدان، أيام دراستهما الاعدادية، يحمل معه على الدوام دفتر رسم مليء بوجوه فتيات مرسومة بقلم رصاص. أنوف مخروطية، وعيون شديدة الاتساع، وجه كامل الاستدارة، وهناك شامة في أحد جانبي الوجه. حين يسأله

حلمي كـان عيدان يقول : هذه فلانة، وهذه علانـة. لكن حلمـي يـرى انهن متشـابهات الـى حد بعيد، هنـاك بعض الاختلافـات البسيطة، وكـأن عيدان يعاود فـي كـل مـرة رسم الوجـه ذاتـه. وحين يفصح حلمـي عـن شكوكه هذه يؤكد عيدان أنـه يرسـم نسـاءً موجـودات علـى الحقيقـة، هـذه فلانـة الطالبـة فـي ثانويـة البنات، وهذه علانـة جـارتهم، وهكذا. لكن حلمـي لا يتذكر أنـه رأى أياً منهن في يوم من الايام على الحقيقة.
تستمر صور الفتاة الغريبة تتوالى مع تـوالي فصول الدراسـة، ومع كل رسم تغير من جلستها أو ابتسامتها، يكبر الانف قليلاً أو يزداد فمها صغراً، تغير من تسريحة شعرها، او لونـه، أو تجدله ظفائر شقراء طويلة. وعيدان يؤكد أنهن نساء كثيرات. وفي مرة قال حلمي أنه قرأ عن رسام قوله (أرسم وجـه أمـراة .. ثم أنزل للشـارع أبحث عنها). فهتف عيدان متحمساً : هذا أنا. نظر اليه حلمي وسأله متشككاً : كيف؟ فأجاب عيدان وهـو يفتح دفتر رسومه .. انظر.. فـي بعض الاحيان تهبط علـي نشوة غريبة فأشرع في الرسم، ارسم أمرأة، وحين أتجول فـي السـوق عصـراً، أكتشـف ان الصـورة التـي رسـمتها تمشـي بأتجاهي.
وفي مناسبة أخرى، كـانا يقرآن في الحديقة المجاورة لمستشفى الچـوادر، أسـتعداداً لأمتحانـات نصـف السـنة، أخـرج عيـدان صـورة كهربائيـة لفتـاة محجبـة وعرضـها أمـام حلمـي مزهـواً وهـو يقول: ما رأيك؟ أليست جميلة؟ ثم شرع يشرح لـه كيف أنه كـان في دائرة الجنسية والاحوال المدنية، من أجل أخراج شـهادات الجنسية لأخواتـه، ووجد علـى الارض هذه الصـورة. ضـحك حلمـي وقـال لـه :" مـاذا؟.. هـل سـتنزل الـى الشـارع تبحـث عنها؟". قال لـه :" لا .. وانمـا خطرت لـي فكـرة افضـل .. اسقطت صورتي على الارض أنا ايضاً".

- 28 -
يجلس حلمي منهكاً بجوار الكنتـور فـي غرفـة أغراض الوالـدة، ويقلب كتبه ودفاتره المرصوفة في الخانـة السفلية من الكنتـور.

يخرج دفتر الرياضيات للخامس العلمي، ويبدأ بتصفحه، كان يملأ الصفحات البيضاء المتبقية بكتابات مختلفة، ويجد صديقه عيدان الذي يرمز له بحرف (ع) في كل دفتر تقريباً أو بين صفحة واخرى، يقرأ سخريته من صديقه والصورة الكهربائية للفتاة المحجبة، ويتخيل الفتاة تقف مع امها بأنتظار ان تنجز معاملتها في دائرة الاحوال المدنية. تهبط الفتاة بعينيها الى الارض دون أهتمام ، فترى صورة بحجم الطابع على بعد خطوتين، فيدفعها الفضول لتلتقطها، وتجد انها صورة عيدان. أنها لا تعرف بالطبع أنه عيدان، لكن عاطفة غريبة تتحرك في اعماقها ما أن تحدق في وجه صاحب الصورة. ويمكن اضافة شيء صغير ليصبح الامر مسلياً. الفتاة تبحث بعينيها عن وجه صاحب الصورة بين المراجعين، لأن امها عنفتها قبل قليل، ووصمتها بأشنع الاوصاف، وتوترت الاجواء بسبب تأخر المعاملة لأن البنت الشاردة اضاعت احدى الصور ، وقد توسلت الام بالموظفين من أجل تلافي النقص في المعاملة. الفتاة تشعر بالتعاطف مع صاحب الصورة وتهجس أنه مثلها الان ، يعيش وضعاً محرجاً بسبب فقدانه لهذه الصورة، تبحث بعينيها وسط عشرات الوجوه ، ولكن عبثاً.
يقلب حلمي دفاتره وكتبه ، في محاولة للأسترخاء، وابعاد الاجهاد الذي يعتريه، ويشعر برغبة شديدة لرؤية صديقه القديم، ماذا لو انه صادفه في السوق أو في وسط الشارع، في محل لبيع الفلافل، او عند احدى الگراجات. سيخبره بشيء يشبه هواجسهما الساذجة المشتركة. سيخبره بما حصل معه هذا اليوم، لقد باشر العمل في معمل الحلويات، أوقفوه لمراقبة آلة تغليف الشوكولاته، ليسحب بين حين واخر تلك القطع التي لا تدخل الالة. فأمضى النهار كله واقفاً امام هذه الالة الجهنمية . أنها لا تخطئ ابداً، لقد غلفت كل شيء [عليها اللعنة]، وشعر أنها ستغلفه أيضاً، وتغلف العاملين والمعمل، يحتاج لصديقه عيدان الان ليغلفه بذلك، اقصد ، ليخبره بذلك. سيقول له : " انت صادق يا عزيزي.. ليس هناك شخص واقعي على ظهر الحياة، الشخص الواقعي هو الذي يموت ويستسلم للدفان،

نساؤك الكثيرات، حقيقيات . لقد اسرتهن في دفترك مثل جواري، تأخذهن حيثما تشاء، وبهذه المناسبة اريد ان اخبرك شيئاً، لقد رأيت نود في المعمل اليوم، لم تكلمني ولم اذهب وراءها لأكلمها خشية ان تفلت قطعة شكولاته من التغليف. لكنني عرفت أنها تعمل معنا هنا في المعمل نفسه".

رفع حلمي قلمه وتأمل الصفحة التي كتبها ثم اغلق دفتر الرياضيات ورماه الى عمق الكنتور، وهو يشعر ان قلقاً كبيراً قد ازيح من على صدره، لقد ظهرت نود امامه، لذا ستنقطع بدءاً من الليلة عن زيارات ما قبل الفجر المحمومة.

- 29 -

كانت قسمة امرأة قوية، لقد خطبها كشاش لأن امه تمتدح المرأة القوية، لكن المفارقة ان الذي جذبه في هذه الفتاة بالذات، هو ذلك الوهن الذي يذكره بنفسه. أو اذا شئنا الدقة، تلك المقاومة الخفية والصامتة لتيارات الضعف الداخلية، ذلك الارتجاف الذي يفصل بين المقاومة والانهيار. لقد كان هو ايضاً يعيش هذا الارتجاف، ويرفض مع نفسه، الاستجابة التي يجدها لدى أمه واخواته، حين يعود من العمل مهدوداً أو يئن من التعب، أنهن يتعاملن معه وكأنه رجل قوي، يقوم بأعمال الرجال دون أن يشعر بشيء، وهو يريد المواساة، يريد ان يعرف الجميع أنه يكابد مشقة هائلة.

هناك تفسيرات أخرى لأنجذاب كشاش لقسمة، لكن هذا التفسير يلائم حلمي، الذي ـ على العكس ـ لا يريد أمرأة واهنة بملامح حزينة مثل نادية، أنما قوية ، تشع بنورها على عتمته، تسنده، أو تقوده، أمرأة هو متيقن من قوتها ، تقف أمامه ثم تقول :" أنت قوي.. أنت رجل". عندها سيرى تماماً انه كذلك.

هناك تفسيرات اخرى لما يريده حلمي، لكن هذا التفسير يلائم الحكاية اكثر، أنه لا يريد أميرة، لا يريد أمرأة في الفراش فقط، لا يريد ملاكاً من نعومة ونظافة وكسل، أنه يريد عاملة، فلاحة، منظفة، فراشة، يريد ملاكمة مثل ليلى بنت محمد علي

كلاي، وسباحة بجسد صلب مثل انوفا بايف، يريد امرأة تحتطب ثم تذهب لجلب الماء، وتقود، عند العصر، والدها الاعمى الى النهر لتروح عنه، ولتسمعه رقرقة الماء واصوات الطيور وحركة الريح خلل الاشجار، أنه يريد (قسمة) اخرى.
ومن اجل ذلك كان يلاحق ببصره ندى اينما ذهبت، يسحبه أيقاع الة التغليف، وتختنق اذناه بضرباتها المتتابعة مثل موسيقى جاز دون كيتار، بينما عيناه تتراقصان على وجوه العاملات، بحثاً عنها، فيلمحها تقترب من مكعب كارتوني ثم ترفعه برفق وتسير به مختفية وراء العاملات. وجرب في فترة استراحة الغداء أن يرفع احد هذه المكعبات أستجابة لفكرة غريبة راودته ، سحب المكعب أليه ورازه، وأنتابه فرح غريب حين وجد ان المكعب ثقيل.
يفتح دفتر الرياضيات، ويكتب حرف (ن) ثم يكتب تاريخ اليوم، ويتخيل نفسه يكتب رسالة الى عيدان، سيقول له انه تحدث مع نود ظهر هذا اليوم، ارسله احد زملائه الجدد ليسخن ابريق شاي لدى بعض العاملات، ووجدها هناك جالسة بينهن. وعند السابعة مساءً، خرج الشفت الصباحي ، ودخل عمال الشفت المسائي. مر حلمي من بينهم وهو يبحث عن ندى ، ثم سار مع رفاقه الجدد حتى وقفوا عند رأس الشارع، ألتفت حلمي ورأها تقف مع فتاة طويلة، وذهل حين شاهدها تركب وراءه الى السيارة التي صعد فيها. تحركت سيارة الاتومارس الطويلة، وحلمي لا يكاد يرفع بصره عن رأس (ن) الجالسة قرب الباب. بعد مدة وصلت السيارة التي نزل منها ركاب كثيرون الى اخر محطة لها قبل ان تستدير عائدة ، وشاهد حلمي (ن) وهي تنزل أمام زقاق السادة، فذهل مرة ثانية لأنها نزلت في المكان الذي ينزل فيه عادة. تبعها حذرا وهي تدخل الزقاق، ثم توقف عند محل رزاق الامير، مشيعاً اياها ببصره حتى انحرفت مختفية عند ركن دكان أبي ناجي.
سيضحك عيدان قائلاً: اتريدني ان اصدق أنك لم تر هذه الفتاة سابقاً؟ انها تسكن بجوارك ولم تنتبه اليها الا اليوم ؟ سيمسح عيدان وجهه بكفيه ثم ينظر الى صديقه ويكمل بنبرة مختلفة :"

سوف لن اصدقك كي اثأر منك، لأنك لم تصدق حكاية المرأة التي انزل الى الشارع بحثاً عنها".
سيقول حلمي : صدق أو لا تصدق، بكيفك ، أنا مرتاح الان لأن احداً من العائلة سوف لن ير بعد اليوم أحمر شفاهها على وجهي ورقبتي.

- 30 -

في لحظة ما من بدايات الربيع، يدفع الملائكة الموكلون بالشمس،وعلى غير العادة، حطباً كثيراً الى اتونها، فتحتدم بالسنتها اللاهبة، دافعةُ اياها نحو الاقاصي التي يذبل عندها الضوء والدفء، وتوزع نعمتها بقسمة غير متساوية على اصقاع الكرة الارضية. تندفع الكرة لتضرب عمود الهاتف المجاور لدكان أبي ناجي ثم ترتد الى حلمي الذي ينظر في منعطف الزقاق، الى حيث تختفي كل يوم زميلته في المعمل. يعود ببصره الى باب البيت البعيد، ويتحسس رأسه الساخن، ويفكر ثانية بالكواكب والشمس والكرة الارضية، بينما الاطفال يلعبون الكرة في ضحى يوم الاجازة، يشعر بسخونة الشمس غير الطبيعية وينتابه ملل من الوقوف، فينادي على ابن اخته مصطفى لكي يكف عن اللعب، لكن مصطفى لا يأبه له، " روح للبيت.. روح اتغده"، يصيح عليه ثم يقترب منه، ويحاول الامساك به وجذبه لكن الفتى يفلت منه منزعجاً " شتريد مني.. عوفني". ينادي احد الاولاد على باقي المجموعة، " يلله .. خل نروح نلعب بالساحة"، فيستجيب الفريقان لأوامره، يرفعون الكرة، ويركضون على اسفلت الزقاق المترب، يصرخ حلمي على ابن اخته ويتقدم باتجاهه، لكنه يهرب راكضاً وراء رفاقه. يتابعهم حلمي حتى يخرجوا من الزقاق، ويزفر بضجر. يتمشى في الفيء البارد للحيطان عائداً الى البيت، وحين يصل الى الباب الحديدي المتقشر يجابهه وهو يدخل عمى مؤقت بسبب النور الضعيف، وحدة انعكاس الشمس على عينيه منذ قليل.
ان مصطفى لا يعرف حجم ما يفعله مع خاله، لقد ذكره بانخذاله، والخال لا يريد ان يتذكر ذلك كل لحظة. يدخل الى

غرفة الضيوف، ويرى الجدة جالسة على سجادتها تسبح، وهي تنظر الى التلفزيون. هل هي ترى ببصرها الضعيف شيئاً من التلفزيون حقاً، أم أنها العادة لا اكثر. تتمتم تسابيحها دون صوت، ثم تحرك عينيها نحو حفيدها تتأمله ساهمة ثم تعود لمتابعة التلفزيون. يجلس حلمي ماداً ساقيه، ويتكئ على الوسائد المسندة على الحائط، ويأتيه نباح (حِيوان) منكفئاً وضعيفاً اشبه بعطاس من وراء السطح، ينظر الى التلفزيون والى جدته المكومة على سجادتها وتنساب في ذهنه كلمات قديمة لها، كانت تقول أن كل شعاع من الشمس يرافقه ملك، من حين صدوره حتى وصوله للأشجار والحيوانات والناس، ويسرح حلمي مع الصورة ، آلاف بل ملايين لا يمكن عدها من الملائكة تهبط سراعاً وبتلاحق عجيب الى الارض، " وفي الليل أين تذهب الملائكة؟". يسأل حلوم، فتجيب الجدة بنفاد صبر :" أنهم ينامون.. حتى الملائكة تنام.. أنقطع قلبي ولم تنم بعد".

في بداية أنتباهته الذهنية، اكتشف حلوم أن الشمس نار، ومثلما تنضج النار الطعام، تنضج الشمس الاشياء، عرف حلوم ذلك لوحده، ان الزنوج مثلاً هم الاكثر نضجاً بين بني البشر، وبسبب ذلك لم يشاهد حلمي في يوم ما بطلاً في الملاكمة أو الرياضات العنيفة من غير الزنوج، ولقد تأثر كثيراً حين سحبوا الميدالية الذهبية من بن جونسون بعد تعاطيه للمنشطات، ولم يخفف عليه سوى أنهم منحوها لكارل لويس، الزنجي الاخر.

سيتحدث رسول الكاتب فيما بعد مع حلمي عن توني موريسون، الكاتبة الزنجية، سيخبره بقصة تلك الفتاة السوداء التي تنام وتدعو من كل قلبها أن يمنحها الرب عينين زرقاوين، وحين تصحو صباحاً تركض الى المرآة وتصاب بالخذلان حين ترى أن عينيها لم تغدوا زرقاوين بعد. سيسخر حلمي من ذلك، فلماذا هذا الوله بالكائنات العجينية؟!

كان عيدان يرفع يديه الكالحتين، مقلباً اياهما أمام عينيه، ويقول لحلمي أنه تأخر في الفرن كثيراً حتى (تشعوط) وخرج

الدخان وملأ ارجاء البيت ، قبل أن ينتبه الاهل ويجلبوا الداية للأم، " أما أنت فما زلت للآن عجيناً"، يقول ذلك لحلمي بخبث، أو ربما بحسد، ويلحقها بضحكة داعرة. وفي مرة وهما يتجولان في الباب الشرقي خارجين من مكتبة التحرير بنضدٍ من الكتب، وأثناء ما كانا يتكلمان، صفن عيدان بوجه حلمي للحظات ثم نطق بفكرة غريبة على سبيل المزاح:" ماذا لو.. يا صديقي العزيز.. أقول.. لو أمتزجنا معاً أنا وأنت لاصبح كل واحد منا جميلاً". ضحك حلمي ببراءة، لأن الفكرة راقت له واجابه :" سنصبح حنطاويين". وفهم عيدان أن جواب صديقه كان ابتهاجاً وزهواً بالوانه الناصعة البراقة. ولكن الحقيقة تقول، أن قدحة الخيال فقط هي التي أثارته، لأن كابوسه الذي يسير به والذي يحسده عليه الكثيرون في الوقت نفسه، هو أنه فتاة. حتى صوته الرقيق الناعم، يذكره بهذا الكابوس، وقد فرض على نفسه بسبب ذلك فكرة غريبة، أن لا يتكلم أو ينطق بشيء قدر المستطاع. صوته جعله في النهاية، يكتب ويخربش ويفرغ لواعجه على أي ورقة يجدها، لن اقول أنه فكر أن يشرب التيزاب أو يدخن من اجل تخشين الصوت، لأن هذه الاشياء ستحدث فيما بعد، ولكن الصمت بدا له حينها أنه لا يكلفه الشيء الكثير. بيد أن هناك من يتكلم في داخله ولا يصمت أبداً، نبرة خشنة وثقيلة مثل صوت أسد عجوز مصاب بالزكام، يرافقه اثناء النهار، ويفتح قبل النوم باباً لصوته نحو حلمه او كابوسه. أن مهمة هذا الصوت تتلخص بالضبط، في توليف الصور، أي صور كانت، أنه بارع في نسجها بنسق واحد. مثلاً، الاسطر السابقة، ستحفزه ليزأر بخبث وهدوء في اذن لا وعي حلمي: أنت نبت شيطاني، الملائكة تنحرف بمقود الاشعة بعيداً عن بشرتك، أنت تعاني من فقدان فيتامين (دي) ، للشياطين عيون زرق، هناك امرأة في داخلك ، هي من تجذب من يصافحونك ويحيوك، أنهم لا يفكرون بهذه الطريقة دائماً، ولكنها الحقيقة.. أنت كابينة زجاجية تخترقها الشمس وتغادرها دون أثر يذكر، أنت كابينة زجاجية تتمرأى من ورائها أمرأتك التي هي أنت، يراها الجميع ولكنهم يصتدمون بالزجاج.

- 31 -

[أنتِ أغصان أشجار
تتماوج على ضفة الهواء.
أنتِ عينان ذابلتان مثل لدغة الحب.
أنتِ وهن مغلف بخشب الاسرَّة والموائد.
حلمٌ بالاهوال والمصائب.
الرعشة الحالمة أنتِ..
حين تنطفئ السيجارة لوحدها
في الظلام.
الظلام عبدكِ..
أو عجينكِ الذي تخمرينه كل ليلةٍ،
لتخبزيهِ قرصَ شمسٍ لصباح الغد.
أنت سكرةٌ
تحركها روائح اشجار مبللة.
وهـواءٌ يقبّـِل حتّى الموت
ريشةً تائهة.
أنتِ قبلةٌ محمومةٌ
تنسى في كلَّ مرَّةٍ.. بلاغة الفقدان.
أنتِ خفقة الفراغ..
خلف زجاجٍ داكن..
نَذْرٌ يفي بنفسهِ
وأنا ..
أنتِ ،
أو ما تبقى من العالم.]
* كوان شين طاو

- 32 -

ترفع الصديقة السمراء يديها لنادية من خلف السياج الواطئ ما بين السطحين، وكأنها جارية تعرض اساور اسرها، ونادية

تطوي الملابس الناشفة في وعاء بلاستيكي مفطر، مستسلمةً لوهدة الروح التي تعتريها عصر كل يوم منذ ان بدأت روائح الصيف تهمي من بعيد. ينبح حِيوان، وترفع نادية رأسها الى الاعلى ، لكنها لا تشاهد الشاهين، بل مجموعة من الغربان الملتفة حول بعضها في الاعالي، تنعق بصوت خافت، وتمتزج كتلها السوداء ثم تفترق. تنحني نادية الى الوعاء لترفعه، وتسمع صديقتها تسألها :" لماذا لم تحضري لخطوبتي ؟ كان عليَّ أن لا أكلمك ابداً يا نادية"، فتجيب نادية دون ان تنظر اليها :" أمي لم تتركني اذهب، والله فرحت من قلبي.. مبروك". ثم ينبح حِيوان، ولا ترفع نادية رأسها الى صديقتها . " شوفي.." تقول الصديقة بلهفة، وهي ترفع ذراعيها ثانية، فتنظر اليها نادية أخيراً، وهي تتجه الى الحائط بينهما، تضع الوعاء البلاستيكي على حافة الحائط، وتستسلم لثرثرة صديقتها.

" المدهور.. كان يرتجف وهو يلبسني الحلقة"، قالت الصديقة السمراء مرخية خدها على يدها المحناة.

ـ وانت؟

سألت نادية بفضول.

ـ أني ما اعرف .. حاولت ادخالها، ثم ارتبكت، فوضعتها في يده واحنيت رأسي خجلاً.

ضحكت نادية من كل قلبها، وخرجت من استغراقها مع نفسها، فبدأت تسأل صديقتها عما جرى بينها وذلك الشاب ذي التسريحة الانيقة، الذي يشبه كاظم الساهر، وهل خرجت معه بعد الخطوبة. " ما صارلنه يومين من مخطوبين.. هاي شبيچ نادية؟" أجابت الصديقة مستغربة. لكن الكثير من كلمات نادية تبدو وكأنها تخرج بألية رتيبة، ودون تركيز. وقبل ان تغادر السطح، حرصت ان تؤكد لصديقتها، انها ستحضر في ليلة الحنة. ولكن نبرة صوتها كانت فاترة، فهي في الحقيقة غير قادرة على قطع الوعود المؤكدة لأي احد، لأن أمها تحوطها من كل اتجاه " لا تخرجي رأسك من الباب كل شوية" .." لا

تسولفين هواية وية هاي المدهورة" .. " تريدين ياكلون وجهچ..؟ ضلي وية سناء.. أني اروح بمكانچ للسوگ".
تنزع الاقراط من أذنيها قبل ان تنام، وتنظر الى المرآة، كانوا يقولون لها " أنت تشبهين مديحة كامل" فحرصت على أن ترى مديحة كامل هذه، واكتشفت فيما بعد ان هذه المديحة تبكي كثيراً، ويخونها الممثلون ، وتسرح شعرها بطريقة مثيرةً، واستسلمت راضية لمديح صديقتها السمراء التي تقرصها من خديها دائماً:" بوياي.. الگيمر ليش يطلع بالشمس؟" تشاكسها صديقتها فتضحك، لأنه متنفس صغير، لفتاة مثلها، أكتشفت ان لديها مهمة واحدة، أنتظار اليوم الذي يدخل فيه رجل ما، ليأسرها بسلاسل ذهبية، مثلما حصل مع صديقتها السمراء، ولا يبدو لها ، في افق مصيرها، ان هذا الرجل سيكون حلمي. رغم انها لا تستطيع تخيل هذا الاحتمال طويلاً، لأنه يرعبها، أنها في العادة تتخيل شيئاً اخرَ. لا أحد يستطيع، حين تضع رأسها على الوسادة، أن يعرفه أو يتكهن به، وهي مطمئنة لذلك ، فهذا موضع حريتها الوحيد، تغطس رأسها في الوسادة، وقبل ان يعتريها ثقل النعاس، تسبح مع صورة تكررها آلاف المرات : حلمي بدشداشة بيضاء، يقترب منها، ويرفع بهدوء، داخل العتمة، الازار الخفيف الذي تتغطى به، ويندس في فراشها، يقترب من جسدها ويضمها اليه، وتكون هي ساكنة ومستسلمة تماماً، يتوقف شريط المخيلة عادةً عند هذا الحد، فهي لا تفكر بما هو ابعد من ذلك. مجرد ضمة شديدة ودافئة حتى الصباح، هذا ما تقتات عليه كل ليلة تقريباً.

- 33 -

تنظر من خلف ستارة السطح الى الزقاق، وترى ندى بتنورتها السوداء، وقميصها الفضاض، وهي تسير بكعب عالٍ وحقيبة جلدية حمراء، حتى تنعطف عند ركن دكان ابي ناجي، لم تكن صديقتها، ولكنهما كانتا في صف واحد، وقد أخرجها مدير المدرسة ذات خميس في الاصطفاف الصباحي، واوقفها امام الطلبة، وقال أن زميلتكم فازت بالجائزة الاولى لمعرض

النشاط المدرسي، وحين دخلت نادية مع امها الى المعاونة من اجل استلام شهادتها في الامتحان النهائي، شاهدت ثلاث رسوم بالالوان الخشبية مغلفة بالنايلون على جدار الغرفة، وقد كتب تحتها بخط غليظ (ندى محسن / السادس ب / مدرسة المظفر الابتدائية) . كان حلمي في الاول متوسط حينها، تشاهده يلعب الكرة في الساحة الترابية خلف المدرسة، ينزلق بحماس نحو الكرة كلما قذفوها باتجاه المرمى. شاهدت ايضاً صديقاتها يأخذن اوراق النقل الى متوسطة الوثبة، وقالت لأمها انها تريد ان تذهب الى المتوسطة، لكن الام المشغولة بتنظيف الملابس طلبت من ابنتها أن تقلم الباميا قبل ان يحضر أبوها من الشغل، ولا يجد الغداء حاضراً. ولم يقل حلمي شيئاً حين شاهدها تبكي في بيتهم بعد أن نهرها ابوها وكاد أن يضربها، لأنها لم تتب من المرة السابقة، حين لحقها الى السطح بقندرته البلاستيكية، صاحت بحدة محتجة على رفضه لذهابها الى المتوسطة، واندفعت الام تحجز الاب الذي استشاط غضباً من جرأة ابنته عليه ، وأخذها عمها سالم الى بيته، خشية ان تتأذى خطيبة أبنه المرتقبة، أو تصاب بعاهة مستديمة من يد ابيها الثقيلة، لكن عمها لم يفعل شيئاً اكثر من ذلك، ولم يتدخل في قرارات اخيه، ربما لأنه يوافقه في الرأي ، فقد اجلس ابنته سناء من المدرسة ايضاً، ولكن من دون مشاكل، فسناء تبدو راضية بالقدر الذي حصلت عليه من الدراسة، وكأنما تريد لها أيضا قدراً مشابهاً، تواسيها وتسخف لها بكاءها ونحيبها، " شتردين تصيرين.. موظفة؟ " ، تقول سناء ذلك بفم معوج دلالة الاستهزاء، ثم تربت على أبنة عمها، وتحاول الهاءها بأي شيء :" شوفي هذا القماش. تتذكرين؟ .. اشترتيته من العيد، امي اتگول اخيطة يم أم جاسم، لأن ام رسول ، تبوگ من القماش...". غير ان نادية تبكي.

لقد ذهبت ندى الى المتوسطة، واخريات غيرها، فلماذا لا تذهب هي؟ " بنات الموظفين بس هنَّ إللي يخلصن دراسة". تقول سناء، لكن والد ندى خباز، يعمل في مخبز في (حافظ

القاضـي)، ولـيس موظفـاً. هـل كـل بنـات الخبـازين موظفـات؟ وأبوها خلفة، فهل كل بنات الخلفات ربات بيوت؟
ثم أنه اسم ضخم لا يلائم هيئتها الضئيلة (ربـة بيت)، وتتخيل أن أم ناجي جارتهم هي وحدها من يلائمها اسم بهذا الامتلاء، لانها ممتلئة مثله.
تشاهد مديحة كامل وهي تخرج من الزقاق مع زميلاتها في (الگـامعة) وتتشـعبط فـي الاتـوبيس، حاضـنة كتبهـا وحقيبتهـا النسـائية الصـغيرة، ويقـرع الجـرس الضـخم فـي سـقف الحيـاة المشمسـة، بينمـا مديحـة تسـير ضـاحكة مـع زميلاتهـا نحـو المدرجات المليئة بالطلاب.
تشاهد ندى مع أثنتين أو ثلاثة من الطالبات يخطرن كل صباح بالصدريات الزرق من أمام باب البيت، فتحرق صدرها حسرة لا تقـوى علـى اخراجهـا. " تـردين تطلـع عينـچ؟ .. شسـوتلنه المدارس؟.. موزين ساكتين عليچ.. ذيچ فضيلة صارلهم سنتين أهلها من گعدوها من المدرسة.."، تكرر أمها على مسامعها هذا الكلام، كلما أنتفضت البنت لأجل شيء يذكرها بالدراسة، وتشتم فضيلة لأنها اصبحت أمام امها مثالاً صالحاً:" فضيلة غبيـة .. موذكيـة.. مـوذيچ اختـهَ ناجيـة المخبلـة أم الحـب؟"، " سكتي لچ..أبوچ نايم.. كل يوم هالقوانة؟".
أنها حتماً موظفة في دائرة ما. ينعق الشاهين أو احد الغربان في سقف الصباح المشمس، وتفكر نادية وهي تسترجع صورة نـدى بخطواتهـا الواثقـة علـى اسفلت الفـرع، أنهـا تخـرج كـل صـباح، بهنـدام أنيـق، تنظـر الـى الشـوارع والنـاس، وتركـب الحافلة، وترفع عينيها في أعين من ينظرون اليها،مثل بطلات المسلسلات العربية، تدخل في الاسواق وتشتري ما تريد، لها صديقات كثيرات، ولديها تلفون في البيت.
لكنها لا تشبه مديحة كامل، وهذا خلل كبير، عليها ان تكون شبيهة بمديحة كامل، ولها أبن عم يشبه صور المسيح، وبيتهم في وسط الزقاق، وابوها خلفة، وامها تغني مثل بنت الريف. عليها أن تكون نادية، وليست ندى، كي تنعدل موازين العالم أمام نادية.

تطوي إزارها الخفيف بذراعيها ، وتنام، ثم تحلم بأنها وندى تسيران داخلتين الى الزقاق، واشخاص جالسون قرب الابواب ينظرون اليهما، وهما تتضاحكان بخفوت، كما تفعل مديحة كامل مع صديقتها في الگامعة، حتى تقتربان من باب بيتها حيث وقف حلمي، فتلتفت الى ندى وتودعها، ليحوطها حلمي من كتفيها، ويدخلان. تضحك لأن حلمي لا يتوقف عن مداعبتها أثناء سيرهما في المجاز المعتم حتى يصلان الى الهول. فترفع عينيها على مرآة واسعة على الحائط أمامها ، فترتجف غير مصدقة لما تراه، أنها ندى وليست نادية. حلمي في المرآة يحوط ندى بذراعه، بينما نادية هناك، في نهاية نفق معتم ، تغسل الملابس في طست قرب حنفية الحوش.

- 34 -

تتسلم ندى هديتها من مدير المدرسة ، ويصفق الطلبة لها بأمر من المدير. يأخذ أخوها سامي قصة الاطفال وعلبة الالوان من يدها ويقلبهما، ويقول :" أني اللي علمتچ الرسم، أنطيني هاي الالوان"، لكنها ترفض وتحاول استرجاع هديتها منه، ويتدخل الاب، فتصيح " رجعهه.. بابة.. رجعهه"، والاب يفصل بينهما، ثم يقرر ان تأخذ هي القصة ويأخذ هو الالوان، فتصيح وتشتم اخيها، وتلاحقه وهو يركض من امامها، ثم يفتح باب الحوش ويهرب. فيما بعد كانت الطالبات في الثانوية يصفقن لها ايضاً، لأنها أحرزت مركزاً متقدماً في مسابقة رياضية.
تمر بصدريتها الزرقاء في زقاق السادة خارجة الى دوامها الصباحي، وترى بطرف عينيها تلك الفتاة نفسها التي تقف وكأنها تتنظر قدومها كل صباح، يسحرها بريق وجهها الملفوف بالفوطة، وهو يتخفى بحذر خلف فرجة الباب، ولا يخطر على بالها انها زميلة قديمة.
يقول ابوها الخباز أنها تشبهه لأنها ذكية مثله، وليس مثل اخيها سامي، الذي لا يفعل شيئاً غير الرسم. تذاكر أمتحاناتها مع حنان، زميلتها في القطاع المقابل، وتقول حنان أنها ستذهب الى الفرع العلمي لأنها تريد ان تصبح دكتورة، فتغلق ندى

كتاب الجغرافيا، وتنظر الى ساعة الحائط، وتقول لصديقتها انها تأخرت.
اخوها سامي، يفرش لوحاته على السجادة الكبيرة في الهول، ويصعد على (الكرويته) وينظر الى اللوحات، ويسألها أيها أجمل، لكنها لا ترى شيئاً، مجرد (شخابيط). كان يرسم سابقاً بشكل افضل، لكنه اصبح مجنوناً الان، يقلب أحدى المجلات، ويريها صورة لشخص بدين بصلعة صغيرة وشعر اشيب منتوف من جهتي رأسه، وبطنه المشعرة ظاهرة من قميصه مفتوح الازرار، يجلس امام منضدة قذرة تعلوها اوعية لفرش وعلب الوان، مع ست او سبع قناني داكنة تبدو كأنها لمشروب كحولي، ومن خلفه لوحات مركونة على جدارمعتم. تتراقص عيني سامي جذلاً ويقول لأخته :" هذا خوان ميرو". ولا تعرف ندى ماذا يعني ذلك، لكن، من المؤكد ان هذا الشخص، هو من سبب جنون اخيها. أن صورته كئيبة، تشبه لوحات اخيها المعروضة على سجادة الغرفة.
"أن الفتيات لا يرسبن ابداً"، يقول اخوها سامي، معللاً ذلك بأن الفتيات " ليس لهن شغل ولا عمل سوى القراية". ولكن، ما هو شغل وعمل الفتيان إذن؟!
تدخل صديقتها حنان الى الفرع العلمي، فتذهب وراءها، وابوها يشجعها، ويشتري لها الملابس، ثم يهز رأسه اسفاً وهو يرى ابنه البكر يخرج وقد لف بجريدة لوحة كبيرة، " يمته الله يفضنه من هالسالفة ؟". يقول الاب ذلك ، وتعرف ندى أن كلامه يتضمن بالمقابل مديحاً لها. ان ابيها الخباز ذي اليدين المعروقتين النحيفتين، يتوقع من ابنه الكبير أن يفكر أو يعلن عن رغبته المستقبلية بأخذ زمام الامور من ابيه، ويحيله الى التقاعد من وقفته أمام التنور من الفجر وحتى المغيب، لكن سامي يبدو بعيداً، ويخرج دائماً للقاء اصدقاء بعيدين، خارج المدينة، (فنانين) كما يقول لأخته في بعض الاحيان، والاب يريد من ولده أن يدخل الى الكلية العسكرية أو كلية الشرطة. يريده ان ينجح هذه السنة فقط، ويترك كل شيء عدا دراسته. والابن يبدو بعيداً، ويذهب الى أماكن بعيدة، لا يسمع فيها

صوت الاب، ثم بعد نجاحه اخر السنة فاجأ سامي أهله بأنه ذهب الى أكاديمية الفنون. فنشبت المعارك في البيت، وهرب سامي على اثرها الى اعمامه. قضى شهوراً طويلة هناك، قبل ان تنتهي المفاوضات بعودة سامي المظفرة، الى غرفة الوانه ولوحاته.

لكن هذه هي بداية الحكاية فقط، فالايام الشنيعة جاءت فيما بعد. يدخل سامي الى غرفته ويجمع اللوحات كلها، وعلب الالوان، والخرق الملوثة، وكتبه، واوراقه، وصور رساميه المفضلين، وصوره الشخصية، ويغادر بها الى حيث لا يعرف احد. باعها ام تخلص منها، ام ماذا؟ ثم ذات صباح وقف سامي في وسط الحوش المشمس، بقميص ابيض وبنطلون جينز ابيض وحذاء ابيض، ونظارات سوداء، وحين رأته الام بهذه الهيئة، بكت. وكان الوالد هناك، في البعيد، يقف أمام تنوره في المخبز المطل على احد الشوارع القريبة من (حافظ القاضي). بكت ندى، وكرهت البكاء من يومها، بكى اخوتها الصغار، لبكائها وبكاء الوالدة، وضحك سامي وهو يحتضن امه وندى. وقتها قال سامي لأبيه أنه سيرسل لهم النقود، سيجعلهم ينتقلون من هذا البيت الصغير الى منطقة (راقية)، وانه سيعود. وفي الليل قال لندى وهو يسرح بعينيه، انه سيصبح فناناً مشهوراً، لانه موهوب، وسيتعرف على الفنانين العالميين، ثم بدأ يتحدث بأشياء لم تكن ندى تفهمها بعد، عن الفن الحديث، وعن بيكاسو، وخوان ميرو، وتستحضر اثناء كلامه صورهم الكئيبة، ورسومات اخيها البشعة.

لم يبك الاب أبداً، وكأنه يعرف كل شيء منذ البداية، انه يكره البكاء، ويقول انه للنسوان، أمثال امها التي لا تتوقف عن البكاء، إلا لتسحب شهيقاً طويلاً، ثم تعود. وكرهت هي نغمة البكاء المكررة، التي تسمعها من امها أناء الليل واطراف النهار، كرهت الانهيار الذي يعتريها حين تصفن وتستغرق مع (نعاوي) امها على ولدها الفقيد. وتفكر أنه سيرجع، هو موجود في مكان ما، وليس مفقوداً. لكن الام لا تفهم ذلك، وندى تريد ان تركز على كتاب الجبر، لأنها ستمتحن بمادته غداً، تصيح

علـى امهـا ان تسـكت، لكـن الام فـي عـالم اخـر. تخـرج الـى الحوش، وترى والدها يدخن، وهو ينظر الى الغيوم البيضاء المتفرقة، يقلب، صامتاً، مسبحته في يده المعقودة خلف ظهره، وعيناه تهملان ماءً ساكناً.
عرفت فيما بعد ان اباها لن يستطيع الوقوف امام التنور ثانية، لأن عينيه اصيبتها بمرض سببه مواجهة اللهب لسنين طويلة، شيء يشبه خللاً في الغدد الدمعية تحت الجفن، يجعل العين تجري بماء دافق، دون توقف.
غادر الاب وقفته امام التنور، لكنه لم يستطع منع نفسه من الذهاب الى مقهى الخبازين، الذي يجلس فيه دائماً، ويلتقي بزملاء المهنة. يطقطق بمسبحته ويدخن ويشرب الشاي، ويتحدث مع فلان وعلان، رافعاً يده بالمنديل كل حين الى عينيه ليكفكف دمعاً بارداً، لا يحمل مغزىً أعمق من انسكابه الصامت.
الام تبكي، والاب ينشف دمعه بوجه صارم جامد التعابير، شاتماً الزواج وانجاب الاولاد والركض وراء العيشة، وتعرف ندى ان كلامه، هذه المرة، يتضمن بالمقابل (شتماً) لها، لأن مصاريف دراستها تندرج تحت قائمة (الركض وراء العيشة).
تخبرها امها بوجه عليه اثار النواح، انها لن تستطيع الذهاب الى السوق اليوم، وعليها هي ان تذهب مكانها، فتقول ندى :" أني عندي دوام؟"، فتتغير نبرة الام، وترفع صوتها بأعياء، شاتمة الدراسة :" شسوت الدراسة لأخوچ؟.. وينه هسه؟.. عافنه ومشه". واذ ترضخ لرغبة الام، تكتشف بعد حين، انها غدت محاصرة شيئاً فشيئاً، عليها ان تخبز في التنور الطيني فوق السطح بدلاً من امها،لأن الاب لم يعد يجلب أخر النهار الخبز كما أعتادت العائلة على ذلك منذ سنين، وامها غدت فجأة ضامرة ومتعبة، لا تقوى على عمل البيت. وهي أبنتها الكبيرة، وعليها ان تساعدها، ولكن الامر لم يكن بهذه الحدة سابقاً، انها الان لا تستطيع التركيز على شيء من دراستها، وتبدو مشوشة في بيت غلفه الصمت بخيمة من سكون مقلق، يتقطع بين حين واخر بنواح الام أو عصبية الاب. أو ثرثرة

التلفزيون مع نفسه. ولم يعد ابوها يذكرها بانها مثله، ذكية. لم يعد يسألها عن شيء، وكأن عطلته الاجبارية،والمنديل المبلل الذي لا يغادر يده، عزلاه عمن حوله. تهرب الى حنان، وتلهيها عن قراءة مواد الامتحان بشكواها من البيت ، وحنان تجيبها بأجوبة جاهزة لا تجد غيرها: " مالچ شغل، من تخلصين شغل البيت روحي اقري، اصلاً اني امي .."، وتشرع في تبيان (حس التوازن) الذي تحرص على وجوده، بين عمل البيت والدراسة.

في النهاية أكملت ندى بدرسين، ولم يكترث احد لذلك، تلقت اجابة فاترة من امها، وتمنت لو ان اباها أنبها، او انفعل بوجهها، لكنه لم يفعل ذلك، أنها الذكية، الشاطرة، هل كان كل شيء معقوداً بأخيها سامي؟ ألا يفكر احد بنجاحها او رسوبها؟ ما الشيء الذي يقدر عليه سامي ولا تستطيع هي فعله؟

" هاي الدراسة لنفسچ، محد رايد منچ شي، اول وتالي راح تتزوجين وأكو من يعيلچ"، لا تعرف بالضبط من قال لها ذلك، لكنها كليشة مكررة، يمكن ان تسمعها اي فتاة في اي مكان.

تقلب كتبها، وتحضر في ذهنها اثناء ذلك صورة اخيها سامي، فتنتابها مشاعر متناقضة تجاهه، تتمنى لو كان بجوارها الان ليواسيها، وفي الوقت نفسه، تتمنى لو لم يكن موجوداً ابداً، لأن له يداً في كل ما تعانيه الان، بل هو المسبب الوحيد، أن اصدقاءه ذوي الصور البشعة، خطفوه، ثم خربوا حياتها. لكنها تأسى، حين تتذكر كم كان لطيفاً، ويسألها دائماً عن شؤونها. لا يمكن أن تنسى ثرثراته الليلية الطويلة عن الرسم، واصدقائه والفن الحديث، حتى عن صديقاته، ومغامراته، ماذا لو ان المسبب الرئيس فيما تعانيه ليس كل هذا، وانما كونها بنتاً؟ تسرح مع نفسها متخيلة أنها هي الولد بدلاً من اخيها، وتقلب في ذهنها الخيارات الكثيرة ، التي كان من الممكن ان تكون امامها لو حدث مثل هذا الشيء.

تنزل ندى من سيارة الاتومارس الطويلة، وتسحب حال نزولها شهيقاً مديداً من هواء المساء الفاتر، تخطو متثاقلة على الرصيف المعتم، ماسكة حقيبتها الجلدية الحمراء المعلقة على كتفها. تدخل الى زقاق السادة، الذي ينير اسفلته المعتم مصباح وحيد معلق فوق دكان أبي ناجي. روائح عشاء ونشيش، ولغط مضبب يعبر النوافذ وفتحات الابواب التي تمر من امامها، وذهنها يعيد بألية، مع خطوها على اسفلت الزقاق، وجوه رفيقاتها واحاديثهن المختلطة بالهمهمة المعدنية لالات المعمل.

تنحرف عند دكان أبي ناجي، وتبطئ من خطواتها قليلاً، كي تنظر بأختلاس الى الشبح الذي أعتادت على متابعته لها، انه واقف هناك، في وسط الزقاق، بكتلته المعتمة كما هو عهده منذ عدة ليالٍ. تشيح بوجهها دون ان تتوقف ويتأرجح كعبها العالي قليلاً ، لكنها تسيطر على مشيتها وتكمل ساهمةً حتى تصل الى البيت. تطرق عدة طرقات على بابه الحديدي المرتج، وتنتظر حتى تفتح لها أختها الصغرى.

كان ينظر، مثلما ينظر الاخرون، وترتبك عيناه حين تجيبه بنظرة حادة تعبر اليه من بين وجوه العاملين في المعمل، أنه سلاحها لكشف نوايا الرجال، تثبت عيناها بنظرة صنمية لا تحمل تعبيراً محدداً، حتى يستسلم المقابل وينحرف ببصره الى شيء أخر. لا تتذكر أنها استسلمت يوماً، دائماً الاخرون، هم الذين ينهزمون بأعين كسيرة أمام اشعة الصلابة والثبات في نظرتها.

مرةً قرأت عن تلك المهندسة التي تعرضت لتيار كهربائي شديد القوة، فأصيبت اصابة بالغة، حملت على اثرها الى المستشفى، وبعد شهور شفيت بأعجوبة، ولاحظت وهي تخرج من المستشفى الى الشارع أنها قادرة على رؤية ما وراء الاشياء، أرعبتها هذه القدرة الغريبة التي اكتسبها بصرها، ترى الراكبين الى الحافلة من الجهة الثانية، ترى من خلال السياج العالي للمدرسة الداخلية، التلاميذ وهم يلعبون. ترى

الكسوة الداخلية لأمرأة عجوز. تتوهم الدخول الى حديقة عامة، فتصتدم بالحائط.
تختبر لثوان مع نفسها هكذا قدرة، تلتفت وتتحسس الحائط بنظرة فاحصة. ثم تحضر ثانية صورة ذلك الناظر اليها من خلف ألة تغليف الشوكولا، بعينيه المرتجتين، وجسده الناحل. لقد عرفته منذ اليوم الاول الذي باشر العمل فيه على الة التغليف، أنه ذلك الذي عمل اهله هرجة كبيرة عصر احد ايام الصيف الماضي في زقاق السادة، أحتفاءً بعودته، لقد كان الامر مثل فضيحة، تعلقت برقبته نساء كثيرات من عائلته، وانطرحن به على الارض باكيات، حاول أناس أن ينهظوه من بينهن، لكن البكاء تصاعد، والنساء بعباءاتهن وفوطهن المتربة حوطنه من كل جانب. كانت وقتها عائدة من عملها في شركة الحبوب، وشاهدت هذا المنظر المأساوي. تلك العينان الباكيتان اللتان ارتفعتا عصر ذلك اليوم لتحدق في وجوه الناس المتجمهرين. تنظران الان الى وجهها في مرأة الحمام، تدعك بيدها خدها الحنطي، وتشيح بعيداً عن عينيه الطفليتين . تأسى قليلاً للنحول الذي اعتراها ثم تنظر الى المرآة فلا ترى العينين، تميل وجهها بيدها ذات اليمين وذات الشمال، قبل أن تضع عليه كريماً مبيضاً . تركز كثيراً على أهدابها القصيرة والباهتة، وتعمد الى تحديدها بخط أسود فاحم. تزيت وتديم سلاحها الفتاك، الذي يجعل الاخرين مكشوفين امامها ، مثلما تتخيل .

- 36 -

ينزل الشاب الذي يشبه كاظم الساهر من سيارة مارسدس بيضاء وقفت في وسط الزقاق، وترتفع الهلاهل من حوله، يصفق باب السيارة، ويتقدم داخلاً الى بيت العروس. نادية خلف الحائط تنظر الى سطح وبيت جارتها السمراء، ولا ترى شيئاً، ثم تصعد اخت صديقتها الى السطح، فتتفاجأ برأس نادية الملفوف بفوطة بيضاء وهو يبين من وراء الحائط الفاصل بين السطحين، تستغرب من وقفتها، وتطلب منها المجيء، ولا

تعرف نادية بماذا تجيبها. يأخذ كاظم الساهر عروسه، وموسيقى وهلاهل وهوسات ترتفع لنادية من عمق الحوش. سوف لن تصعد ثانية الى السطح، تشعر نادية بذلك، بينما العروس تصعد الى السيارة. تتمشى على ارضية السطح المبلطة بالكاشي، ثم تنزل بخطو بطيء على الدرج، والعروس تصفق الباب بجرأة خلفها، تغادر سيارة العروسين، وتلحقهما سيارتان كبيرتان مملوءتان باهلهما، تثيران دخاناً كثيفاً في الزقاق. وتدخل نادية الى المطبخ، تسوط قدراً كانت قد وضعته على النار يتصاعد البخار منه، وحلمي هناك ينظر من وراء ألة التغليف الى زميلات ندى، ولا يجدها. يرجع ببصره الى التـه الجهنمية، فينفرد وجهه،ويستبشر، لأنه وجد قطعة شوكولاته تملصت أخيراً من ألة التغليف.

تدور سيارة العرسان في شوارع المدينة ، وتصل الى ساحة مظفر، ثم تلتف ، وتعود، لتسلك شوارع اخرى، وتقترب لتدخل الى شارع الفلاح، ثم تعود الى نقطة البدء، زقاق العروسة، ولكن من الجهة المعاكسة للجهة التي خرجوا منها، تدخل السيارة البيضاء ذات الاشرطة الملونة وأكليل الزهور ببطء الى الزقاق، وخلفها سيارة بيك اب يعتليها رزاق الامير وفرقته الصاخبة، ومعهم شخص يحمل كاميرا فديو صغيرة يوجهها الى سيارة العرسان. تتوقف السيارة أمام باب بيت ملاصق لبيت العروس السمراء، وينزل كاظم الساهر ويستدير ليفتح الباب لعروسه، ويمسكها من يدها، فتنزل وقد كللها برقع أبيض طويل، ويقودها الى داخل البيت. كان شرط العروس، التي خطبها وعقد عليها أبن الجيران الانيق، أن لا يحملها بخطوتين أو ثلاث من باب بيتها الى باب بيته، وانما يدور بها في المدينة كلها، ويسلك كل الشوارع ، ويصنع (هوسة) كبيرة، قبل أن يعود بها من الجهة الثانية للزقاق.

- 37 -

ـ أكان علي أن أعود لكي أجدك ثانية؟ لماذا أختفيت اذن، ولماذا تظهرين الان؟.. لماذا لا تثبتين على حال؟

- ...
ـ أن الدوام هنا ثقيل، انت تعرفين، ولكني أشاغل النفس بك، يكفي انك موجودة معي تحت سقف هذا المعمل، ليس شرطاً أن اراكِ، ولكنك موجودة، واشعر بك، تستنشقين معي ذات الرائحة، وتسمعين ما اسمع.
- ...
ـ البارحة تمنيت لو عدتُ واعتذرت لك، لأني تلعثمت وانا أكلمك، لم يكن ما اردت قوله مهما، أردت ان اتكلم معك فقط، واحسست بأنك تعرفين، لكن صخرة يابسة علقت في بلعومي، هل شعرت بهذا الشيء سابقاً.. صخرة في البلعوم؟
ـ نعم.
ـ كيف؟
ـ حين منعني ابي من اكمال دراستي. شاهد، اثناء عودتي من المدرسة،شباباً يتحرشون بي عند رأس الشارع، وكان عائداً من مقهى الخبازين، والشرر يتطاير من عينيه، سحبني من شعري، وجعلني فرجة للناس، ودخل بي الى البيت ثم اقسم بالايمان الغليظة أن لا أطأ عتبة الباب ثانية.
ـ وماذا حصل بعد ذلك؟
ـ اردت ان اصرخ في وجهه، لكن عينيه بدأتا تتدفقان بماء غزير، فأنعقد لساني، وتجمدت الصرخة في بلعومي.
ـ شيء محزن.
ـ لا ..
ـ أنا اسف.
- يجب ان لا تأسف ، لان ما فعله أبي، جعلنا نلتقي ثانية.

- 38 -
قالت له وهو يمسك يدها للمرة الاولى:" يجب أن لا يتغير شيء، أنزل أنا أولاً، وأدخل للزقاق، ثم تتبعني. يجب أن لا يرانا أحد نسير سوية". سارا معاً بأتجاه باب المعمل، وسحبت يدها من يده.

قبل ان تصل السيارة بهما الى زقاق السادة، نظر اليها وشعر برغبة حارقة لمنعها من النزول، سيبقيان معاً في السيارة الفارغة ، وليتجه بهما السائق حيثما يريد. كانت كلمات كثيرة تحتشد في ذهنه، وتتصارع مع بعضها للخروج على لسانه، وكأنه احتفظ بحصتهما المفترضة من الكلام طوال الفترة الماضية قبل لقائهما في المعمل، ويريد أن يستوفيها الان دفعة واحدة. قال لها والسيارة تتوقف:" أن الهندوس يؤمنون..."، لكنها ، غير منتبهة الى جملته المبتورة، علقت حقيبتها على كتفها ثم نهظت، إلتفتت إليه قائلة : " بي باي". ونزلت، نزل خلفها ، وعيناه تلاحقان جسدها الضامر المبتعد نحو مدخل الزقاق المظلم. كان يريد أن يخبرها بشيء مهم، الهندوس يؤمنون بعشر تجسدات بشرية لإلههم كرشنا، وقد انجز كرشنا هذا، حتى الان، تسعاً منها، وفي التجسد العاشر والاخير، سيستولي على العالم، فأما أن يفعل ذلك، أو تنتهي اسطورته تماماً. (أنت تذكرينني بكرشنا هذا، اشعر ان صورتك التي أمامي الان، هي تجسدك الاخير، أنت حبيبة من مدينتي، ويجب ان لا أدعك تختفين ثانية).
يخط حلمي بيد واثقة كلماته هذه في الصفحة الاولى من دفتر مدرسي جديد، ويشعر بما يشبه اليقين، أنه قد بدأ فعلاً في مغادرة (الان).

- 39 -

تنزل صورة الكرسي من سماء الظلال الافلاطونية، وتغدو كرسياً، تنزل صورة الشجرة، وتغدو شجرة. تنزل صورة الشارع، الاعمدة، الاطفال، الكلاب النابحة أخر الليل، والنائمة قرب تنانير الطين، الديكة وأسماك الزينة، الموظفات ، وفلاحو الجزرات الوسطية، بائعو الباچة، والخردة فروش، والاحذية المستعملة، ينزل حذاء افلاطون نفسه، ويبقى افلاطون حافياً في اروقة أكاديمية الغيوم، تنشف الدموع السخية على مصطبة القاعدة الرخامية لتمثال غالاتيا، مع اول بزوغ للفجر، فيرفع بجماليون رأسه الحزين من قدمي غالاتيا الرخاميتين، فيرى الثوب الشفيف لتمثاله/ محبوبته، وهو يرفرف مثل ثوب

حقيقي، ويرى غالاتيا تضيء عتمة صباحه الازلية بأبتسامة يتدفق في جوانبها ماء الحياة. تهبط من القاعدة الرخامية وترفع يده لتنهظه، أنها النهاية!
أنظر الى الشباك بجواري، وارى الصباح بشمسه الغائبة وراء غيوم شفيفة، وترد الريح الباردة حافة الرقعة الورقية التي سددت بها ثقباً في زجاج النافذة، حاملة البرد الى عظامي، قبل أن أنتبه الى أن هذا يتكرر منذ امد يصعب تذكره. وافكر، أنني لو تأملت جيداً فسأجد ان بقائي في هذا المكان هو افضل نهاية لي.

- 40 -

ـ أذن هل عاد أخوك سامي بعدها؟
ـ لقد اخبرتك أنه اختفى، لم يبعث برسالة أو شيء من ذلك، ولم نعرف ما الذي حصل معه، المسكين ابي، كان يتوقع دون ان ييأس أن تصله نقود منه، في أية لحظة.
ـ ربما مات.
- ...
ـ أنا آسف.
ـ لماذا تأسف، لولا أن سامي غير موجود لما رضخ أبي في النهاية، وتركني أعمل في شركة الحبوب، ولولا أنني تركت الشركة لما رأيتني في هذا المعمل. ولو..

- 41 -

أنها على الضد منه، تحب الكلام، وتحب يديه البيضاوين ، وهو يحب يديها السمراوين والانصات اليها، تصافحه وتقلب يده في يدها، ثم تقول ضاحكة: " شاي بحليب". فيموت جذلاً وطرباً لكلماتها الغريبة، ويحب من فوره الشاي بالحليب، ويقرر أن يكون هذا افطاره كل يوم حتى تحين النهاية.
أنه يرى فيها أمرأة حياته، وهي لا ترى نظرة الاستحواذ في عينيه، وهذا ما يجذبها فيه، فسرعان ما يكسر نظره خجلاً من عينيها الساكنتين كعيني فيروز حين تغني :" بغداد، والشعراء

والصـور". أنهـا تشـعر بالامـان معـه، كمـا لـو كانـت مـع طفـل كبير.
ولكن، لمـاذا لا تعتـرف أنهـا مسـحورة بشـقرته وبياضـه، فـأعين بـاقي العـاملات لا تفارقـه، لمـاذا لا يكـون هـذا الفتـى انتصـاراً صـغيراً لأرادتهـا، انـه الوحيـد الـذي اشـعرها، وبعمـق، أنهـا لـم تنهَـر بعـد. نظراتـه لا تلوثهـا كمـا الاخـرين، أن عينيـه، بمعنـى اقرب ، تصليان وهما تتجهان إليها.

- 42 -
أخذ أبن الجيران الذي يشبه كاظم الساهر، أبنـة جاره السمراء، وسـيتخلى بعـد حـين عـن لقبـه الغريـب، ليعـود مـن جديـد كـاظم جودة، كما هو اسمه في هوية الاحوال المدنية، سيثخن شـاربه، وينهظ وبه كل الحيل والقوة، متبرئـاً مـن الاغـاني، ومـن نسـبته اليهـا، وسـيخلو السـطح مـن زوجتـه، لأنـه لا يريـدها ان تصـعد لأي أمـر كـان، مـتعللاً بوجـود المطيرچيـة علـى الاسـطح المجـاورة طـوال الليـل والنهـار، فتفقـد ناديـة بـذلك صـديقتها السمراء، الوحيدة. لقد فقدتها، لأنها وصلت الى النهـاية، تتخيـل أن الامـر كـان يجـب ان يحصـل معهـا هـي لا مـع صـديقتها السمراء، تنتقل من بيتهـا الـى البيـت المجـاور، بيـت عمهـا سـالم وأبنه حلمي. ولا تدري من أين جاءتها فكرة غريبـة تولـدت فـي ذهنهـا يـوم علمـت أن جـار صـديقتها أصـبح زوج صـديقتها، تهجـس أن الاقـدار غيـر المألوفـة لا تحـدث دائمـاً، ولا تتكـرر باضطراد. الزفة الفكاهية التي تشبه رمزياً فكرة الـدوران حـول الارض، والعودة الى نقطـة البـدء مـن الاتجـاه المعـاكس، حـدثت في النهاية مع صديقتها ، وسوف لن تحـدث معها أبداً.
تنظر الى سناء ومحمد، وتعرف انهمـا وصـلا الـى النهـاية منـذ زمـن بعيـد، انهمـا لا يكتشـفان شـيئاً جديـداً، الحيـاة كمـا دخلوهـا تكرر نفسها، فقط.. هناك اطفال يتكاثرون.
تريـد ان تسـأل أمهـا عـن حلمـي ، لمـاذا لـم يعـد يـزورهم، وهـل سيتزوج بها حقاً؟ لكنها لا تملك الجرأة الكافية او الرغبـة لنطـق سؤالٍ كهذا. ولكن، أليس هنـاك فـي العـادة نهـاية مـا؟ ألـيس مـن

المفروض أننا نرغب في النهاية فتحضر الينا حالاً؟ أم أننا ننتظر النهاية، وننتظر، وننتظر حتى نصحو ذات يوم على حقيقة أننا غدونا أنفسنا.. تلك النهاية التي نبحث عنها؟

- 43 -

وقفت الجدة قسمة على نهايات كثيرة، النهاية موجودة لأننا لم نصل اليها بعد، حين نصل إليها تنبثق ثانية في الافق، هكذا هي اللعبة، والجدة لا تعرف ذلك، لكنها تعيشه، وعاشته. دخلت في لحظة النهاية مثلاً ، يوم سقط كشاش من سقالة البناء، وانفرطت فقرات ظهره، أحست وهي بجواره، انها تحتضر معه، لم ينفع دواء (الدخاتره)، ولا الدوس بالاقدام على ظهره، ولا اعشاب واحراز زاير شميط، كان كشاش يفتح فمه بآهة طويلة خشنة حتى تنقطع انفاسه، يغمض عينيه قليلاً، ثم يعاود الكرة، ولا يتوقف عن ذلك إلا حين يداهمه النوم. ما الذي تفعله لهذا الرجل الذي لا يستجيب لرجاء احد أو نصيحته، لقد طلب منه أبنه غانم منذ زمن طويل ان يستريح من عمله، بعد ان أخذ منه اسرار حرفته، وبدأ يخرج لوحده، لكن الرجل العجوز يرفض ويقول :" يوم اللي أموت عود ابطل.. تريد تصرف عليه؟".
تتذكر اللحظات العصيبة قبل لفظه لأنفاسه الاخيرة، نساء البيت تنوح عند رأسه، ورجل معمم يقرأ في اذنيه القرآن، ويطلب منه ان يلفظ الشهادتين، ولا يفعل. اولاده، ورجال المنطقة عند باب الغرفة، والاطفال يتدافعون لينظروا بفضول وخوف. رفع عينيه الى زوجته، وكأن الروح ردت اليه فجأة، وقال لها وهي تقرب رأسها منه شيئاً ما، قامت على اثره متعجلة، غابت لثوان ثم عادت بمرآة بيضوية مزخرفة باطار من السيراميك، وجلست الى جواره، تحسس المرآة بيده، وكلم زوجته ثانية بصوت لا يكاد يسمع، فقربت المرآة حتى غدت امام وجهه تماماً، بدأ يتلفظ بأشياء دون صوت ناظراً الى وجهه في المرآة. إستغرق الامر منه لحظات، وحين انتهى، اسبل عينيه، وأسلم الروح.

تقول الجدة لحفيدها، ان الحمى اخذت بالجد، وظل يهذي قبل ليلة من وفاته، تحدث تلك الليلة عن شيء يخص جده مسروط، والقرية البعيدة التي تركوها، عن ارض أهله التي لا يعرف احد بيد من اصبحت. قبور اخوته الصغار في مقبرة الوداعة، وقبر ابيه فرج الحرامي، الذي لم ينقله احد الى وادي السلام، عن مغيسل جده مسروط، وقطار الليل الهارب من عبيد الشيخ. قالت له: أن الجد اراد ان يختتم حياته بنظرة اخيرة الى وجه جده مسروط ، الذي يعرف الجميع انه يشبهه ، كان يريد السلام عليه لتوديعه، واستشارته فيما يفعله مع رحلته الجديدة، وهو يطل إليه عبر المرأة من العالم الاخر.

- 44 -

قال لها، يجب أن يتغير شيء واحد على الاقل، لقد ملَّ من حذرها المبالغ فيه، سينزلان هذه المرة سوية ، وليكن الزقاق مليئاً بمليون عين، رفعت رأسها إليه، وأثارها كلام من تصورته طفلاً كبيراً، أن كلماته تلتهب رجولةً، لكن ما يثيرها أكثر، هو السبل التي تتبعها دون قصد، لكي يكون رأيها هو ما يتبع في النهاية. لن ينزلا سوية. فليكن أمرهما مكشوفاً في المعمل، ولكن في المنطقة لا تريد أثارة انتباه احد ثم ان الايام علمتها ان لا تتعلق بحلم مهما بدا قريباً وسهل المنال، فمن يضمن لها مثلاً أن سمعتها لن تتأثر فيما لو حدث أمر منعها من الاقتران بحلمي. أنها تسترسل معه، تتحدث اليه وتسمح له ان يمس يديها، لكنها لم تقتنع بعد، ان شيئاً سيحدث في الايام القادمة ابعد من ذلك.

- 45 -

حين دخل الى غرفة الجدة، شاهد العنكبوت مازال يحرس بشبكته السوداء سكينة الغرفة. قيل له ان جدته تعتب عليه، فلم يعد، وهو الاقرب الى نفسها، يجلس اليها ويحدثها. بناتها انشغلن بازواجهن وبيوتهن، وابتعدن عنها، وأذا لم تحدث أحداً

في هذا البيت، فأن أحداً لا يكلمها. أبنها سالم يدخل أليها كل مساء، يقبل يدها ثم سرعان ما يخرج، وغانم يجلس في غرفة الاستقبال وتسمع صوته الجهوري من بعيد، فقط.
" أما امك.. فأنها تتمنى اليوم الذي أموت فيه".. " أما أمك ، فالله يستر عليها ، شتسوي.. والبيت كله على راسها، مو زين من عدهه متحملتني".
ـ هاي جدتك تتدخل في كل شيء، أنها تخربط كل شيء ولا تدري.
ـ مرة عجوز.. أتحملوهه چم يوم .. قبل ما تتوكل.
ينظر الى الحائط في عمق الغرفة، والذي بدا وكأن يداً لم تمسسه منذ عقود، يشاهد صوراً مختلفة ما زالت مرتبة كما رآها اول مرة في صغره .. صورة للأمام علي وولديه الصغيرين ،الحسن والحسين، على فخذيه الضخمين، صورة للمسيح وهالة مدورة من نور اصفر تحيط برأسه، صورة للمختار على فرسه البيضاء، التي تبدو بوضع جانبي لكن صدر المختار يبدو بلقطة اماميه، ووجهه مسترخ، يحمل في يدٍ سيفه الذي يقطر دماً ثخيناً، وفي اليد الاخرى، رأس الشمر الملعون، الذي يقطر دماً ايضاً، صورة لعنترة على حصانه المزركش الاسود، بدرعه ونياشينه وخوذته ورمحه ذي الذؤابات المتدلية، ويبدو الحصان وقد رفع قائمتيه الاماميتين بشموخ، بينما عبلة مختبئة خلف نخلة سامقة، تعرض جزءاً من وجهها وعينين سوداوين ساحرتين ترنوان الى ابن عمها
صورة للعباس وهو يهرق الماء العذب الزلال من يده الى النهر بعد ان تذكر عطش اخيه الحسين، وصورة يتيمة كالحة اللون متشققة القشرة، مؤطرة بـ (شريص) أحمر كامد يربطها بين ظهر كارتوني ووجه زجاجي سميك، معلقة من خيطها الابيض المغبر على مسمار كبير فوق اغراض الجدة، ويبدو فيها الجد كشاش بلحية مفرقة قصيرة، ناظراً الى الامام بعينين مجعدتين بسبب الشمس، وقد رفع حنكه قليلاً، غاطساً في غترته وعقاله الذي يبدو كأطارين اسودين مائلين. الحائط بأكمله يضفي جواً من القداسة الثابتة على الغرفة.

ـ يا ولدي .. أنا اريد قسمة بجواري. . وأمام عيني.
ـ وما المانع؟
ــ أنا اشعر أن أمها تكره اختك سناء، ولا تريد ان تزوجك ابنتها، ما الذي تفعله البنية خلال النهار؟ أنها لا تصنع شيئاً، ولكن أمها لا تقول لها " يمة.. روحي شوفي حبوبتچ" قلبها مليء بالسم، ياالهي .. الله يجازيها. حتى أنها لا تدع زوجها يأتي إليَّ ويكلمني.
ـ أنتِ تتخيلين.. جدة.
ـ إذن متى تتزوج من قسمة؟
ـ هي نادية وليست قسمة.. جدة.
ـ أذن متى تتزوج من نادية؟
ـ أنا لا اريد نادية.
يرفع رأسه الى نضدة الافرشة والبطانيات، ويرى ضباب البخور متجمعاً حتى السقف. لم تكن ترضى لأحدٍ ان يرفع شيئاً من أغراضها، ولو على سبيل الاستعارة، وبجوار فراشها الممدود قرب الدواليب والخزانات، تقبع درازن صحون من العهد الملكي، وفناجين قهوة وملاعق ستيل انكليزي، وشكردانات هندية، وأكياس حناء أم البنت، وعدة أجيال من الفئران لم تغادر مكانها منذ تأسيس المدينة.
ــ أنا أعرف انهم يريدون هذه الغرفة، ولا يقولون، سأخذ فراشي الى الغرفة الثانية، أنا خطار، سأموت عما قريب، واغراضي هذه هي لك ولقسمة، أذهب للنداف وليعيد لك تنجيد هذه الوسائد والافرشة، ويبدل وجوهها، ولتبع باقي الاشياء، أو افعل بها ما تشاء، ألم تقل عمتي الله يرحمها ذلك لولدها كشاش، لماذا لا أقوله لك أيضاً، وانت تتزوج من قسمة؟
ـ ولكني لست كشاش؟
ـ أنظر في المرآة.
ـ ولكن أهلي سيرفضون؟
ـ من الذي سيرفض يا ولد؟ أكسر خشومهم .
ـ أنها تعمل معي في المعمل .. وهم يريدونني أن اتزوج نادية.

- 46 -

بيت العم غانم يبدو مضطرباً، سناء تقاوم مغص الولادة وهي تركب الى سيارة الاجرة التي جلبها محمد. تركب العمة والوالدة مع البنت المكروبة. سيذهب بها زوجها الى مستشفى الزهراء كما حصل مع ولاداتها السابقة، وستنجب له هذه المرة ولداً يشبه حلمي. ستقول العائلة عن الخال وأبن أخته: كأنهما حبة مقسومة الى نصفين. ومن المفروض أن يتزوج حلمي من نادية لينجبا في يوم ما بنتاً تشبه نادية!

العم غانم الذي لا يبدو مكترثاً لما يجري حوله، ينام على سريره في طرف الحوش ويدخن ناظراً الى النجوم، او هكذا ظن حلمي. كانت نادية قد استلمت تعليمات امها على عجل قبل ان تصفق الباب بوجهها " كملي العجين.. وخاف اتأخر.. أخوانچ من ينامون يم التلفزيون گوميهم وخلي ينامون بفراشهم.. مواعين العشة غسليهن و..".

الاولاد لم يناموا في غرفة الضيوف كما هي عادتهم اثناء مشاهدتهم للتلفزيون، لأن ذلك سيؤثر على سير الحكاية، لقد رضوا هذه الليلة فجأة بتلك الاوامر التي يصدرها الاب بضرورة الذهاب الى الفراش حين يداهمهم النعاس ولا يتعبوا الاخرين في أيقاظهم. يشاهدهم حلمي يخرجون متثاقلين ليرتقوا الدرج الى السطح حيث فرشت نادية منذ الغروب افرشتهم فغدت وهم ينطرحون عليها باردة ولذيذة.

دخل حلمي الى غرفة الضيوف وشاهدها تحت المروحة المتباطئة تدخل يديها في الماء الساخن لأنجانة العجين وعيناها مصوبتان الى التلفزيون.

* * *

فغرت أمه فمها حين سمعت منه كلامه عن زميلته في المعمل، قال لها بتردد أنه يريد ان يتزوجها، صمتت ثم سألته بثبات وهدوء ، من أين عرفها، وكيف ألتقاها، ومن هم اهلها. وحين أجابها قالت وكأنها لا تريد ان تقلب على نفسها المواجع: " على كل حال! ".

* * *

كانت صورة كبيرة للأمام علي تشع في صالة بيت عمه غانم، وتواجهها على الجدار المقابل، صورة بنفس الحجم للأمام الحسين وهو جاثٍ على ركبته اليمنى يحتضن جسد ابنه علي الاكبر، وقد غطا وجهه الباكي بيده. توسط حلمي هاتين الصورتين ثم جلس الى نادية. كان الموقف كله يذكره بفلم قديم.

قال لنادية ، انه يحب . لقد تعلقت نفسه بأمرأة ويريد ان يتزوجها لكن اهله يرفضون، أنه يعتبرها مثل اخته، وهو لا يريد أن يظلمها معه وبالتأكيد هناك الف واحد أفضل مني يرغب بالزواج منك. لم يخبر سوى أمه، لكن اباه سيرفض، جدته قالت له " تزوج". ثم تحدثت بحديث طويل.. كشاش.. قسمة، الحرامية، ألخ. هو لا يستطيع ترك هذه الفتاة، لا يريدها أن تفلت من يده، أنها بالتأكيد تعرف ما هو الحب، أنه الـ (كل شيء) الذي لا نستطيع التفريط به.. أليس كذلك؟ نظرت اليه نادية مشدوهة واحست بدوار، أغمضت عينيها، وغاب صوتها في حنجرتها وشاهدت اطيافاً قديمة تتجسد امامها، فلماً دائرياً يبتدئ من حيث ينتهي، يتحرك بسرعة هائلة ثم يدخل سيف حاد ليقطعه. لقد أرادت نهاية ما، ولكنها لم تتخيل أن النهاية ستكون هنا، وبهذه الطريقة، ربما هي نائمة ، تحتضن إزارها وتحلم، او انه يمزح،(أخيراً قرر ان يمزح)، او ان الامر كله يجري في التلفزيون امامها، وهي تهمي بالطحين في الماء الساخن. عصرت كتل العجين فتدفق ليناً من بين أصابعها، ضغطت بيدها فغاصت حتى لامست قاع الانجانة وبدأت تعصر، وتحرك العجين بأنفعال في كل اتجاه. استغرقت في العجن صامتة لساعات، تتحرك المروحة وهي تعجن فاقدة الرشد، حتى تصلب العجين في يديها. هدأ البعوض فوق السطح ونام أخوتها ووالدها، وبدأت نشرة الاخبار، كان صوت حلمي يغادرها شيئاً فشيئاً ثم يعود ويكرر الكلمات ذاتها، تمتزج مع بعضها وتذوب ثم ترتجف مغادرة مع حلمي المصدوم من الصمت الذي جوبه به. يتكئ على فرضة الباب

ويسحب قدميه بخذلان، ويستشعر ألماً في ركبته اليسرى وكأن الرصاصة التي أخترقتها في الـ (91) مازالت هناك.

*   *   *

الممثل الوسيم ذو الملامح المصقولة يقف مع مديحة كامل تحت شجرة يحركها هواء الصباح بهدوء، يرفع يديه ثم ينزلهما بانخذال وينظر بأسى الى وجه مديحة ثم يقول : أحنه لازم نسيب بعض. مديحة الهادئة تنفعل فجأة وترشقه بكلمات قاسية متهمة اياه بالجبن وانه لا يستحقها. كانت تعرف هذه النهاية ولقد جاءت الى الموعد اصلاً كي تخبره بأنه لا يستحقها. والحمد لله أننا على البر، الحمد لله انها كشفت حقيقته قبل فوات الاوان.

- 47 -

[ما الذي لدي من اعمال، ان الوقت فائض ومبذول هاهنا ، اقلب دفتر حكايتي، وقبل ان أكمل شيئاً فيها تستهويني رغبة احصاء الكلمات. أكتشفت أن كلمة (نهاية) تكررت في حكايتي حتى الان 29 مرةً، مقابل 13 مرة لكلمة (بداية) وهذا رقم مشؤوم كما يقال. أحتاج إذن الى 16 بداية جديدة كي تنحسر اطياف الموت عني. ثم أحتاج بعدها الى التفكير جدياً بما يضادد الرومانتيكية التي تسربل الاشياء، الى ما ينقض البدايات والنهايات. فليست الحياة في حقيقتها حكاية متسقة، بقدر ما هي خليط متشابك يتمرد على النصية التي نريد ان نطمئن لها. إن الحياة في النهاية ليست مكاناً للقبض على الطمأنينة أبداً].

- 48 -

يدخل حلمي الى معمل الحلويات صباحاً، ويشاهد صديقه جميل گيطان ينفصل عن كتلة العمال الداخلين ويتجه الى غرفة المدير، لقد تغيب ليومين لسبب مجهول، ربما مرض او مشكلة المت به. وما يعرفه حلمي أن صاحب المعمل لا يتساهل أبداً في قضية التغيب عن العمل، وقد طرد الكثيرين لهذا السبب.

مرةً شاهد رجلاً اشيباً يتحدث مع مدير المعمل وهو يتجه بخطوات متباطئة الى الخارج حيث سيارته الفارهة، كان مدير المعمل يدخن بهدوء ويستمع الى الرجل الاشيب من دون أن يلتفت اليه، وحين وصل الى سيارته تحركت شفتاه بكلمات قليلة ثم جلس وراء المقود واغلق الباب. كان الرجل الاشيب واحداً من الذين انهيت خدماتهم بسبب التغيب، وبعد ان توسل الى المدير، قال له أن هذه القضية من مسؤولية الادارة، وهو مثله موظف عند صاحب المعمل!

يرمي حلمي كيس غدائه قرب الالة الضخمة ويجلس على الـ (ستول) ذي غطاء الجلد المتهرئ، ويجيل ببصره في المكان قبل ان يشرع في تشغيل الالة، سيحتاج لدقائق كي يبعد النعاس عن رأسه، وينتظر قدوم ندى مع رفيقاتها، لتمر من جواره وتلقي عليه تحية الصباح. تتحرك ألات بعيدة، بأيقاع محتدم ، مبتدئة مهمتها في ملء أذنيه بصخبها النهاري. ومرت من خلفه، مع بعض العاملين، الحاجة أمينة، والتي يقال أنها وحدها من يعرف خلطة الشوكولاته، وخلطة المواد المطيبة الداخلة في تركيبة باقي اصناف الحلوى التي ينتجها هذا المعمل. أنها لا تمكث في العادة سوى ساعتين أو ثلاثة ، مغلقة الباب في مختبرها الخاص الذي ليس سوى غرفة صغيرة غير نظيفة مزدحمة بأشياء كثيرة، تعكف على اعداد الكمية المطلوبة لأنتاج الشفت الصباحي ثم تغادر، ويتولى باقي العاملين معها مزج التركيبة بباقي المواد، قبل دفع العجينة النهائية الى مفاصل الانتاج الاخرى.

هناك حلوى كثيرة في السوق. نساتل بنوعيات مختلفة، وشوكولاته، وأصناف وتسميات لا يمكن احصاؤها من الملبس وحلوى الجوز والسمسم. والمعامل الصغيرة والكبيرة تتنافس في شغل مساحة اكبر من اهتمام المتبضعين. ورغم الوضع الاقتصادي المغلق بسبب الحصار، ألا ان الحركة لا تكاد تهدأ. وما يشاع هنا في المعمل أن سر نجاح منتوجه يكمن في الخلطة المميزة التي تدخل فيها مواد لا يعلمها الا الله، والموثوق بهم من العاملين الذين يشكلون النخبة التي يرتكز

عليها المعمل. وعلى رأسهم الحاجة أمينة. يستغرق حلمي اثناء عمله مع صورة يتخيلها: الحاجة أمينة ستخرج بعد قليل من مختبرها، وتجلس كالمعتاد مع المدير قليلاً قبل ان تغادر المعمل، تقف عند الشارع بأنتظار سيارة اجرة، وفي هذه الاثناء تنبثق من وسط الشارع بيك آب قذرة ذات بدن صدئ مخلع، تحمل الخضار، يقودها سائق أهمل ادامتها وتنظيفها، تحت وطأة انشغاله بجمع النقود من الليل حتى الليل، تصعد البيك آب الرصيف وتمر بسرعتها المباغتة من جوار بعض السابلة حسني الحظ، ثم ترتطم بالحاجة أمينة ذات الجسد الرجراج الثقيل وتقذفها في الهواء لتهوي فوق سقف منطقة الباص. ماذا سيحدث حينها؟ هل سيتوقفون عن العمل؟ من سيصنع التركيبة بعدها، من يعرف السر غيرها؟ من غير المعقول أنها وحدها من يعرف ذلك. لابد انها قد بلغت وعلى رؤوس الاشهاد ان فلاناً أبن علان هو وريثها، وهو من يحمل السر بعدها. فبهذه الطريقة وحدها سيستمر السر جيلاً بعد جيل الى أن يكف الناس عن اكل الحلوى نهائياً.

يلمح حلمي صديقه جميل گيطان وهو يخرج من غرفة المدير ويتجه بكيس غدائه الى الباب الخارجي، فيحزن مع نفسه. الى أين سيتجه هذا الرجل الان؟ أنه حتماً سيفكر أثناء سيره على الارصفة، ببيك آب عمياء تخرجه من هذه الحياة السيئة. حلمي سيفعل ذلك حتماً لو كان مكانه. ولهذا ، تخيل منذ برهة دون قصد ما سيكون عليه مصير الحاجة أمينة. سيمنح مدير المعمل، بسبب الظرف الطارئ، أجازة مفتوحة للعاملين. لن يفصلهم جميعاً، هي مجرد ايام معدودات، حتى يظهر وريث سر التركيبة الجديد، ليستأنف المعمل عمله المعتاد.

تدخل ندى الى المعمل لوحدها، تتقدمها ظلالها الطويلة مرسومة على الارضية الخراسانية، تقترب منه وهو سارح الذهن، تلتف من وراء الة التغليف وتلقي عليه التحية، فيرفع بصره متفاجئاً، ويرد وعيناه تتراقصان فرحاً. نظرت الى حيث زميلاتها في اقصى القاعة، كأنها تتأكد من مجيئهن، ثم عادت اليه. لم يعتد منها أن تقف معه في وقت كهذا، كان وجهها

ينضح اثار النعاس، وقد أكتسى على عجل بلطختين او ثلاثة من الماكياج، نظرت الى يديه البيضاوتين وقالت: " لقد فكرت البارحة كثيراً". رفع بصره من الة التغليف منصتاً. فوجدها تلتفت الى صديقاتها في اقصى القاعة ثم تعود اليه، وتغير من نبرتها فتغدو أكثر حسماً. تختلط اصوات المكائن مع صوتها، ويرى شفتيها الجميلتين تتحركان وحاجباها يتقوسان ثم ينكمشان، تدير وجهها اثناء كلامها وتحرك يديها ، وهو يجيبها رافعاً صوته، يصمتان داخل الضوضاء ثم يستأنف كلامه، فتبتعد بخطوتين الى الخلف، تنظر الى زميلاتها المنشغلات، ثم الى باب غرفة المدير، وتعود لتنظر اليه وهو يحاول ان يفهم الموضوع. صمتت منصتة اليه ثم أمنت برأسها كأشارة ختامية ، وابتعدت عنه، تاركة اياه وسط ارتباك شديد. نظر اليها وهي تمر من بين اكياس المواد الاولية وعلب الكارتون ثم تقف في اخر القاعة وتلقي بحقيبتها وكيس غدائها قرب خزانة حديدية وتنظم الى باقي رفيقاتها.

كانت مجموعة من قطع الشوكولا قد افلتت اثناء ذلك من الالة دون ان ينتبه. رفعها وأعاد نظمها مع باقي القطع الطرية المتجهة الى فوهة التغليف. قلب كلماتها في رأسه، ثم رغب لو يذهب اليها لأستئناف حديثهما، لم يكن يتوقع هذا التغير المفاجئ لديها. وود لو كان لديه متسع من الوقت، ليتحدث معها بعيداً عن هذا المكان. لكنها رفضت عروضه السابقة، في الذهاب صباح الجمعة الى مكان ما. فلتتحجج لعائلتها بأي حجة، من اجل ان يلتقيا في مكان اخر غير المعمل، لكنها ترفض بحزم، وكأنها تخشى من شيء. شتم المعمل في داخله، والعمل المبهظ. ومن اجل ذلك يتخيل دائماً مصيراً بشعاً للحاجة امينة. انه يريد الانعتاق ولو لفترة من هذه الضوضاء وهذا الوقوف الممض من الصباح وحتى المساء، يريد ان يرى الظهيرة ليوم واحد على الاقل. وان يجلس مع ندى تحت النهار ويفرغان بأسترخاء ودونما عجل كل ما لديهما من كلمات.

لم تكن لديه سوى صورة مختزلة عما تعانيه ندى. أخ وحيد مسافر، وام مريضة واب توفي مؤخراً. وهي المعيل الوحيد

للعائلة. لم تخبره رغم كل رومانسياته الخجولة بأنها تحبه، لكنه لا يحتاج أن تصرح بذلك حتى يعرف، أستجابتها له كانت كافية، وهو لا يخطئ تلك الاطياف التي تمر في نظرتها اليه، انها تشعره بخصوصية معينة، بالاضافة الى احاديثها التي تشير الى امر لقائهما وكأنه قضية محسومة، وقدر يجب عدم الفرار منه. في اليوم السابق تحدث لها عن عائلته وانه يريد مفاتحتهم حتى يأتوا معه لخطبتها.

وفي الليل فكرت كثيراً. كانت قد اخبرت أمها في وقت سابق، حين نمى اليها من بعض النساء أنها تدخل الزقاق معه. يا ألهي .. لقد فعلت ذلك لمرة واحدة، نتيجة الحاحه الطفولي، كيف تصيدتهما الاعين؟ مر في ذهنها هذا السؤال وهي تؤكد مستسلمة ما سمعته الام. ولكن، لم يبد على الام انها قد انزعجت كثيراً لتوكيد ابنتها، وبدلا من ذلك سألتها عن (الولد)، وأين بيتهم، ومن هم اهله، وكانت ندى تجيب بأيجاز والام منشغلة بأعداد طعام العشاء في المطبخ ، وبدا لندى بسبب الاستجابة الفاترة من امها، انه ما من مشكلة هناك، وفي الايام اللاحقة تأكد لندى ان الام معنية بشيء واحد، زواجها. تريد ان ترى ابنتها وقد تزوجت، قبل ان تغيم سماء حياتها وتفوتها فرصة اللحاق بالناس! كما كانت تقول. ولم تعد الام الى سؤال ابنتها عن شيء ثانية، ولم تعرف ندى ان الوالدة قد انشغلت بعد تلك الليلة بـ (شمشمة) الاخبار عن الولد، فعرفت من نساء الحي، كل ما تحتاجه عن الولد واهله ووضعهم الاجتماعي، ليست هناك شائبة تشوب الولد، لكن ما اقلقها هو الكلام الذي قيل لها .. ان الولد (خاطب بنت عمه منذ الازل).

- أنه لا يريدها.
- هو من قال لك ذلك؟
- لقد اخبر عائلته بأمر زواجه مني..
- عيني.. بنيتي، ديري بالچ.. لا تخلينا علچ بحلوگ الوادم.
- أنه يريد ان يقابلك.

كذبت على والدتها، ولم تفكر كثيراً، وجدت نفسها تنطق هذه الكلمات، لأنها لاتريد أن تبرر لها كل افعالها او تشرح شيئاً.

وهاهي قد أخبرته بما جرى مع والدتها، وعليه أن يحسم امره أن كان حقاً يرغب بالزواج منها. أهله.. أمه وابوه؟ أنها مشكلته وليست مشكلتها، ومن اجل أن لا تصدع رأسها بكلام زائد، قررت أن لا ينزلا سوية أمام زقاق السادة بعد الان.
خرجت الحاجة أمينة من مختبرها ومرت من ورائه وهو مشغول البال بكلام ندى المفاجئ. ثم انحرفت حول الة التغليف ومرت من امامه متجهة الى الباب. وبعد لحظات من اختفاء كتلتها الرجراجة في مربع الباب المضيء، سمع حلمي وسط احتدام الالات في المعمل صوتاً حاداً ومديداً يأتي من الخارج لأطارات تتوقف على الاسفلت بعنف.

- 49 -

يتخيل خلية نحل عملاقة، وهو مع باقي العاملين يحملون الرحيق اليها من الصباح وحتى المساء، ثم يخلدون للنوم، في اللحظة التي يبدئ العمل فيها عمال اخرون. تمتلئ الاقراص السداسية بالعسل، ويأخذه صاحب المعمل لوحده. جميل گيطان تأخر في جلب الرحيق.. " جميل .. OUT". أذهب الى الجحيم يا صديقي.
سوف لن يعود جميل گيطان الى المعمل ثانية، ولن يتمكن حلمي من رؤيته خلال الايام اللاحقة، وكأنه خرج من باب المعمل ليذوب في العدم. يفكر حلمي برفيقه الذي ساعده ويشعر بالاسى لاجله. تذكر صديقه عيدان، الذي كان يقول له، ان الانسان الذي لا يرى كل ما في الحياة، موته خسارة. ثم قسم في ذهنه البشر الى صنفين، أولئك الذين يصنعون الحياة، وأولئك الذين يستهلكونها، اولئك الذين ينضفون المسرح واولئك الذين يرقصون عليه. وبالتأكيد هو من الصنف الاول.

- 50 -

يفتح دفتر الرياضيات ويكتب رسالة لن ترسل الى صديقه عيدان:
لا اعرف ما الذي علي فعله بالضبط. الاضطراب يعتور كل شيء حولي، لقد تغيرت نود فجأة، أبتسامتها الوديعة، وعيناها السوداوان، وجهها الملائكي، ماذا اقول، لقد تغيرت، انها لا تريدني ان اكلمها أثناء العمل، خشية كلام الناس السيء، وتسرع عند انتهاء الدوام مارة من امامي،وحين الحقها أجدها قد غادرت في احدى السيارات. حين اسألها صباح اليوم التالي، تعتذر ببرود، ثم تستأذن لتعود لعملها. لم تكن هكذا في البداية، ما الذي حصل مني لاجل هذا الجفاء؟
لقد كلمت أهلي بشأنها كما ارادت، لكن لم يبد انهم صدقوا كلامي، ظنوا انني امزح، لم امزح معهم سابقاً، لم يكترث أبي لكلامي، وقال بعد الحاحي أن ظرفهم لا يساعد الان على الزواج او ما شابه، لم اعرف بالضبط رأيه في عدم الزواج من نادية، وتركني اهذي ليتابع المسلسل العربي وهو يدخن.
اردت ان اغضب وانفعل واصيح، لكني لم افعل ذلك سابقاً، واكتفت أمي حين نظرت اليها برجائها الخافت ان انسى الموضوع لئلا تحصل مشكلة. لقد اخبرت نود بكل هذه التفاصيل، لكنها لم تبد مكترثة أيضاً، وكأن ما يهمها هو النتيجة فقط، هل سأحضر مع عائلتي لخطبتها أم لا؟
صباح اليوم، وقبل ان اخرج من البيت، سمعت سناء تتكلم مع أمي في الحوش، كان صوتها خفيضاً، لكني سمعت كل شيء، ان مشكلة ما حصلت في بيت عمي، نادية اصيبت بالخرس او ما شابه، ولا يعرفون ما الذي حصل لها. تدفق الدم في رأسي، واردت أن أسأل سناء مباشرة، لكني خفت أو ربما خشيت ان أتهم بشيء، واكاد اعرف تماماً مع نفسي لماذا اصيبت نادية بالخرس، لقد غدا وجهها مساء اليوم الذي كلمتها فيه، وجه فتاة خرساء.
أين انت الان ياصديقي العزيز؟ لقد بحثت عنك، احتاج الى الثرثرة معك، لا بد انك في مكان ما حولي، ربما ركبنا السيارة نفسها في يوم ما دون ان يعلم احدنا بالاخر، ربما انت تمر

الان في زقاق السادة، ويرتسم على وجهك لثوان الضوء المنبعث من شباك غرفة الخطار في بيتنا.
لقد شعرت بالذنب لأن صاحب المعمل طرد جميل گيطان، لماذا شعرت بالذنب؟ لا اعرف، ولكني حزنت لأجله، هل كان جميل حزيناً لأنه ترك العمل؟ ربما كان سعيداً، لا اعرف. اصبح يوم العمل ثقيلاً فجأة، كانت نود تخفف عني. مجرد نظرة عابرة بين حين واخر الى وجهها بين العاملات تبهجني وتنسيني القرف المتواصل لأثنتي عشر ساعة من العمل الممل. مجرد جلوسها معي في السيارة عند المساء، يجعلني اتلهف للمجيء للعمل صباح الغد. ربما أكتشفت انني احب الكلام فقط، وانني غير قادر على فعل شيء، لكني لا أثرثر كثيراً أمامها، أنا في العادة انصت لها، اتعبد بوجهها.
أين انت ايها الصديق، أنهم لا يكترثون لي ابداً.

- 51 -
الرسالة الثانية:
أردت ان اكتشف مشاعر جميل حين ترك العمل. فتحت عيني ورفعت ساعتي اليدوية، وعرفت انه موعد نهوظي اليومي، لكن جسدي لم يستجب، هل تمرد جسدي حين لم أتمرد انا؟ ولكن ما معنى ان اتمرد، ألا يجب ان يكون هناك هدف ما حتى اتمرد من اجله، أم ان التمرد يقتضي عدم الايمان بأي هدف؟ لا اعرف. لكن جسدي يعرف شيئاً بالتأكيد، أنه لا يطاوعني. اتقلب في الفراش، فاشعر باسياخ نارية تمزق ظهري، أه، قدماي ايضاً، ارفع رأسي فلا يتحرك أبداً، كأن احداً ما ابدله اثناء الليل بصخرة كبيرة، اسمع ضوضاء اطفال اختي سناء خلف الباب، وشحط نعلي والدتي، ثم صوت راديو من الجيران، تمر الدقائق ولا يفتح الباب علي احد، ارفع ساعتي امام عيني واجد ان العقربين قد قفزا قفزة كبيرة، اغمض عيني، فينطفئ كل شيء.
فتحتهما، فوجدت ضوءاً حاداً يكسي الغرفة، كان احدهم قد فتح عليَّ الباب ولم يغلقه، رفعت ساعتي امام عيني، فوجدت ان

العقربين قد حلقا الى مكان بعيد. اتخيل ما الذي يحصل الان في المعمل، كرسيي ذو الجلد المتهرئ فارغ، ونود تعمل مع زميلاتها من دون ان تكلف نفسها النظر إليه، لن تسأل عني، انها لا تحبني، كرهتني، آه، أنا ممل، أنا سيء الحظ، انا مريض جداً، أنا يائس، أنا ميت إلا قليلاً.

* * *

صباح هذا اليوم طلبني مدير المعمل. كنت قد وقفت لتوي امام آلتي كالحة اللون، لم اضع بعد كيس غدائي بجوارها، وعرفت بسرعة لماذا طلبني مدير المعمل. لقد تغيبت ليومين، وسيفصلني، وماذا غير ذلك؟ لن يفهم أنني كنت مريضاً نوعاً ما. نظرت الى مكان عمل نود فوجدتها هناك تحمل كارتونة فارغة وتركنها في احدى الزوايا، نظرت اليها ملياً، واكتشفت بألم أنها لم تعد نود، أنها ندى فقط، انعصر فؤادي، وتخيلت مقدمة أحدى الاغاني تعزف من حولي بدلا من هذا الصخب الحيواني للالات الميتة. طويت كيس غدائي بيدي، واعتصرته، كان ليناً ودافئاً، نسيت نفسي لثوان، وأحس زميلي الذي أبلغني بخبر طلب المدير لي بأنني تجاهلته، فاعاد علي كلامه، فألتفت اليه وقلت وأنا اطمئنه انني سأحضر. ولكن.. اه.. لا استطيع الاستمرار في عمل كهذا، انا لا اعرف ما هو النهار، الارصفة، الشوارع، الحافلات، الاشجار، التراب، الهواء، الناس، العصر ، الظهر، الحدائق، الباب الشرقي، العلاوي، النهظة، باب المعظم، المقاهي، المعارض، لا اعرف اياً من ذلك، سأموت دون ان يتاح لي فرصة الهرب من حياتي. ليس لدي اصدقاء، لم ارتكب حماقة، لم اكل لفة فلافل واحدة منذ زمن طويل، لم اشرب ببسي، لم اضيع ثانية واحدة. أو انني اضعت الثواني كلها.

اخذت كيس غدائي، وطويته وعجنته بيدي، ثم اتجهت الى الباب، سمعت صوتاً من خلفي ينادي على أسمي، لكنه، للأسف، لم يكن صوت نود او ندى، التفت فوجدته احد الزملاء، أشار بيده الى غرفة المدير. يا ألهي، ما الذي يدفع هذا الرجل الى الالحاح هكذا؟ حركت له رأسي من بعيد

مطمئنـاً ايـاه، ثـم اكملـت بانزعـاج مسيري نحـو البـاب، خفـت صوت الالات فـي اذنـي شيئاً فشيئاً، ثـم اختلط باصـوات العـالم الخـارجي، ثـم حلـت الاصـوات الجديـدة محـل الاصـوات الميتـة. وطأت بقدمي على ارض موحلة ثم علـى ورقـة خس، ثـم علـى كيس بلاستيكي قذر، ثم على بقع شـاي امـام جنبـر حديـدي لبيـع الشاي والحامض، ثم على علبة سجائر اجنبية، ثم علـى صـورة كبيـرة لمدينـة بشـوارع نظيفـة وبيـوت مربعـة الشـكل واشـجار خضراء مستنسخة عن بعضها.

- 52 -

الرسالة الثالثة:

عزيزي عيدان، أنا آسف، لأننـي استحضـرك هـذه الايـام. لسـت متيقناً تماماً من قيمة ما افعل، اكتـب او اشـخبط او أرسـم دوائـر وخرائط لبلدان غريبة. نهظت في العاشرة، ارتديت ملابسـي ثـم خرجت، لم تسألني الوالدة أي شيء، وكـان ابـي قد غـادر فجـراً الـى عملـه فـي مصـلحة نقـل الركـاب. خرجـت مـن الزقـاق، وحزنت حين وقفت في المكان الذي اعتدت علـى الركـوب منـه صباح كل يوم الى معمل الحلويات، لا استطيع نسيان نـود. لقد تركت العمل في معمل الحلويات، وتخيلـت أننـي اعاقبهـا بـذلك، هذا سلوك اطفال، حتى انها لم تعرف حينها انني تركـت العمـل، ربمـا سـتتفاجأ حـين تكتشـف ذلـك، لكنـي لا اعـرف تمامـاً، هـل سأتقصـد رؤيتهـا؟ أقـف عنـد ركـن زقـاق السـادة فـي السـاعة المحددة لوصولها كل يوم وأحاول الحديث معهـا؟ لكنهـا لـم تعـد نـود، ستكلمني بجفـاء، كيـف سـأتكلم معهـا وهـي ليسـت نـود، ولكن، لمـاذا سأسـتوقفها أذا لـم تكـن نـود، لمـاذا أنـا منشـغل بهـا هكذا اذا لم تكن نـود؟

* * *

أنـه يـوم غريـب، تمنيـت لـو أن كـل الاشـياء فـي حيـاتي تحصـل بهذه الطريقة. ذهبت الى باب المعظم، ومن هنـاك سلكت باتجـاه شارع الرشيد. كان الجو ساخناً رغم الوقت المبكـر. كنـت اريـد التسكع لا اكثـر. مـررت مـن بـين الحـافلات الحمـراء المصـطفة

في ساحة الميدان وتناهت الي موسيقى ولغط التلفزيونات والراديوات من المطاعم والمحال، وانا اسلك بين بائعي الصحف وصباغي الاحذية، وجنابر السجائر. أتحسس الماً في رقبتي، وخمولاً محبباً. ربما هكذا شعر جميل گيطان حين ترك العمل، اشعر الان بأني غير معني بالوقت، غير معني بأنقضائه او ضياعه، لا يشغلني شيء مهم، وهذه هي الراحة العظمى.

أثارتني بسطات الكتب الكثيرة المتوزعة على الارصفة في شارع الرشيد حتى بداية شارع المتنبي. ومن هناك بدا لي وكأن قروناً مضت منذ ان وطئت قدمي هذا المكان اخر مرة، نفق بشري طويل ينتهي ببناية عظيمة، كتب كثيرة مختلطة ببشر اكثر، ووجدت نفسي انحرف داخلاً في هذا الحشد الكتبي.

وجدت كتاب (راسبوتين) بين الكتب في احدى البسطات، قلبته، وتذكرت ذلك اليوم الذي استعرته فيه منك يا عيدان، المفارقة انني لم اقرأه ابداً، لأنني انشغلت بالامتحانات حينها، ثم لم أقرأه، لأنني كلما نظرت اليه، تذكرت فاجعة رسوبي.

حين القيت (راسبوتين) الى الارض، وأبتعدت لأكمال مسيري، تخيلت وانا انظر بين وجوه السابلة والمتبضعين، أنني ارى وجهك الاسمر، بلحيتك الصغيرة المفرقة على جانبي وجهك، وجبهتك الضيقة، سمعت صوت اذان بعيد، ربما هو قادم من الحيدرخانة، أو من احد الراديوات، وألتفت الى بداية النفق، فوجدتك هناك تنظر الى الارض، بين مجموعة من الاشخاص، تمسك بيدك كتاباً، تدقق النظر الى العناوين المعروضة، ثم تنحني لترفع كتاباً، أنه شيء غريب، هل أنبثقت أخيراً نتيجة الحاحي، هل جئت تلبية لرغبتي العميقة، أم انني اتخيل فقط؟

أقترب منك، وامس بيدي على كتفك، فتلتفت، وارى المفاجأة في وجهك:

ـ حلمي الملعون..

تحتضنني ونضحك سوية، ولا تترك يدي. تسحبني وتمطرني بالاسئلة، فأجيب، وانا اتحاشى الاصتدام بالمارة، تحلف انك لن تتركني اليوم، واقلب عيني في هيئتك الجديدة، انت نفسك، لكنك لست انت في الوقت نفسه.

- 53 -

ـ وينه هذا اللي تگولين عليه؟ مو گلتي راح يجيب اهله ويجي؟
ـ لقد ترك العمل.
ـ يعني شنو؟
ـ لا اعرف.
ـ لازم تعرفين، أنتي مو تگولين عنه خوش ولد؟ ليش ضيعتيه بنيتي؟ آني بس ردتچ اتديرين بالچ، خاف سمعتيه احچاية موزينه وزعل؟
ـ أخبرته بالمفيد.
ـ يعني ما چان رايد يخطبچ؟
ـ لا اعرف.
ـ لازم تعرفين.

- 54 -

لم يدخل عيدان الى كلية الطب كما كان يحلم، فأنتهى به الامر أن يدرس علم الاجتماع، تخرج ثم خدم في الحرس الجمهوري. وبعد ان تسرح من الجيش،انتقل مع اهله من حي الاكراد قرب ساحة الـ(55) الى الاورفلي، أنه لا يعمل الان، لا يفعل شيئاً سوى كتابة الشعر. هذا ما فهمه حلمي من صديق دراسته نهار ذلك اليوم حين التقى به صدفة. قاده من يده واجلسه في مقهى حسن عجمي، وخمن حلمي ان هناك موعداً مسبقاً بين عيدان واشخاص اخرين، كانوا قد ملأوا المكان حول المنضدة، نزلت الشايات، واوقدت السجائر، وتلاحقت الاحاديث التي كان حلمي منصتاً لها فحسب. كان يتوقع لقاء اكثر حميمية، يأخذه صديقه الى مكان مفتوح مثل حديقة

مستشفى الچوادر، يجلسان ويستذكران الايام الخوالي، يسأله عن مشاغله واحلامه، ويبهجه بشطحاته الغريبة.
أمضى حلمي وقته منصتاً لاحاديث الاشخاص الجالسين على التخت بجواره، وسمع صديقه ينبري أكثر من مرة للدفاع عن شخص اسمه ابولنير، يرفع عيدان يده ويهتف " يسقط غيوم.. يسقط غيوم"، ويضحك رفاقه، ولا يفهم حلمي شيئاً، أناشيد مالدرور، وفصل في الجحيم، أنه هذا الفصل حتماً حيث الشمس عمودية تماماً.
أحس حلمي مخذولاً، بان صديق دراسته لم يبد متلهفاُ كثيراً للقائه، وغير شاكر للصدفة التي جمعتهما ثانية، حتى أنه لم يذكر اي شيء عن محاولة أو ما شابه قام بها للبحث عنه طوال السنين الماضية. أراد ان يكلمه عن مشاغله وآلامه الشخصية، ولكن الوقت لم يبد مناسباً لذلك، سيلتقيان ثانية حتماً، وفي مكان اخر بالتأكيد، اكثر هدوءاً وحميمية. وليكن أكثر صبراً في هذه اللحظة، فما الذي وراءه، لا شغل ولا عمل. أنحرفت الشمس عن منتصف النهار بكثير، وخرج عيدان مع اصدقائه يتبعهم حلمي من المقهى واتجهوا الى الميدان. دخلوا في احد المطاعم، وأكلوا وهم واقفين ساندويتشات سريعة، وشربوا الببسي، وبدا عيدان كريماً مع صديقه،فطلب منه ان يأكل لفة ثانية، لكن حلمي ذا المعدة الصغيرة أمتنع شاكراً، ثم وهم يخرجون الى الهواء من جديد مد عيدان يده بسيجارة الى صديق دراسته، فأمتنع حلمي ثانية، موضحاً بأنه لا يدخن. دس عيدان السيجارة في فمه واوقدها من قداحة صغيرة وسحب نفساً سريعاً واطلق الى الاعلى نافورة دخان بيضاء ، ثم رمق صديقه مبتسماً وكأنه يقول له.. انظر الى الدخان، انه دخان اليس كذلك؟
(ما الذي تفعله؟ عملك .. ما عملك؟.. اين تشتغل؟ هل تزوجت؟)
سأله اخيراً دفعة واحدة أسئلة يحتاج حلمي الى نهار كامل لكي يجيب عليها، لكنه أكتفى بأشارات مختصرة لم يتوقف عندها عيدان كثيراً، حيث أستأنف احد الاصدقاء أثناء مسير

المجموعة نحو الگراج الحوار السابق، والذي لم يبد انهم قد اتفقوا بشأنه على شيء محدد.
(سنلتقي .. انا لدي شغل الان.. غداً جيد؟.. أنا عادة أكون في الواحدة ظهراً في مقهى ام كلثوم .. تعرفه .. هناك في بداية شارع الرشيد.. ضروري اجلس معك.. لم نتحدث بما فيه الكفاية.. اليوم انا مخبوص.. لدينا موضوع.. بالمناسبة، هل ما زلت تكتب؟ .. كنت تكتب قصائد وقصص، هل تركت الكتابة؟ .. أذا كان لديك شيء فأجلبه غداً)
سلك حلمي طريقه بين السابلة الذين يملأون الگراج متجهاً نحو سيارات الچوادر. توقف على أحد الارصفة بجوار صينية للداطلي وضعها على الارض احد الصبية، وتأمل الزحام على السيارات، مقلباً في ذهنه اجزاء من حواره مع صديقه. بعد برهة، برزت عند المدخل سيارة اوتومارس طويلة عرفها حلمي في الحال، ها هي تدخل في المضمار المخصص لسيارات الچوادر، ويتراكض نحوها الناس. لم يجد حلمي في نفسه الهمة للركض بأتجاهها، وأكتفى بتأمل المشهد امامه. انها السيارة نفسها التي ركب فيها مع نود أول مرة، هل هو قادر على التذكر الى هذا الحد؟ ربما هناك اكثر من سيارة شبيه بهذه. لكنها نفس السيارة. توقفت أخيراً، وبدا ان هناك ركاب يحاولون النزول، إلا ان الازدحام على الباب يمنعهم من ذلك. نزل الاشخاص اخيراً، امرأة كبيرة وطفل وفتاة شابة تغطي شعرها بفوطة بيضاء. بدأت تنفض ملابسها، يا ألهي.. نود. مرت العائلة من جواره، وحمد الله أنها لم تكن هي.

- 55 -

توقف عن كتابة الرسائل في دفتر الرياضيات، كان يكتبها لصديقه عيدان، وها هو بجواره، فما الذي يدفعه لكتابة رسائل اليه بعد الان. سيخبره بكل لواعجه مباشرة، تفاصيل حكايته مع نود. يقلب في اوراقه، ولا يجد شيئاً مهماً، لقد طلب منه عيدان ان يجلب ما يكتبه، وليس لديه هنا سوى هذه الرسائل،

سيعطيها لـه. ربمـا ستؤثر فيـه هـذه الرسـائل، ستجعله يفهـم صديقه، ويقدر لقاءهما الجديد حق قدره.
جلس فـي مقهى ام كلثوم طاويـاً دفتـره بيده، وطلـب شـاياً، ولـم يكن صديقه قد اتى بعد. تأمل وجوه الزبـائن، كانـت حياديـة، أو خاملـة. هنـاك رجـل أشـيب نحيـف، لـه لحيـة منتوفـة، وشـعر مسترسـل، وظهـر مسـتقيم، يرتـدي بدلـة حائلـة اللـون، لكنهـا نظيفة، يقلب كتاباً في يده. هذه أشارة اولى الى الجو الذي يريد عيدان ان يدخل صديقه فيه. يقلب الرجل الاشيب كتابه بوقار، ويقرقر من ذراع النارجيلة فـي يده الاخرى. ويكتسي فضـاء المقهى شبه المعتمـة بالصوت الازلـي لأم كلثوم، التـي أزدانـت الجدران بصورها الكبيرة مع صور مطربين اخرين. يرتشف حلمي من الشاي، ويقلب الرجل العجوز كتابه ويطلق الدخان، وتحلـق أم كلثـوم بأسـترخاء حنـون مالئـة الاجـواء حتـى حـدود الضوء الباهر على الارصفة المقابلة. يقلـب حلمـي الدفتر بيده، ثـم يشـرع فـي القـراءة، يتوقـف عنـد جملـة كتبهـا فيمـا مضـى، فيشعر بالخجل منها، يخرج قلمه الجاف، ويشطبها، ثم يستغرق اكثر في قراءة الصفحات الباقية. تستهويه هذه القـراءة النقديـة، فيشرع في شطب جمل كثيرة لا يجد فيها سوى بكائيات ثقيلـة، لن تناسب ردة الفعل التي وجدها لدى صديقه القديم الجديد. ثم ها هو يمزق أحدى الصفحات، ثم يمزق اخرى، ويرفـع بصـره الى الباب، متوقعاً حضور صديقه. يرجـع الـى كلماتـه ثـم يـدخل شخصان او ثلاثـة ويمرقـان مـن امامـه، يرفـع رأسـه، ويكتشـف ان الرجل الاشيب ذا البدلة الحائلة، ينظر بأتجاهه، أنتابه ضـيق غريب من النظرة الثابتـة التـي ترسـلها العينيـان الناعسـتان لهـذا الرجل العجوز. فتشـاغل عنهـا بـالعودة الـى القـراءة، لكنـه شـعر بعد برهة بأنه لا يقرأ، وانمـا يحـرك عينيـه علـى الاسـطر فقـط، بينما ذهنه منسحب لهذا المراقب العجوز.
دخل عيدان أخيرا الى المقهى على عجل، وهو يحمل مجموعـة من الكتب والدفاتر، وصافح صديقه بحرارة:
- هل تأخرت عليك؟
- لا ..

ـ كنت نائماً، تصور..
قال ذلك ثم ضحك وهو يمسح وجهه، وطلب بصوت مرتفع شاياً من عامل المقهى.
ـ البارحة كانت سهرة جميلة، تمنيتك معنا، جلسة حلوة... شلونك؟
قال ذلك وهو يضرب على فخذ حلمي.
ـ انا زين..
أجاب حلمي ثم التفت الى الرجل الاشيب، فوجده مستغرقاً في القراءة. نظر عيدان اليه ايضاً وبدا كأنه انتبه لوجوده تواً:
ـ هذا رسول الكاتب، تعرفه؟
ـ لا..
ـ انه شاعر مهم، ألم تقرأ له سابقاً؟
ـ لا .. أنا اراه للمرة الاولى.
قال عيدان وهو يهم بالقيام:
ـ تعال أعرفك عليه.
ـ لا .. أرجوك، انا جئت لأراك.
قال حلمي، ثم مر خاطر في ذهنه فأكمل:
ـ هل سيأتي اصدقاؤك الاخرون ايضاً؟
ـ لا.. أنهم الان في مقهى الجماهير، سنذهب اليهم فيما بعد.
قال عيدان، ثم ارخى جسده على التخت، والتقت عيناه بعيني رسول الكاتب، فرفع يده اليه محيياً، فأجابه الرجل بتحية مماثلة. ظل عيدان ينظر الى الرجل العجوز لثوان وكأن فكرة ما مرت في ذهنه، ثم عاد الى كتبه ودفاتره فوضعها على التخت بجواره، وقال:
ـ انا اجيء الى هنا عادة من اجل الكتابة، لا التقي كثيراً. هذا المكان لا يأتي اليه الكثيرون.
ـ وأين تعمل الان؟
ـ لا اعمل شيئاً، الوضع لا يساعد على ذلك، كنت ابيع الكتب.
زفر ساهماً ثم اكمل:

ـ قضيت سنة أعمل في محل للادوات الصحية الى ان تعاركت مع صاحب المحل، لانه يشكك في ذمتي، لم اتحمل ثرثرته فكسرت له مقعد تواليت من السيراميك.
قال عيدان ذلك ثم ضحك. فسأله حلمي ثانية عن عمله الان، من اين يصرف على نفسه، فأجابه وهو يرتشف الشاي، بأنه (عايش على الطايفات). اخرج علبة سجائره واستل واحدة، قدمها الى حلمي لكن حلمي اكد له بأنه لا يدخن. نظر عيدان الى صديقه نظرة فاحصة ثم قال وهو يشعل السيجارة:
ـ ستدخن، شكلك يوحي بذلك.
أمال رأسه جانباً واطلق زفير دخان كثيف، ثم أنتبه الى الدفتر في يد صديقه فقاله له:
ـ ما هذا؟.. ارني؟
سلمه حلمي الدفتر، واحس بالدماء تتدفق في رأسه وهو يشاهد صديقه يقلب الاوراق، انه يقرأ اسمه الان، يستغرق في قراءة بعض الاسطر ثم يقلب الصفحات، ويرفع رأسه الى حلمي:
ـ هذه قصص؟
ـ لا .. هذه رسائل.. كنت..
قال حلمي واكمل مبتسماً:
ـ كنت اكتب دائماً، ولا افكر في شيء محدد. في وقت ما رغبت في كتابة رسالة لك، فكتبت في هذا الدفتر، وبقيت اكتب.
قرأ عيدان باهتمام، ثم ابتسم ونظر الى صديقه، وعاود القراءة، وبدا لحلمي ان الدفتر قد استحوذ على اهتمام صديقه، فهاهو يغلقه ويضعه بسرعة مع باقي كتبه ودفاتره:
ـ سأقرأه بتمعن، دعه عندي لفترة.
لم يعترض حلمي، وبدا له ان هذه بداية جيدة لكي يتحدثا. سيقول له بأنه يحتاج اليه كصديق، يريد المشورة، واذا كان ممكناً فليجد له عملاً، بالتأكيد هو يعمل في وظيفة ما ، وإلا من اين جاء بثمن السجائر الاجنبية، ولماذا يبدو مسترخياً ولا يعاني من اية مشكلة، أنه منشرح الذهن، ويفكر في اشياء لا تشغل حلمي الان، يفكر في اشياء، تتطلب من الانسان ان

يكون بلا مشاكل حقيقية. لكن كلماته مع ذلك تدغدغ الهواجس القديمة لدى حلمي، انه يدعوه بطريقة ما ، لكي ينسى هذا العالم البائس، يتحرر قليلاً من المشاكل التي لا ولن تحل، يغريه لكي يرى ذاته في مرآة اخرى.
هل هناك فرص في هذا العالم الضيق؟ ربما. فكر حلمي، أثناء ما كان صديقه عيدان يقرأ له بعض القصائد:
(التنور ينام.
الالم بحجم الكوكب.
النساء مرضعات للحرب.
الدماء بطاقات هوية ممزقة .
التنور يخرج الدم.. للطوفان القادم.
الحرب تنفطم وتسير لوحدها.
النساء يدخلن دائرة التقاعد.
الكوكب يشوي نفسه جيداً..
على شمس قديمة.
ألمي يرضع من ثدي الحرب.
أختره جيداً.. واخرج منه ذاتاً جديدة)
يتوقف عيدان عن القراءة ويخبر صديقه بأنه اذا اراد ان يكتب مثل هذه القصائد الجيدة، فعليه ان يكتب دون تحفظ، وعليه ان يقرأ الشعر لكي يكتب الشعر، وانه الان ـ أي عيدان ـ شاعر معروف، لأنه ينشر في الصحف المحلية والمجلات العربية. قال ذلك ثم اخرج مجلة عربية واشار الى نص قصير في زاوية احدى الصفحات (هذه قصيدتي) قال ذلك، فتناول حلمي المجلة وبدأ يقرأ القصيدة، انها دموية. انتبه حلمي ان مفردات الدم والحرب والقنابل، تكثر في نصوص صديقه. اراد ان يسأله عن ذلك، لكنه لم يتحمس.
ولكن، لماذا يفترض عيدان ان صديقه يريد ان يصبح شاعراً ايضاً، هو لم يسأله بصورة مباشرة عن ذلك. أما حلمي فكان يفكر بصورة قديمة لهما اثناء دراستهما الاعدادية، انهما يتسليان بالكتابة، لا يريدان ان يصبحا من المشاهير، او بصورة ادق، لم يفكرا بذلك على انه هدف لهما. ولكن لا يبدو

ان عيدان يفكر بهذه الطريقة الان، ان لديه حماسة تكفي لتحويل كل السابلة في شارع الرشيد الى شعراء. احس حلمي بأن ما يبرر لقاءه مع صديقه قد تحدد ومنذ الان بالكتابة، فهما لم يتحدثا طوال جلستهما الخاصة بشيء اخر غير الكتابة، والنشر، والشعر، واورد عيدان أثناء حديثه اسماء كثيرة لشعراء ومبدعين أجانب وعراقيين، وقلب الكتب التي لديه ، ثم اعطى واحداً لحلمي.

ولكن ما هي المشكلة؟ هناك امر ما لا يثير حلمي كثيراً، انه يريد التسكع، ولا يريد الجلوس وقتاً طويلاً على تخت مقهى ضيقة ومنزوية ومعتمة. لقد هرب من الاماكن المغلقة، ويجب على صديقه ان يعرف ذلك لوحده!

قبل ان يخرجا، تقدم عيدان الى الرجل العجوز الذي ظل في جلسته نفسها لوقت طويل، صافح اليد المعروقة للرجل، ثم قدم له صديقه حلمي، فصافحه ايضاً، حد النظر الى عينيه، فشعر حلمي بالدماء تتدفق في صدغيه، تأخرت يد حلمي البيضاء في يد الرجل العجوز قليلاً، اثناء ماكان عيدان يتكلم معرفاً بصديقه.

ـ لا تمزق اي شيء،

تفاجأ حلمي حين سمع الرجل العجوز ينطق بهذه الكلمات، لقد كان منتبهاً اليه اذن وهو يمزق الصفحات. ترك يده، فسحبها حلمي وضغط عليها بصورة لا شعورية براحة يده الاخرى، واكمل الرجل العجوز جالساً وكأنه يكلم نفسه:

ـ كفانا.. كل شيء يمزقنا، علينا ان لا نمزق نحن ايضاً.

وضع الرجل العجوز ذراع النارجيلة في فمه، وظل ينظر بعينين مبللتين ناعستين الى الشابين الواقفين بجواره. وسرعان ما استأذن عيدان، وتبعه حلمي، ليصافحا اخيراً الهواء النقي خارج المقهى.

- 56 -

عليه ان يكتب دون تحفظ، عليه ان لا يمزق شيئاً بعد الان. قرأ في الليل وعلى فراشه فوق السطح بجوار افرشة اخوته

الصغار، الكتاب الذي اعاره اياه عيدان، هاهما يعودان الى اسلوب قديم. عيدان يعير الكتب لحلمي وحلمي يقراؤها. اذن، سيتحدثان في لقائهما اللاحق عن مضمون الكتاب، انه مجموعة قصائد مختارة لعدد من الشعراء العالميين. أستغرق حلمي بالقراءة، وحاول ان يتجاهل كل ما سواها، عطالته، ورغبته الحارقة في رؤية نود، احساسه بالعجز، ونظرات الاتهام التي يتلقاها من العائلة، العقوق الخفي، الذي يستشعرونه في لا مبالاته تجاههم، رغبته في ان يتمرد، وخشيته من عواقب ذلك.
(شكلك يوحي بأنك ستدخن)
ما الذي أوحى له بنبوءة كهذه؟ يفكر حلمي بكلمات صديقه، ويشعر بأن خيطاً من السذاجة والبراءة قد اختفى تماماً في صوت وحركات صديقه القديم، أنه يبدو اكثر نضجاً، وربما المأ. وطوال جلستهما الاخيرة، لم يتطرق كثيراً الى شؤونه الخاصة، لم يتعرف حلمي على شيء من يوميات صديقه، او ما حققه من أشياء طوال السنين الماضية، اخوه الطبيب، اين وصل به الحال، واهله؟ كان يبدو لحملي بصورة واضحة ان عيدان معني بعرض ذاته على انه شاعر فقط، وكل مشاعر شخصية اخرى، يجب ان لا يتاح لها ان تأخذ مداها.
هل يريد الصديق الشاعر، ان يتحول الى شاعر في عيني صديقه المسكين؟ هل يتحول الشاعر الى شاعر عن طريق ذلك؟ يفكر حلمي، ويتذكر الدم والقنابل التي انطلقت من قصيدة صديقه ظهر هذا اليوم في مقهى ام كلثوم. لماذا يبدو منشرحاً بينما قصائده مهولة؟ هل عانى كثيراً الى الدرجة التي تدفعه ليكتب كلمات بهذه البشاعة؟
تتكاثر الاسئلة في ذهن حلمي، وهو يقلب عينيه في كلمات القصائد المترجمة، فيجد بعضها بارداً، يتحدث عن الزهور والاحلام والشراشف البيضاء والنساء الخجلاوات، ثم يقلب الصفحة، فيقرأ عن السكاكين والاقدام المقطوعة والايدي المهروسة، وجماجم الالمان في الحرب العالمية الثانية. يتيه في دوامة الصور والكلمات المتضادة والمتعارضة، حتى يتعب،

ويداهمه ثقل النعاس فجأة، فيلقي الكتاب جانباً، ويرسل بصره الى الاعلى، الى النجوم شديدة اللمعان على الصفحة السوداء لليل أخريات الصيف.

- 57 -

(كل اللائي يعملن في المعامل قحاب، دهاليز ومخابئ مظلمة، الله العالم ماذا يصنعون بهن، ثم ليس هناك شيء بين، اللهم احفظنا، لا تنقص من احداهن رجل ولا يد، ولا يرتسم على وجهها)

يسمع حلمي كلام امه مع اخته سناء، ويعرف ان المقصودة بهذا الكلام هي نود. ولكن، هل لديه القدرة على العراك مع والدته في هذا الصباح، أن جسده يبدو متشنجاً ومهدوداً، وكأن ايام الارهاق في معمل الحلويات قد ظهرت فيه الان. ثم ما الذي ذكر والدته بنود؟ لقد كف عن الحديث بموضوعها منذ اليوم الذي ترك فيه المعمل، وخلال المدة الماضية لم ير نود ابداً، لم يتقصد رؤيتها. ربما امه تعرفها او تراها كل يوم ، لكنها على أية حال لم تعد نود، انها نادية الان، وآسفاه.. لقد اختفت نود تماماً.

يقف امام امه، وينظر اليها بعينين تنفثان لوماً وعتاباً ، ويخبرها بفتور انه خارج للسؤال عن جميل گيطان في بيته، فلا تجيبه. وقبل ان يخرج من الباب، تصيح عليه(هل ستعود للغداء؟) فيجيبها (لا اعرف).

* * *

(عليك ان تعرفي)، كيف ستعرف؟ هل تنتظره في رأس الزقاق مثلاً، وحين يأتي تستوقفه وتسأله؟ لربما لم يكن حقاً سوى طفل كبير، ما الذي ورطها معه الى هذا الحد، انها لا تتوقف عن التفكير به ،كانت تحتاج الى الحزم معه، لأنها احست انه لا يفكر في شيء ابعد من بقائه معها لحظات من الزمن، مع انه لم يتجرأ ابداً ليمس يدها، او يحاول الاقتراب من وجهها، وهذا ما يربكها. لم تكن لديه نوايا سيئة تجاهها، تشعر بذلك، لم يبد عليه انه يريد قضاء وقت لا اكثر، هل كان

عليها ان تتريث قليلاً؟ تذكرت ما قالته امها عن ابنة عمه وخطيبته، هل رضخ لرغبات اهله، ام ان كلامه عن كرهه لأبنة عمه كان مجرد كلام فارغ؟ لا تملك اجابة على اي سؤال لأنه ترك المعمل فجأة واختفى.

مساءً، وبعد ان نزعت ملابس العمل، وارتدت نفنوفاً صيفياً خفيفاً، قالت لها أمها أنها شاهدت حلمي ظهر هذا اليوم حين كانت تشتري الملح من دكان ابي ناجي، كان يرتدي ملابس انيقة ويتجه الى بداية الزقاق.

ضرب قلب ندى بشدة:

ـ ألم يبدو عليه شيء.. ألم يكن مريضاً؟

سألت ندى فأجابتها امها مستغربة:

ـ شدراني اني .. چان يلمع بالشمس چنه بيضه مسلوگة.

أه، شعرت بوخزة في فؤادها، انه جميل مثل ملاك، ورقيق مثل قميص صيفي. لم يكن اول شخص يتحدث اليها، لكنها لا تستطيع نسيان صورته. ستحاول ان تلهي نفسها عنه، فمازالت على البر كما يقال، ولم يحدث لها شيء معه، هل هذا صحيح؟ تنصت لأغنية فيروزية على الافطار، فينتابها شعور غريب، انها تنصت بأمعان، وكأنها فتاة صغيرة، تحزن، وهي تعلق حقيبتها على كتفها، وتحزن اكثر حين تخطو على اسفلت الزقاق، تضطرب احشاؤها حين تمر من امام باب بيته، ويكون هذا ديدنها كل صباح ومساء، تسترق النظر وهي تقف على الرصيف، فلربما انبثق بجوارها فجأة، ثم تركب وتمسح ببصرها اثناء سير السيارة الرصيف باحثة عن وجهه بين عشرات الملامح الكامدة والمتغضنة، ولكن دون امل.

- 58 -

[حياتي

سجادة اشجار ..

لا شيء تحتها.

مرحلة من الطيور

في دورة حياة السماء

أنا نقي بكثرة
تشوه النقاء،
نقي مثل ابرة الردهات
بعد منتصف الليل
تدخل في الصراخ
وتخرج ساكنة.
كل غرزة فيَّ
تدمي حياتي
التي أجهلها]
(كوان شين طاو)

- 59 -
يستل عيدان سيجارة طويلة ونحيفة ذات لون داكن ويقدمها لصديقه، فيأخذها حلمي، يتحمس عيدان فيوقدها من قداحته مبتهجاً، ويسحب حلمي نفساً من السيجارة الغريبة، ثم يندفع بسعال قوي وتدمع عيناه، فيضحك عيدان وهو يلتقم سيجارة مشابهة ويوقدها بزهو، ثم يري صديقه الطريقة المثلى في دفع الدخان الى الخارج:
ـ أنها سيجارة نسائية.. هكذا يقولون.. ولكني احبها.
يقول عيدان ذلك، ويسلمه حلمي قصيدته الجديدة. يقرأ عيدان بأهتمام، ويشعر وهو يحرك عينيه فوق الكلمات، ان صديقه قد تأثر سريعاً بنصوص الكتاب الذي اعاره اياه، لكن، هناك شيء خاص، نبرة حزن تشبه ملامح صديقه الجالس بجواره. دفع عيدان القصيدة الى رسول الكاتب الذي كان على تخت مجاور، فقرأها الرجل العجوز، وأبدى ملاحظات لم يفهمها حلمي تماماً، على العكس من عيدان الذي شرع في النقاش مع رسول الكاتب، فتطرقا الى مواضيع تتعلق بالشعر، ثم لم يلبث أن قام من مكانه ودعا حلمي الى ذلك ايضاً، ليجلسا بجوار الرجل العجوز.
ـ الشعر يحتاج الى حياة بأكملها.
قال الرجل العجوز، ثم أكمل وهو يقرقر من نرجيلته:

ـ عليك ان تنفق حياة كاملة بكل تفاصيلها، من اجل عشرة ابيات جيدة في النهاية. هذه الورقة مثلاً..
رفع العجوز قصيدة حلمي بيده :
ـ .. هي مجرد تمرين لكتابة الشعر، كل قصائد الشاعر هي تمارين من اجل قصيدة لن يكتبها في النهاية.
النهاية
النهاية
النهاية
أنه يفكر بالبداية، انه يريد بداية
بداية
بداية
بداية، لماذا عليه ان يفكر في النهاية دائماً؟ لا يريد ان يتذكر النهايات، يريد بدايات
بدايات
بدايات
بدايات
ـ لماذا تريد ان تصبح شاعراً يا صديقي؟
تفاجأ حلمي بسؤال الرجل العجوز المباغت، الذي قطع عليه استغراقه مع نفسه، لأنه حسب ان كل الكلام الذي ادلى به كان موجهاً الى عيدان.
ـ أنا..
قال حلمي ثم حرك يديه وأكمل بوجه فارغ:
ـ لا اعرف تماماً.. ولكن لدي رغبة لقول شيء..
صمت حلمي لثوان ثم سأل بقلق:
ـ هل القصيدة سيئة؟
سحب رسول الكاتب نفسها عميقاً من ذراع نارجيلته، وبدا وكأنه لم يسمع سؤال حلمي، نفث الدخان الابيض أمامه على مهل ثم قال:
ـ ليس الموضوع في النهاية، هل القصيدة جيدة ام سيئة، بل، هل كتبتها انت أم كتبها الوجود من خلالك. اذا كتبتها انت،

فهذا يعني انك تسمي فقط لحظتك الحاضرة، اما اذا كتبها الوجود من خلالك، فهذا يعني أنك تقتنص لحظة قادمة.
لحظة قادمة.. حلق حلمي مع هذه الكلمات السحرية، دخلت اليه كجرثومة غريبة، كتب في الليل قصيدة تقصد ان لا يدخل نفسه او نود فيها، وفي الصباح قرأها، فلعلها ذكرت شيئاً عما سيؤول اليه في اللحظة القادمة.
كتب قصائد اخرى، وايقن انه سينشغل بذلك لوقت طويل. بدأ يفكر في اللحظة القادمة، لم تعد تشغله لحظته الحاضرة، يسمع صوت الاب عند باب البيت قبل خروجه صباحاً، ويرى جدته قسمة تبكي دون دموع وهي تثرد الخبز بصحن مليء بالحليب غير المحلى، يرى عبر السطح نادية وهي تنشر الملابس، تنظر اليه بعينين جامدتين، ثم تترك وعاء الملابس البلاستيكي وتنزل دون ان تكلمه، تاركة اياه داخل هاجس يتنامى ويتجاوز وجودها او وجوده في تلك اللحظة، فهو يتحرك بأتجاه لحظة قادمة. وأستمر رسول الكاتب يخبره بأن قصائده تمارين:
ـ هذه تمارين يا عزيزي، لم تصل الى قصيدتك بعد!
ولكنه أحس بالاعياء سريعاً، وفي لحظة نفدت الكلمات التي لديه، ولم تعد لديه قدرة على كتابة اي شيء، فاكتفى بالانصات الى عيدان وهو يقرأ قصائده الجديدة(هل ستنشرها؟ هل ستطبع كتاباً؟ وماذا بعد ذلك؟ ألم يقل رسول الكاتب أن علينا ان نفكر بالنهايات؟ اريد الخلاصة، النهاية)
(التنور ينام.
الالم بحجم الكوكب.
النساء مرضعات للحرب.
السماء سجادة مقلوبة في المرأة
السرفات تنزع اسفلت ايامنا
البارود يبخر سراديب الموتى.)
ـ أنا اعتقد اننا نكتب بطريقة او بأخرى سيرنا الذاتية، نكتب ما نريد ان لا يموت منا.
ـ من أين سمعت هذا الكلام؟
ـ رسول الكاتب قال ذلك.

- 60 -

هبطت الامطار فجأة عند المغيب، كانت الغيوم تتكدس منذ يومين، ولكن احداً لم يتوقع أن الرياح ستبطئ من سيرها، لتنزل السماء نعمتها على المدينة. أستمرت الامطار الى ما بعد منتصف الليل، ونام الكثيرون وهم يسمعون الوقع المتسارع لحبات المطر الكبيرة. تأفف غانم حين انقطع التيار الكهربائي، ونظر الى ابنه محمد الجالس وراء المدفئة، ثم قال له : غداً لن نخرج، سنجد الطابوق مشبعاً بالماء.

نزلت المياه الى غرفة الجدة قسمة من اسفل الباب، ولم يسمع احد صوتها وهي تستغيث، ولما لم تجد اذناً صاغية، قامت وسحبت جسدها الذاوي وبدأت تدفع الخرق في فتحة الباب السفلية. ابنها سالم يحتضن الراديو الكبير ويستمع الى الاخبار، يحرك الموجات على أذاعات مختلفة ثم يثبتها على اذاعة (صوت الجماهير) ويستمع الى نشرة الاخبار، بينما توزع الاطفال الصغار حول المدفأة ونام بعضهم، وهناك في غرفة أغراض العائلة، وامام موقد نفطي صغير، جلس حلمي يقرأ قصائد صديقه عيدان، كان قد اعطاه دفتراً سميكاً، وقال له انها مجموعته الاولى.

مضى وقت غير معلوم وحلمي يقرب قدميه من الموقد، ويقلب صفحات الدفتر، وها هو يأتي عليه، أغلق الدفتر، وتأمل اللوحة الغريبة التي رسمها عيدان بنفسه كغلاف للمجموعة، أطرق مفكراً، وأسترجع مع نفسه اشياء بعيدة، بدت الان وكأنها اشارات اولى لما آل اليه عيدان. كان منذ البداية يعرف ماذا يريد، لكن حلمي لم يفكر بذلك بوضوح، كان يساوره الشك دائماً في صورته المستقبلية.

سأله عصر هذا اليوم، والغيوم فوقهما تغلف الشوارع بجو من القتامة المبكرة:

ـ هل قرأت الدفتر الذي اعطيتك اياه؟

ـ دفتر الرياضيات؟

ـ نعم.

أجاب حلمي وبقي ينظر الى وجه صديقه شديد السمرة.
ـ أنها مذكرات، عرفت ذلك.
سارا بجوار حائط اكاديمية الفنون، وارعدت السماء وهما يعبران الشارع الى المقبرة الانكليزية. نظرا بلا مبالاة كما هو شأن كل احد، الى الشواهد الاسمنتية المصفوفة بجوار بعضها بانتظام، وتذكر حلمي خاطراً قديماً مر في ذهنه حين رأى هذه المقبرة أول مرة؛ هل تضم هذه المقبرة كل رفات الجنود الانكليز الذين قتلوا أبان غزوهم للعراق؟ أم أنها مقبرة رمزية لا اكثر؟
ـ هؤلاء اجدادك.
قال عيدان بنظرة تآمر، قطعت على حلمي استغراقه القصير.
ـ ما الذي تقصده؟
ضحك عيدان وثرثر باشياء اخرى، افصحت عن ارتباكه، ثم استل وهما ينعطفان من امام معهد الادارة سيجارة نسائية قاتمة اللون واوقدها على عجل.
مر فوج من الطالبات بجوارهما، فحد عيدان النظر اليهن، ووجد صديقه حلمي يبتسم، ذكره بالفتيات اللائي احبهن ، لكن عيدان لم يعلق بشيء، ذكره بصورة الفتاة في دائرة الجنسية والاحوال المدنية، وبحبيباته اللائي يرسمهن ثم يبحث عنهن، لكن صمت عيدان استمر، وتشاغل بالسيجارة التي بين اصابعه حتى أتى عليها، فقذفها مثل شيء تافه الى بركة ماء اسفل الرصيف.
ـ لا تشغل نفسك بالنساء أنهن تافهات.
ـ كيف؟
ـ كل خراب في الرجل مصدره النساء.
حاول حلمي أن يستوضح أكثر، لكن كلمات صديقه بدت مختزلة ومتحفظة، وكأنه لا يريد ان يدخلا هذا الموضوع، فصمت حلمي، ووجد يد صديقه تمتد اليه بسيجارة ، فأخذها وظلت في يده دون أن يوقدها حتى وقفا في وسط الگراج.

في الوقت الذي كان فيه حلمي يقرأ قصائد صديقه على ضوء الفانوس، كان عيدان هناك في غرفة من احد بيوت الاورفلي، يعيد وعلى ضوء الفانوس ايضاً، قراءة كلمات صديقه النحيفة والدقيقة كأنها براشيم أمتحانات، يدقق النظر في الكلمات على الضوء الضعيف، ويفكر منزعجاً، انه نفسه، لم يتغير، وكأنه غاب طوال السنين الماضية في سرداب، ثم خرج فجأة ليلتقيه ضحى ذلك اليوم في شارع المتنبي. وجهه المورد الناحل وشعر لحيته المفرق والاشقر، عيناه الزرقاوان مثل سماء شتائية مشمسة، لم يتغير فيه شيء من ذلك.

أنه لا يريد التذكر، فلماذا يظهر أمامه، لقد نسي تماماً صورته القديمة، أو انها - دون ان يأخذ رأيه احد - أخذت منه والى الابد.

ما الذي يكتبه هنا؟ ولماذا يوجه الكلام اليه بالذات؟

".. كنت منشغلاً بها على الدوام، تخطر في الممرات واسمع ضحكتها، أنتظر في النهار الساعة التي تأتي فيها إلي، واوهم نفسي بأن الكلمات القليلة التي أتداولها معها بأنجليزية ركيكة، قد اوصلتني أو قربتني اليها. كان مسافر يراقب ما يحدث بعينين ذئبيتين، وكمن ينتهي من مشاهدة فلم قصير، يتركها حتى تغادر فيبدأ بالتعليق والسخرية. ثم حدث ذات ليلة ما لم اكن انتظره. كنت نائماً ، أو انني شرعت بذلك للتو، اطفأت اضواء الغرفة، وكان مسافر قد نام قبلي اثناء ما كنت اقرأ في الجريدة. دسست نفسي في الفراش، وبعد دقائق سمعت صوت الباب وهو يفتح علينا بهدوء، فأنقلبت بجسد متراخ. ضرب قلبي حين لمحت شبحاً يتسحب الى الداخل، وعرفت في الحال انه لأمرأة. أقتربت ودون أية مقدمات أعتلت السرير، وتمددت فوقي صامتة، أنعقد لساني، وأرتجف بدني لرعب وعذوبة ثقلها الدافئ."

قلب الورقة بسرعة..

".. أنتهى كل شيء على عجل، وبهدوء. كنت قد تلفظت بكلمات كثيرة لم اعلم ما هي وانا راقد تحتها، بينما قلبي يضرب بسخونة، لكنها لم تجبني أبداً، ثم سرعان ما لملمت

نفسها مني وخرجت دون أن اتمكن من معرفتها. ولكني عرفتها يا عيدان، لم أكن أحتاج لرؤيتها، رائحتها كانت كافية لكي اعرفها، أنها نود، نود.

- 62 -

لقد رآها هذه الليلة ايضاً. كان يوصل ابن عمه محمد الى باب الحوش، الذي جاء ليقترح عليه أن يخرج معه صباح الغد كعامل بناء، فهذا افضل من جلوسه هكذا دون عمل.

ـ اصبح الجو بارداً، أخشى أن احرجك أذا تعبت بسرعة؟

ـ عندها خذ استراحة مني، فأنا الخلفة.

وقف عند الباب، وبقي يتابعه حتى دخل الى البيت المجاور، ثم تحول ببصره نحو بداية الزقاق، من المؤكد أن سناء وراء الموضوع. ولكن، لماذا لم يسأله عن نادية؟ لم يبد عليه الاكتراث للغط الدائر في البيتين حول ذلك.

سحب شهيقاً بارداً، ولمح عدة اشباح تخطر على الضوء الشحيح في بداية الزقاق، مرت في خاطره صورة ندى، كان قد رآها قبل يومين من الرصيف المقابل وهي تنزل من السيارة وتتجه مسرعة الى زقاق السادة. هم بأغلاق الباب، فخطف من امامه شبح تكشفت ملامحه لثوان على وهج الضوء المنبعث من الحوش. احس بوخزة في فؤاده واغلق الباب بهدوء.

هل شاهدته؟ ما الذي ستفكر به الان؟

بعد منتصف الليل، همد الجميع إلا هو، فتح دفتراً كان قد جمع فيه ـ بناءً على الحاح صديقه عيدان ـ عدة قصائد كتبها في الاونة الاخيرة، وهي مع بضع قصائد اخرى ستغدو مجموعته الشعرية الاولى، قلب عينيه فوق الكلمات الانيقة دون اهتمام، وهاجس واحد يلح عليه، لماذا لم يستوقفها، ستضيع منه الى الابد. سيكون وحده الخاسرالكبير، لأنه لن يستطيع النسيان، وهي بلا ذاكرة، الم تقل له ذلك سابقاً، أم أنه يتخيل؟

أمسك بالدفتر وشطره الى نصفين، ثم مزق الاوراق واحدة تلو الاخرى، وكان كلما نظر في قصاصة، وشاهد فيها جملة

كاملة، عمد الى تمزيقها أجزاءً اصغر. شعر براحة سوداء لأنه يقوم بعمل رجولي مهم! التمزيق. وتناسى مكرهاً تحذيرات رسول الكاتب: " لا تمزق انت شيئاً.. دع التاريخ لوحده يختار ما سيمزقه".
هاهو التاريخ من خلال حلمي يمزق ما يريد.. أليس كذلك؟
دس يده في جيب سترته، واخرج سيجارة نسائية نحيفة، أوقدها من المدفأة وبدأ يدخن، مقلداً اسلوب عيدان في نفث الدخان، وقبل ان تنتهي السيجارة، كان هاجس يكرر نفسه قد استولى عليه وهو في عزلته. سيفقدها، لقد فقدها، سيفقدها، لقد فقدها. أخرج اوراقاً سمراء مثل بشرة نود، وبدأ يسجل بقلم جاف احمر مثل لون شفتيها، الكلمات التي تطرق في رأسه، هاهو يعود بذلك الى ديدنه القديم، أنه يكتب للتخلص من شيء، يكتب للتخلص من الكلمات التي تثقله ربما، أو لاجل شيء لا علاقة له بالكتابة.
مع اقتراب الفجر، كان قد دخن كثيراً، متجاهلاً أن يكتشف أحد ما من العائلة ذلك حين يدخلون عليه ويتشممون الرائحة الغريبة. كان النعاس قد شوش عليه حواسه، فبدأ يسمع اصواتاً وطنيناً ويرى اطيافاً ترتسم على الحائط ثم تختفي. جمع الاوراق التي سودها طوال الليل، واحس بأنه قد تخلص من ألمه، لقد دلق كل شيء في هذه الاوراق، وكان قد اكتشف بعد السطر السادس أنه يكتب فيما يشبه القصة. عليه الان أن يتخلص من هذه الاوراق، يتخلص من ذاكرته، حتى يستطيع الاخلاد الى النسيان. وضعها بجوار فراشه ونهظ بجسد مترنح، هاماً بالذهاب الى المرافق. وحين مر من أمام المرآة البيضوية ذات الاطار الخزفي، توقف للحظات وتأمل وجهه. احس بأنه يرى شخصاً غريباً وليس هو. ربما هو جده كشاش كما تقول جدته قسمة، أو جد جده مسروط، هل يبادر بالتحية على جده الذي لم يره سابقاً، أم ينتظر أشارة منه؟ أقترب من المرآة اكثر حتى كاد أنفه يلامسها، حدق ملياً، فبرزت عيناه وانعقد حاجباه. كان يرى بوضوح لا مراء فيه، كيف تلطخ وجهه ورقبته بطبعات أختام على شكل شفاه نسائية حمراء.

- 63 -
كان القنوط يغلف رسول الكاتب بمعطفه الاسود المتهرئ وبدا وجهه متهدلاً أكثر من أي وقت أخر، ويكشف عن تعب عميق. أنقطعت ابخرة شايه على المنضدة أمامه منذ زمن لكنه لم يرتشف منه شيئاً، لم يتكلم كثيراً مع الشباب الذين يحيطونه كثيراً، ولم يقلب كعادته كتاباً ما أو نصاً جديداً كتبه أحد مريديه. سأل حلمي عيدان عما جرى للاستاذ ، فأجاب وهما ينعزلان بصوت الغرامافون العالي:

ـ الاستاذ رسول طلق أمرأته، لقد تبرأ منه اولاده ايضاً، هكذا يقول.

" أنهم جيل غير حداثي، عرفت ذلك حين عدت الى مدينتي في العيد، لقد وجدت ابني الكبير يعتمر العقال والكوفية. أنا الذي اسمه انا، لم البس العقال يوماً، فأجد ولدي البكر الذي سيتخرج من الجامعة قريباً، يجول في الهوسات والعركات والطلايب"

ـ لقد عملت زوجته فضيحة كبرى، حين كرر عليها أمر بيع البيت والانتقال الى بغداد، ثم اتهمته بأنه لم يكترث لهم في يوم من الايام. وأنه تركهم مثل اليتامى.

تأمل حلمي سحنة الرجل العجوز، ورغب لو يسأله ، أين ينام الان؟ وما هو عمله؟ أحس بالاشفاق تجاهه، والحسد، في أن واحد، لأن لديه ألماً ظاهراً على الاقل. لفحته غيمة دخان نفثها عيدان ، فحرك يده امام وجهه بأنزعاج، وكأنما يريد ان يطرد مع الدخان الهاجس السيئ الذي اعتراه تجاه هذا الرجل المسكين. ثم تذكر شيئاً. مال الى سجل منزوع الاوراق يحمله عادة معه، واخرج منه حزمة اوراق سمراء مربوطة بمشبك نسائي، واعطاها لعيدان.

ـ (ملاك وحيد).. ما هذه .. قصة؟

سأل عيدان وهو يقرأ في الاسطر الحمراء ، ثم ألتفت الى رسول الكاتب فوجده يرتشف من شايه البارد، وينظر اليهما، ثم يدخل يده في جيب معطفه بأرتخاء ليخرج علبة سجائره، أوقد واحدة، ثم غرق ثانية مع قنوطه.

ـ سأعطيها له، انا سأقرأها فيما بعد، سيخرجه هذا من حزنه.
قال عيدان ذلك، وهو يجعد وجهه برجاء، ولم ينتظر جواب حلمي ، فقرب نفسه من المنضدة وعرض الاوراق امام رسول الكاتب. أخذ الرجل العجوز الاوراق، تأملها وقلب عدة صفحات دون أهتمام، ثم نظر الى حلمي بعينين لامعتين. وقال وهو يدفع الاوراق في حقيبته،أنه لا يستطيع قراءتها هنا. سيقرأها في الغرفة حين يعود. ويعطيه رأيه.
في اليوم التالي، كانت الامطار تزخ بنعومة، ولكنها اغرقت الشوارع منذ الصباح الباكر، تردد حلمي في الخروج، لكن عتاب أمه الذي سمعه على الافطار لأنه لم يخرج مع ابن عمه الى العمل كما اتفقا، اشعره بضيق شديد، أراد اسكاتها، لكنها ما ان تشرع في اتهامه فأنها لن تتوقف. لبس ملابسه على عجل وحمل السجل المنزوع الاوراق وخرج. وصل الى مقهى ام كلثوم وقد غسلته الامطار الناعمة من قمة رأسه حتى قدميه.
كان حلمي يتوقع رأي رسول الكاتب بقصته، لكنه تفاجأ من نبرته الغريبة والحادة :
ـ أنها قصة سخيفة، خيالية جداً ورومانسية.
تلفظ الرجل العجوز بهذه الكلمات، وعيناه جامدتان، ثم وكأنه أحس بالصدمة التي ارتسمت على وجه حلمي أكمل مخففاً من حدة نبرته:
ـ بأمكانك أن تجعلها واقعية أكثر، لو غيرت نهايتها على الاقل.
وشرع يشرح له، الفرق بين الرومانسية والواقعية، ويستطرد في ذكر الامثلة والشواهد:
ـ أننا ،ككتاب، لا نصور الالم كما هو، اننا نعيد تشكيله بما يتيح افقاً لما هو ابعد منه، هذه هي الواقعية. لأن الواقع الذي نحمل صورة عنه، يحوي في الحقيقة هذا الافق، قد يكون افقاً لا عقلانيا، او خارج حدود التنبؤ، قد لا نستطيع امتلاكه في النهاية، ولكنه موجود، يستمد طاقته من مخيلة الانسان. على الالم الذي يتجسد في الكتابة أن يكون لا شخصياً، عليه أن يكون ممزوجاً بالمخيلة، كما هو في الواقع.

أخـذ عيـدان الاوراق مـن يـد رسـول الكاتـب وظـل يقلبهـا مستثاراً. يرفع عيناً الى الرجل العجوز وعين اخرى تتابع الاسطر الحمراء. فـي النهايـة توقـف المطـر فـي الخـارج، وصمت العجوز. أخذ عيدان قصة صديقه، على أمل أن يقرأها بأمعان، لكنه لم يعدها إليه بعد ذلك ابداً. ولم يزعج ذلك حلمـي، لأنـه كـان مؤمنـاً كل الايمـان بكلام رسول الكاتـب، أنهـا قصـة سخيفة، قصته السخيفة، وقد تخلص منها اخيراً. رغم ذلك هو لا يريد ان يمتثل للرؤيـة التـي طرحهـا الرجل العجوز، لأنـه لا يرى فائدة في الكتابة سوى انها تخلصه من الكلام.

- 63 -

خرج مع أبن عمه محمد كعامل بنـاء، كلفه بأعمـال بسيطة فـي البدايـة، يرصـف الطـابوق بشـكل متقـاطع ويهيئهـا للعمـال الاخـرين الـذي يحملونهـا علـى ظهـورهم المغطـاة بأكيـاس مـن الجنفاص. يدير بالمجرفة خبطـة الاسمنت والرمـل والحصـى، ويجهد نفسـه لأتمـام عملـه بشكل لائـق، لكـن العمـال الاخـرين أبـدوا أمتعـاظهم، وتلاحقـت عليـه أوامـرهم، بينمـا أبـن عمـه منشغل عنه بالبناء وهو على درابه داخل احدى الغرف.

قبل ان ينتهـي محمـد مـن عقد السقف، كـان الاعيـاء قد تملـك حلمي. وفي الحقيقة، الضجر، والاختناق. الشمس التـي تناوبـت في الظهور والاحتجاب خلف نتف الغيوم طوال النهار، تعبـت هي ايضاً، وبدأت تهبط بخمول نحو الغرب. دعك حلمـي يديـه من الاسمنت، ثم شاهد العمال الاخرين وابن عمه وهم يغسلـون بالماء البارد وجوههم وارجلهم، فأقشعر بدنـه، لكنـه غسل يديـه ووجهـه مرغمـاً، فهـو لا يريـد ان يـراه احـد فـي المنطقـة بهـذا المظهر المبهذل.

فـي اليـوم التـالي، خـرج للبنـاء ايضـاً، لكـن أبـن عمـه بـدا وكأنـه نسي وعده الذي قطعه لـه، فهـا هـو يحمـل طاسـة اسمنت ثقيلـة، ويسير بحـذر علـى دراب متمـاوج. يعطيهـا لعامـل يركـب علـى الحـائط مثـل فـارس، يأخـذها منـه وينشـر مـا بهـا سـريعاً علـى الطـابوق العـاري امـام الخلفـة ثـم يرميهـا مقلوبـة الـى الارض. أجهدتـه هـذه الحركـة التـي لا تهـدأ، وقضـي جـزءاً كبيـراً مـن

النهار يتسلم أوامره من عامل يلف رأسه بفوطة مرقطة، عرف في اليوم الاول أنه مساعد الخلفة.
في الليل نام مثل جثة، وشعر وهو يغالب اغفاءة ثقيلة، أنه يعاني خللاً في الذاكرة. كأن اليومين الماضيين سنتان طويلتان.
استلقى على بطنه، وتأوه أهةً عميقة، وحانت من عينيه شبه المغمضتين نظرة الى سجل اوراقه. فتذكر عيدان، وأحس أن لقاءهما الاخير غدا بعيداً ومشوشاً:
ـ كانت سهرة جميلة.. تمنيتك معنا.
أنه يسهر الان في مكان ما، ما الذي يفعله في هذه السهرات؟ هل يقرأ القصائد؟ أم يغني.
تدخل موسيقى التلفزيون البعيدة الى اذنيه. ثم تضعف وتتقطع. الى أن تصمت نهائياً.

- 64 -

كان الجو مشمساً، والسماء لا تشوبها أية نتفة بيضاء. هز محمد يده بأسف، وغادر بيت عمه سالم. صاحت الام ثانية على حلمي، لكنه رفض النهوظ. سمع رشيش ماء على ارضية الحوش، وأغانٍ فيروزية، ثم تمثيلية اذاعية، ثم دخل البخور الى انفه، رفع بصره وشاهد جدته قسمة بجواره، سمعها تتكلم، وحين رفع عينيه ثانيةً وجدها قد اختفت.
عند الظهيرة، عاد أبوه من اجل الغداء، صلى الظهر في (المشراگة) وحلق لحيته على مسند الدرج الحجري:
ـ باچر وزينهه؟
ـ باچر أخذ اجازة علمود نروح للزيارة الجمعة. اريد أكلف احد يصلح قبر ابوي.
يغمض حلمي عينيه حين يطل الاب برأسه في مستطيل الباب، وحين تنسحب الظلال من عينيه يفتحهما، فيجد ابوه قد غادر. يحتظن الوسادة، ويسمع صوت باب الحوش يصفق بعنف.
ذهب ظهراً الى مقهى ام كلثوم، ولم يجد عيدان او رسول الكاتب. قال له عامل المقهى، ان عيدان كان جالساً من

الضحى في المقهى يكتب، وقد غادر منذ ساعة. أما الاستاذ رسول فلم يأت الى المقهى منذ ثلاثة ايام.

- 65 -

لم يذهب معهم الى الزيارة، تحجج بأنه مرهق، لكن ضوضاءهم ايقضته من الصباح الباكر. ظل يتابعهم وهم يتخطرون أمامه. يفتحون الدواليب ويغلقونها، وتصيح الام على سناء كي تحمل طفلها الزاحف على الارض. أرتدى الاب العقال والكوفية، ورمى عباءته على كتفه. وحين خرج حلمي من الغرفة الى التواليت، شاهد جدته قسمة وقد لفت عمامتها المچرغدة ، والتي لا ترتديها الا في المناسبات، واخرجت عباءتها السوداء (السيرة) من ديلاب أغراضها السرية، ولم يلحظ أحد تلك الثقوب الصغيرة التي عملتها الصراصير او الفئران في اطراف العباءة الا بعد ان ارتدتها. شاهد ايضاً نادية واقفة مع امها تنتظران في وسط الحوش، وضياء الفجر يبدد العتمة في السماء الصافية، كانت منتصبة القامة، بملامح مستوحشة، وكأنها ذاهبة في دفن ميت. بقيت تراقبه وهو يتثاءب ويدعك رأسه ناظراً الى سرب من الطيور مرقت بأتجاه الشرق. جلس أخيراً على الدرجات الاولى من السلم الحجري مستسلماً لبقايا نعاسه يراقب العائلة وهي تحزم امرها. سيبيتون ليلة في النجف ثم يعودون نهار الجمعة.
أراد ان يعود الى النوم، لكن غرائزه الباطنة منعته من ذلك. بيت خال، ونباح متقطع يأتي من السطح. ارتقى بدشداشته الدرج الى السطح، ونظر الى حِيوان، كان متبلداً يلعق في وعاء مليء بمطر الايام السابقة. تجول حلمي في السطح وراقب اسراب طيور حمراء مبكرة تشرع في الطيران من بعض البيتونات المرتفعة، دعك رقبته من البرودة اللاسعة، وأنحنى برأسه متأملاً الزقاق، فتيات بصداري زرقاء يخرجن من بعض البيوت ويتجهن الى الشارع، طلبة باللونين الابيض والرصاصي يحملون لفكسات ويتخطرون بمشية وئيدة على اسفلت الزقاق. أطفال مشعثي الوجوه نهظوا من النوم سريعاً

ليشتروا من دكان ابي ناجي، أمرأة بعباءة تجلس عن ركن حسينية الامام علي تبيع جبن العرب والقيمر، تجلس بجوارها بين حين واخر نساء نعسات يشترين الافطار منها ويرحلن. صوت كاظم الساهر مع اول ساعة من النهار يأتي من مسجلة في بيت أبي كاظم. ندى تخرج بخطوات متعجلة من بيتها وتمر من ركن دكان ابي ناجي، ثم تخطر ساهمة أو مثقلة البال من امام بيت أبي حلمي، يشاهدها من اعلى ويرتجف لهبة هواء صقيع.

فكر في شيء يسكت غرائزه الباطنة، دعك ما بين فخذيه أثر حكة مفاجئة ثم خطر له شيء، تكأكأ برأسه المشعث على حوش بيت عمه غانم، فشاهد أخته سناء وهي تخرج من غرفة المعيشة بأبريق ماء ساخن، انها تعد الافطار لأولادها الذين في المدارس. لم ير اي طيف لمحمد، فهو في العادة يخرج بعد صلاة الفجر الى عمله.

ـ أتريد اسويلك ريوگ؟

صاحت سناء وهي ترفع رأسها الى وجه اخيها الساهم، فحرك رأسه بالرفض. ارجع جسده الى الخلف ثم نزل من درجات السلم بسرعة كما هي عادته، وراودته اثناء ذلك ذكرى قديمة، حين سقط من السلم أول مرة وانشجت جبهته. وقتها أجمع الكل على لوم الصغير، وأحتاطوا قدر الامكان لمنعه من الصعود ثانية. ولم يدرك سوى متأخراً، أيام دراسته الابتدائية، ان الجاذبية هي من تسبب السقوط ، لا الصعود. وإلا لماذا يسقط السندباد وعلاء الدين وعلي بابا في الحفرة!

أرتدى ملابسه على عجل، وأنحنى ليرفع سجله المنزوع الاوراق، وقلب ما فيه. كان قد فكر بشيء ليلة البارحة. وعزم على القيام به هذا اليوم. هل هو كاتب سيء، أم انه شخص سيء؟ خطته الصغيرة ستقربه من الجواب على هذا السؤال.

لكنه إنشغل فجأة بهاجس جديد أنبثق في ذهنه حين كان يراقب الزقاق من على السطح. صفق الباب، ثم اغلقه بالمفتاح الذي وضعته امه على التلفزيون، دفع باب بيت عمه غانم، وشاهد سناء تكنس الحوش، أعطاها المفتاح وأخبرها بأنه ربما لن

يعود على الغداء. أخرج من جيب سترته النقود التي كسبها من عمله المضني في العمالة، وقلبها اثناء سيره في الزقاق محصياً ما صرفه منها. اشترى سيجارتين من بسطية ناجية. ولمح بطرفة عين من فرجة الباب أختها فضيلة تجلس على تختة واطئة وتوليه ظهرها الممتلئ فتدفقت غرائزة الباطنة لمرأى عجيزتها المشدودة بثوبها المنزلي وهي تتماوج مع دعكها للملابس في الطست.

أحس وهو يقترب من الشارع انه تخلص من حكايته.

(عليك ان تغير النهاية ربما ، كي تكون قصتك أكثر واقعية) تذكر كلام الرجل العجوز، وهو يسحب انفاساً بطيئة من سيجارته، منتظراً قدوم سيارة من البعيد لتنقله الى حيث لا يدري. (عليك ان تغير النهاية). حركه شعور مبهم ليلتفت الى الوراء، فألتفت، وطرفت عيناه عدة مرات ثم ثبتتا لمرأى ندى وهي تتقدم بمشيتها المألوفة، مقتربة من الحشد الواقف بأنتظار السيارات. ها هي تقترب نحوه، ترفع رأسها، دافعة خصل الشعر الفاحم خلف اذنها، فترتجف شفتها السفلى لمرآه. تقترب حتى تقف على بعد خطوتين منه. تكسر بصرها، على غير عادتها، ثم تنظر الى وجهه وتقول بعد تردد:

ـ صباح الخير.

في تلك اللحظة أحس بفائدة الافطار، أنه يحتاج الان الى طاقة هائلة كي يبدو طبيعياً امامها. رد عليها ثم أبتسم ابتسامة سرعان ما ذوت. صمت قليلاً ناظراً الى وجوه السابلة، ثم سألها عن حالها، فأجابته بجواب نموذجي: " زينة". تابعا حوارهما المتقطع والعمومي دون ان ينظرا كثيراً في وجهي بعضهما او يقتربا مسافة اكثر. وسادت بين كلماتهما القليلة فترات صمت، وبديا اشبه بمن يمثل دوراً في تمثيلية، أنتجت خصيصاً لتعريف سكان الكواكب الاخرى بالحوار النمطي والعام بين الاجناس البشرية.

أمتلأت سيارة اوتومارس بالركاب وتحركت، ثم قدمت سيارة اخرى تراكض بأتجاهها الاشخاص الواقفون على

الرصيف، وسرعان ما أمتلأت ايضاً، لكن ندى لم تركب. نظر حلمي في ساعته وقال:
ـ ستتأخرين عن الدوام؟
فنظرت هي الاخرى في ساعتها الصغيرة، وطفا شبح ابتسامة أمومية على وجهها وقالت:
ـ لا يهم.
ـ كيف؟ ..
ـ ..
نظرت الى وجهه الذابل، والسجل المتهرئ في يده، وتساءلت مع نفسها عن وجهته في هذا الصباح الباكر. وتركته يثرثر عن المعمل والدوام. نظر الى سيارة كوستر يصيح سائقها :" ساحة.. ساحة.. ساحة"، وأحست هي بتناقص السابلة على الرصيف فقالت متشجعة وهي تتذكر نصائح أمها :
ـ من قال لك أنني ذاهبة الى الدوام؟
وبدأا دون أن يشعرا يبتعدان عن المكان الذي وقفا فيه. تجاوزا مجموعة من الجنابر الحديدية المركونة على الرصيف والتي لم يستيقظ اصحابها بعد. وتذكر شيئاً، فنظر الى وجهها الخالي من المساحيق سائلاً:
ـ ألا تخافين ان يرانا احد نسير سوية؟
أبتسمت من سؤاله الخبيث. وحركت رأسها نافية.
بعد دقائق كانا قد وصلا في سيرهما الى مسافة بعيدة، وهو يسألها عن امها، وهي تسأله عن اهله. يسألها عن المعمل، وتسأله عن عمله الجديد. ثم نظر الى ساعة يده، وقال لها:
ـ هل حقاً ليس لديك دوام اليوم؟
ـ واذا..؟
ـ سيفصلونك.. انت تحتاجين الى العمل.
ـ لا تخف أنهم لا يفصلون النساء.
قالت وهي تبتسم بثقة، وضحك من جوابها، رغم أنه لم يفهم تماماً ما قالته. بعد حين، أتفقا ان يركبا في أي حافلة تقف لهما. وتلامست أيديهما وهما يجلسان على مقعد واحد. نسي موعده

مـع عيـدان وخطتـه الصـغيرة، وسـطع الـدفء مـن النافـذة العريضة على جسديهما، وهما يتهدهدان مع حركة الحافلة.
" .. لقد كنت افكر فيك كل لحظة يا نـود، تصوري؟ لقد تخيلت صباح هذا اليوم وانـا انظـر الـى الزقـاق اننـي رأيتك تخـرجين، وتمـرين مـن امـام بيتنـا. لـم تفـارقيني لحظـة واحـدة، حتـى اننـي كتبت قصة عنك.. تصوري؟. لا اريـدك ان تزعلـي منـي ثانيـة يانـود، أنني أحبك، أنظري الي، ألا ترين ما بي"
" ما بك شيء، مورد وكلش زين"
" لقد خفت أنك كرهتني، ما الذي افعله لكي لا تعذبيني هكذا؟"
" لا يبدو عليك انك قد تعذبت، صـحتك جيـدة، حتـى انـك تـدخن الان"
" علي أن أحرق شيئاً، فلأحـرق سيجارة بـدلاً مـن أعصـابي او مصـاريني"
" على رسلك !!!"

* * *

" سأكلم أبي لكي نأتي الى بيتكم وأخطبك من اهلك، ولكن اذا رفضوا ماذا سأصنع"
" .. "
" لا تقولي أنها مشكلتك، انها مشكلتنا معاً، أليس كذلك؟"
" أذا لـم يـأت معـك أحـد، فتعـال لوحـدك، انـت رجـل، الـيس كذلك؟، تعمل، وتستطيع أعالة عائلة"
" لقد صرفت كل مـا لـدي مـن نقـود، لقد اخبرتـك، لـم اجـد لحـد الان أي عمل دائم"
" كم معك الان؟"
" .. خمسة ألاف دينار"
" جيد.. ! ".

* * *

" سأخبرك بشيء، أنا مواليد 1972، أتعـرف ذلـك؟ ستخطبنـي من اخـوالي. شكليات يعنـي. أنـهم بعيـدون عنـا، ولا علاقـة لـهم بمشـاكلنا، ولكـن امـي تريـد ذلـك. أمـي فراشـة الان فـي مدرسـة

المظفر الابتدائية، وتريدني أن اترك العمل، لن اترك العمل، اتفهم يا حبيبي؟"
" لقد ألتقيت مجدداً بصديقي القديم عيدان، لقد اخبرتك عنه سابقاً، ربما سيساعدني في ايجاد عمل دائم. لقد قلت له أنني سأعمل معه في وظيفته التي لا يريد ان يخبرني ما هي ، سأعمل معه حتى لو كان نزاحاً للمجاري".
" يجب ان تكون حباب، وتسمع كلامي، أتفهم؟".

- 66 -
يطرق عيدان مع صديقه جاسم على باب بيت حلمي، وينتظران قليلاً قبل ان يخرج أليهما بدشداشته، وعيونه ترتج بقلق. يرحب بهما ويطلب منهما الدخول، فيمرون من امام المرافق، ويرتقون السلم الحجري بأتجاه غرفة حلمي في الطابق الثاني. تخرج ندى رأسها من باب الهول المعتم، وتعرف الداخلين الى البيت، فتزفر ضجرة وتعيد البردة التي تغطي فتحة الباب من الداخل، ثم تجلس بجوار امها على الارض تتابع برامج السهرة.
يفتح عيدان قنينة المشروب، ويدلق منها في كؤوس يحتفظ حلمي بها عادة اسفل السرير، ولا يدع ندى تغسلهما او تعد له أي شيء يتعلق بلقاءاته الخاصة مع اصدقائه. أنه يستثمر صبرها عليه الى حدوده القصوى. بعد ان اجلسها من العمل، وضيق عليها بعاطفته المشبوبة منافذ بوحها وتشكيها.
"عليه ان يجد مكاناً اخر، للقائه باصدقائه، أنها غرفة نومكم وليست نادي"
" نادي.. نود .. نداوي.. ندند"
" يجب ان اعود الى العمل.. من أين سنصرف، لقد نفدت نقودك، ولم تعمر طويلاً في عملك الاخير"
" لقد فصلوك يا حبيبتي لأنك تغيبت ليومين، ولن يعيدوك الى العمل ثانية"

" لا تخبرني بأي شيء عن الرسم والرسامين والشعر والشعراء، لا تثرثر أمامي بذلك رجاءَ، لقد خرب هؤلاء حياتي، حطموا مستقبلي، ولا اريدك ان تزيد عليهم أنت ايضاً"

- 67 -

كان رسول الكاتب يبدو منشرحاً، وقد تلقى قبل يومين خبر صدور كتابه الجديد عن أحدى دور النشر العربية. لم يعرف احد مدى صحة الخبر، لكن لا بأس من الاستمتاع به فترة من الزمن حتى لو لم يكن صحيحاً. هكذا قال الرجل العجوز ضاحكاً.

تردد حلمي وهو يداول نفسه بخطته الصغيرة. راز نفسه ومدى شجاعته للحظات، ثم حسم الامر، بأن فتح سجله المتهرئ، وأخرج مجموعة من الاوراق وقدمها الى صديقه عيدان.

ـ كوان شين طاو.. من هذا .. شاعر صيني؟

ـ نعم.

ـ وهل ترجمت هذه النصوص انت؟

قال عيدان مستغرباً وهو ينظر الى وجه صديقه، فبلع حلمي ريقه ونفى قائلاً:

ـ لا.. أنه .. أبن عمي محمد، انه يدرس اللغات، وترجم هذه القصائد من موسوعة شعرية باللغة الأنكليزية.

تنقلت الاوراق بين ايدي الجالسين على تخوت المقهى، ثم انتهت الى حضن رسول الكاتب، الذي ارتدى نظارته الطبية الجديدة، وشرع يقرأ في النصوص القصيرة. وبعد أن تحمسوا لمناخاتها الاسيوية، ولغتها المتقشفة، اجمعوا من خلال رأي الرجل العجوز، على انها قصائد جيدة، وجميلة، وأقترح احد الجالسين ان ينشرها في احدى الصحف المحلية. لكن حلمي كمن يستيقظ من حلم، اعترض قائلاً بأن عليه أولاً ان يستشير ابن عمه في ذلك، فهو المترجم.

عند الليل، شعر وهو يقلب الخمسة الاف دينار، بجوار جسد زوجته النائمة، انه ليس كاتباً سيئاً، انه شخص سيء، وفكر لو

يحتظن زوجته باكياً، لكنها ستستيقظ، وتذكره بالمعاهدة التي ابرماها، في الساعات الاولى من صباح ذلك اليوم البعيد، الذي جلسا فيه على مصطبة خشبية أمام أقفاص القرود والذئاب وأبناء وبنات اوى في حديقة الحيوان. ستقول له:
ـ أنا اكره الشعر والفن الحديث. أكره بيكاسو وخوان ميرو. أكرهك حين تتكلم بهذه الطريقة.
حاول ان ينام وتخيل وهو يدس رأسه في شعر زوجته المنبسط على الوسادة ويغمض عينيه، انه في غرفته، في بيت اهله، وانه يسمع بين فترة واخرى، صوت جدته قسمة المتجرح من التدخين وهي تنغم نعاويها على فقد الاجداد الذين لم يعرفهم ابداً. ثم يقطع عليه أحلامه، نباح منكسر، لكلب وحيد على السطح الطيني للبيت، لا يعرف ماذا يفعل أمام هجمات الامطار المتلاحقة من كبد الليل.

- 68 -

ولكن هل عليه ان يكتب الان؟ أن نود بين يديه، وهذه هي النهاية.. أليس كذلك؟ عليه كي يحتفظ بها ان يعمل عملاً اخر، غير بيع الامواس وسكاكين المطبخ واقلام الرصاص والحبر والمساطر وقاتلات الذباب اليدوية . عليه أن يترك مهنة بيع الفرارات وطيارات الورق، ونقافات اشرطة العمليات المطاطية، عليه ان يرمي صينية الداطلي والبقلاوة، واكياس الحب والحمص والشامية، وشعر البنات، ثم فليترك بيع الصحف والمجلات المستعملة وبيع الكتب المستنسخة، وبيع الادعية والحجابات وكراريس الزيارات قرب الاضرحة، وبيع الماء في الصيف. والباقلاء في الشتاء.
عليه ان يترك عمله المضني من الصباح الى الليل في مأكولات هلي في الاورزدي، وليلم خردواته من بسطته الصغيرة أمام سوق مريدي، وليسكب اباريق شايه وحامضه على الرصيف، وليمسح بملابسه (البالة) ارضيات الردهات في مستشفيات الچوادر والداخل ومستوصفات وعيادات الگيارة والشركة وحي اور والاورفلي.

أمــا اذا تــرك اعمــال الخدمــة ورفــع الانقــاظ والازبــال مــن الشوارع الفارهة، فسيكون اقرب الـى بغيتـه، خصوصـاً، وأنـه يعود كل مساء عـابراً علـى احجـار تتوسط المـاء الاسـن الـذي يمتد من السيارة التي ينزل منها حتى باب بيته. سيتمكن عندها ،وهـو يصـل الــى النهايــة، مـن النظـر لوحـده - دون اعـين المتطفلين - الى مصيره وما يخبئه له من كوارث او مسرات.
ينظـر الـى المـرآة، فـلا يـرى صـورة جده كشـاش، او جد جـده مسـروط، وأنمـا صـورة تشـبه الوجـوه المشـوهة فـي رسـومات بيكاسو، لشخص يدعى كوان شين طاو.
يرفع كوان شين طـاو يده بطريقـة مسرحية مودعاً حلمـي، ثم يغيب داخل النفق في عمق المرآة، ويبقى حلمـي صـامتاً يمسح بالمنشفة أثار تعب النهار والليل، وينظر الى اللاشيء امامه.

- 69 -
ابلغـوه أن حِـيوان مـات مـن البـرد والشـيخوخة. وجـدوه علـى السـطح باسـطاً ذراعيــه بالوسـيط، بـين بيتــه الطينــي المتهـدم وأقراص المطال الرطبة. مـاداً رأسـه الـى الامـام، وكأنـه يـذعن لسياف خفـي امـره بـذلك. لـم يبـك أحـد فـي العائلـة علـى فـراق حِيوان، لكن سالم جثا بجواره واهرق دمعـاً سـخياً، وهـو يمسد علـى فـروه المفتـل مـن الطـين والمـاء. تخيـل حلمـي، ان الاب سيبحث ، قبل دفن كلبه العزيز، عمن قـال لـه :" مـت". سـينبش الارض بحثاً عن هذا اللاعب اللاهي، الذي امر كلبه بالموت.
لكن الاب لم ينبس ببنت شفة وهو يـرى أبنـه المغضـوب عليـه يبرز في مساء احزانه. تهيأ لحلمي أن يلقي بنظـرة اخيـرة علـى كلـب العائلـة، وأتهـم صـامتاً أهلـه بالاهمـال. لقـد نسـوا كلـبهم العزيـز المـدلل، فــي حمـأة أنشـغالهم وتعـودهم علـى وجـوده. ربطـوه فـي السـطح وتركـوه. لقد ضـنوا أنـه سـيبقى هكـذا ابـد الدهر، حياً أمـامهم، ومطيعـاً، وغيـر متمـرد، ينفـذ مـا يرغبـون، ويسـتجيب للسـنة التـي اختطوهـا، او ارتضـوا ان يعيشـوا مـن خلالها. لكن احداً ما قال له (مت)، فأستجاب. لقد غير حِـيوان سيده أخيراً. ونفذ مطلبه الاول والاخير.

- 70 -

قال لعيدان أنه يريد ان يعمل معه، فليكن ما يعمله دنيئاً وخسيساً ولا يطيقه العبيد، سيرضى به، لأنه سيكون مع صديقه المخلص في كل الاحوال. صمت عيدان وتأمل وجه صديقه، أنه نافد الصبر، وينفث قلقاً وحيرة. وقف بجوار جنبر للسجائر واشترى علبة ميركوري، نزع السوليفان عنها، واستل سيجارة ثم سأل صديقه:

ـ هل قرأت مجموعتي الجديدة؟

ـ لماذا لا تخبرني وتخلصني؟ هل تعمل في التهريب؟

ـ اريد ان اخبرك شيئاً.. لكن علينا أولاً ان نجلس في مكان ما.

قال عيدان ذلك وهو يشعل سيجارته من قداحة فضية.

تمشيا في الميدان وانحرفا نحو وزارة الدفاع القديمة، وسارا بمحاذاتها، وحين وصلا الى جسر مدينة الطب عبرا، وهما يغنيان، حتى وصلا الى مرقد الخضر، كان الجو ربيعياً، والهواء يحمل نسمة لطيفة لا تذكر بالشتاء، والمصابيح الكروية الضخمة تضيء ضفة دجلة، فوق مناضد شغلتها عوائل واطفال، ونساء عجائز. جلسا على الحافة الكونكريتية للرصيف المطل على النهر، ثم اخرج عيدان سيجارتين واوقدهما، وبدأ يطلقان الدخان في الهواء المتباطئ فوقهما.

قال له عيدان:

ـ لقد نضجت الان يا صديقي، كنت انتظر هذه اللحظة. في الحقيقة لم اكن متحمساً في البداية، ولكنك اثبت جدراتك. كم وظيفة عملت بها حتى الان؟

صفن حلمي وتحمس لكي يحصي لكنه تخلى عن هذه الفكرة فقال:

ـ لا اعرف بالضبط، ولكنها كثيرة، كثيرة جداً؟

ـ أنا، الذي هو انا.

قال عيدان داقاً على صدره واكمل:

ـ ..عملت في عشرة الاف وظيفة، جربت كل الاعمال التي يقوم بها الانسان، لقد فقدت زوجتي بسبب الفقر، تدمرت

حياتي بسبب الحاجة، تسكعت، واصبحت بوهيمياً، ثم لبست لباس الذلة، وغشيت وجهي بماء المهانة، ووسخت بدني وروحي، ومرضت. ادخلني أناس لا اعرفهم الى مصحة نفسية، وأخرجني اصدقاء قدامى، وساعدني صديق سافر منذ سنين على ان أرجع لنفسي. عملت معه في مرسمه، وعدت الى بيت أهلي، وغفر لي ابي ما تقدم من ذنبي وما تأخر. بدأت انسخ مع صديقي لوحات المستشرقين، وكسبنا نقوداً كثيرة، بعثرنا وتهتكنا، ثم أحببت أمرأة، وبدأت اصرف عليها كل ما يأتيني من نقود، تزوجتها كما قلت لك، ثم سافر صديقي، وسخر مني لأني لم اسافر بسبب زوجتي. كان يرسل لي رسالة كل اسبوع، ثم بدأت رسائله تتناقص، حتى أتتني في يوم ما رسالة كانت هي الاخيرة. كان يسخر مني لأني أجازف بمصيري من اجل أمرأة، وها أني قد فقدتها في النهاية.

ـ ما الذي تريد ان تصل اليه؟

قال حلمي ورماد سيجارته يمتد منها كعمود صامت.

ـ الذي اريد قوله، ان هناك سلم للتطور الحياتي، يشبه نظرية دارون، هل قرأت عن دارون؟ المهم، في البداية تعمل العمل رقم واحد ثم 2 ثم 3 ثم 4، وهكذا تبدأ بالتطور، وانا الان مقدم على العمل رقم صفر، هكذا اقترحت تسميته، لأن تطور الاعمال دائري.

أزداد تشوش حلمي، وشعر بأن صديقه لا يريد ان يفصح بصورة مباشرة عما يدور في رأسه.

ـ هل أنت سكران، ام تمزح معي؟

قال حلمي، وضحك عيدان، وأخترق سمعيهما صوت الموسيقى والغناء في عبَّارة مخرت المياه الليلية أمامهما.

عاد حلمي مساء الى البيت، وقربت ندى ، وهي تفتح له الباب ، انفها من فمه، تشممت زفيره ثم رجعت الى الوراء مطمئنة، قادته الى الاعلى، واجلسته على السرير، قبلت ركبته البيضاء الناصعة، وطلبت منه ان لا يتأخر بعد اليوم. أن أمها تضايقها بكلامها، وعليه ان يترك هؤلاء الرفاق السيئين.

قال لها أن كلبهم (حِيوان) مات، لكنها أخرجت دشداشته من الكنتور، ورمتها على وجهه. وحين نزع قميصه، سمعها تثرثر بصوت مرتفع مع امها داخل البيت. ربما لا تريد المرأة العجوز أن تصب ابنتها طعام العشاء لزوجها؟
قبل ان ينطرح على السرير، أعادت عليه ندى، رجاءها في العودة الى معمل الحلويات. ان صاحب المعمل يرغب بتوظيف الفتيات، حتى لو خربطن في الدوام ولم يلتزمن كثيرا باوقات الحضور والانصراف، ولكن، كيف يستطيع تحمل سماعها وهي تذكر هذه الاشياء.
صمتت، ولم تكشف له عن قرارها الذي لا رجعة فيه بالعودة الى العمل. وشعرت مع نفسها أنها بهذه الطريقة ستعيد الامور الى نصابها الاول. سيعودان ثانية الى المعاهدة التي عقداها واخل هو بشروطها.
جلست على صدره وأخبرته وهو يشرق بأنفاسه، بالفقرة الجديدة في لائحة معاهدة حبهما وزواجهما.
(سوف لن تجلب اصدقاءك السكارى ثانية الى البيت، اتفهم يا حبيبي، سوف اطردهم شر طردة)
أنزلقت الى الاسفل، فسحب شهيقاً طويلاً مثل غريق طفا الى السطح، ثم تناول يدها جاذباً اياها اليه، لكنها تملصت منه، وجلست تمشط شعرها أمام ميز التواليت الذي اشتروه مع باقي أغراض الغرفة بالتقسيط، من بائع أثاث عتيقة ومعاد تصليحها في نهاية سوق الحرامية.
صهرته وذوبته ثم جعلته يشخر من التعب فنام نومة اهل الكهف، وتركته لتنزل الى أمها تجلس معها وتحادثها. غطس شيئاً فشيئاً حتى وصل الى النومة السابعة، هناك شرع حلمه يتدفق غزيراً، ثم يغمره من خلفه ومن امامه ومن بين يديه:
ها هو مع عيدان في الاعدادية. يقف (المدرس الاسطورة) وقد أمتلأت جيوب بنطلونه وقميصه بالاوراق النقدية وضاقت بها. يحرك عصاه امام الطلبة في قاعة مدهونة الحيطان بلون السخام. ثم يضرب ضربة تنبيه على خشب السبورة. ويرى حلمي ما مكتوب عليها:

وظيفة رقم واحد
وظيفة رقم اثنين
وظيفة رقم ثلاثة
هكذا حتى يصل الاستاذ الاسطورة بشرحه الى الوظيفة رقم صفر، يفتح حلمي عينيه ويقرأ الكتابة الطبشورية الملغزة، فلا يفهم شيئاً.
يلتفت الى صديقه عيدان ويجده يضحك بسخرية، لأن الاستاذ الاسطورة لم ينتبه الى نقوده وهي تتساقط اثناء الشرح على ارضية الصف، ويدوسها، مراراً وتكراراً.
ـ ولكن هذا لا يجوز؟ كيف تفكر في ذلك؟ هل فقدت عقلك؟
قال حلمي لصديقه، بينما أبخرة اللبلبي تتصاعد من القدر الغاطس في العربة أمامهما.
ـ أن الاخلاق والقيم والمبادئ، والتقاليد والاعراف والمثل، كلها يا صديقي، أخترعت من اجل استغلالنا نحن المساكين. لا تتخيل انني توصلت الى ذلك بسهولة، لقد شربت المر واكلت العلقم حتى ايقنت في النهاية ان ذلك هو الحقيقة.
ـ أية حقيقة؟
ـ أنك امام شيئين، اما ان تفقد حياتك، أو تغتصبها من أيدي الذين يعتبرونها شيئاً كمالياً في حياتهم.
ـ ولكنك مثقف، كيف ستقوم بهذا العمل؟
ـ بدأت تفهمني يا صديقي، أنا لست وحدي، هناك شخصان اخران، ومعك، سنكون اربعة، كل واحد منا لديه مهمة محددة، فلا داعي للخوف.
ـ ولكن، أليس هناك فرصة لعمل أخر، أمن المعقول ان كل هؤلاء الناس الاحياء حولنا يأسوا من ايجاد فرصة طيبة للعيش.
ـ أنهم كلهم يتوزعون على نقاط في السلم التطوري بأتجاه اللحظة التي نعيشها الان؟
ـ اية لحظة؟
ـ اللحظة صفر، والوظيفة صفر.
ـ ومتى ستباشر بعملك الجديد؟

ـ بعد يومين، ليلة الجمعة. ولكن لن أتحرك خطوة واحدة أذا لم تكن معي.
ربت عيدان على كتف صديقه، ثم خاطبه بمودة وهزه اليه بأخوة:
ـ ماذا بك يا صديقي، لماذا صرت مثل دجاجة مبللة، لا تخف يا عزيزي، ألا تثق بي؟

- 71 -

حضر عصراً على غير عادته، ولم يكن ذلك استجابة لرجاء ندى، ولكن ليهيئ نفسه لما قبل منتصف الليل.
ـ الساعة الحادية عشر والنصف، عند تقاطع ساحة مظفر. هناك سنجتمع أنا وجاسم وياسين وانت. لا تتأخر، لأننا سنتركك، أتفهم.
الساعة الحادية عشر والنصف، يقلب الموعد في ذهنه مراراً، وهو يطرق الباب فتفتح العجوز له، ويرى عينيها مبللتين بالدموع. يسلم عليها، وترد شاردة البال، تمسح أنفها بطرف فوطتها ثم تغادره داخلة الى الهول، ويسمع صوت مقتل حسيني مألوف، يخرخش في المسجلة المتعبة هناك. يرتقي الى غرفته ولا يجد ندى . يجلس على السرير ولا يشعل الضوء، ويرى الستائر مسدلة كما تركها ضحى هذا اليوم حين استيقظ من نومه.
ـ القضية ببساطة قضية جرءة، قضية المرة الاولى، اتفهم؟.. نحن لسنا لصوصاً او حرامية، سنحاول فقط ان نعيد شيئاً من التوازن الى العالم المتأرجح.
ـ جيد، ها انت تستفيد من الشعر في هذا الموضوع اذن؟
ـ الشعر الان خارج قوس. هي مرة واحدة يا عزيزي، واذا قمنا بها بشكل جيد، فلن يكون هناك من مشكلة، أنا اعرف ان الخوف الذي فيك، هو من العواقب، لكن كن مطمئناُ، من يحسب الامور جيداً لن يقع في المحظور.
ـ واذا قبض عليكم؟

ـ سيكون ذلك ثمن جرأتنا، ولن نندم على شيء، لأن ما من شيء تبقى لنا، اتفهم؟
-...
ـ اليست مشكلتك كلها منحصرة في رأس مال صغير؟.. كم ستنفق من السنوات وانت تفكر في تحقيق شيء، لن يمنحه لك احد؟.. ها ؟.. الوقت ضيق، احسم الموضوع.
ـ لا ادري..
ـ ستدري، أنها عملية سهلة وبسيطة ، وقد درسناها أنا وباقي اعضاء (منتصف الليل) جيداً، حتى انها لا تحتاج لأكثر من اثنين في الحقيقة.
ـ منتصف الليل؟!
ـــ نعم .. لا استطيع مغادرة الشعر نهائياً.. سيكون أسمنا عصابة (منتصف الليل).
سمع صفق الباب، وهو مستلق على سريره مشوش الذهن، ثم انخفض صوت المسجلة فجأة ، نظر الى الشباك المغطى بالستارة، فبدا معتماً، وتمكن من سماع صوت أذان بعيد، ربما هو قادم من حسينية الامام علي في ركن زقاقهم.
فكر في عائلته التي تخاصم معها، وفي جفاء ابيه المؤلم، وصمت امه واخته وعماته، فكر في التحدي الذي فرضه عليه الاب: " لن تستطيع أعالة نفسك، ما زلت طفلاً ، واشكر الله لأني حي واصرف على العائلة، اذهب ودعنا نرى"، تذكر وجه امه وهو يسود من هول المصيبة التي تتخيلها، تصفق على وجهها وتخدش خديها بهلع " تريد اتصير كعيدي، هاي تاليته حلوم؟". كان كل ذلك هيناً، إلا أن يكون طفلاً في عيني ندى.
نهظ من فراشه لمرأى ندى وهي تدخل بهدوء من باب الغرفة المفتوح، وتضغط على زر تشغيل المصباح فيكرمش عينيه من الضوء، وينظر اليها. كانت شفتها السفلى مرتخية وتنظر اليه بعينين لامعتين، القت الحقيبة من على كتفها منتظرة ردة فعله. قال لها:
ـ هل كنت في الخارج؟

ـ نعم.
أجابت، ثم شعرت بالغثيان، بسبب مشيها السريع في الزقاق تحسباً لعودته مبكراً. جلست على صفيحة مغطاة بوسادة امام ميز التواليت، وضمت وجهها بيديها وسحبت شهيقاً مديداً.
ـ هل عدت الى المعمل؟
قال وهو يقف ويقترب بخطوتين.
ـ لا .. طلبت منهم العودة.
قالت ناظرة اليه بأشفاق ثم اكملت وهي تحرك عينيها على الاثاث القليل والبائس في غرفة نومهما:
ـ لكنهم رفضوا، قال مدير المعمل، أنهم طردوا عمالاً كثيرين بسبب تقليص الانتاج.
ـ وخالفت كلامي؟
أرتجف خده، وزم شفتيه، واحس برغبة في البكاء، ممزوجة بغضب مؤلم. نظرت اليه بعينين لا ترمشان، وشاهد الكحل وقد لطخ هالتي الارهاق اسفل عينيها. احست بضيق لا فكاك منه، ففاجأته بصياحها:
ـ ما الذي تريد أن تفعله، تريد ان تضربني؟.. اضربني.. ها.. يلله؟
قربت جسدها منه، وأنفجرت بكلمات متسارعة لم تعد تقوى على كتمها. كان ينظر بأنفاس متلاحقة الى عينيها وهما تسيلان بدموع صامتة، وشفتاها تختلجان بكلام يائس.
ـ آني عندي اخوات، امي مريضة، لا اريدها ان تعمل، هل اقول لك ذلك كل يوم؟
وقف عند الباب ونظر الى الدرج النازل حتى حائط المرافق، وشاهد طرفاً من الزقاق ونظر الى حوش الجيران، وهي خلفه تتكلم بحدة فصاح:
ـ اسكتي..
لكنها لم تسكت وظلت تصيح :" لماذا اسكت..؟ ها ؟ قل لي لماذا اسكت؟"
ـ اسكتي..

صاح ثانية، والدماء تغلي في عروقه، ثم أشتمل عليها بيديه، وهصر لدونة زنديها، خضها مراراً، ولم يعرف ماذا يفعل بعد ذلك، فتركها تهوي متراخية الى الارض، وظل يدور في الغرفة الضيقة عاجزاً عن منع الصور الكابوسية من التلاحق في رأسه.. مدير المعمل السمين، يحتضن العاملات تباعاً ويقبلهن قبل خروجهن من العمل، او يدخل احداهن الى غرفته ويغلق الباب بأحكام، يتخيل ندى عارية بين يديه، وتضحك ضحكتها المتغنجة نفسها، التي يسمعها منها في السرير اخر الليل. مرت الصور المزعجة في ذهنه مثل البرق، فالتفت الى زوجته قائلاً:

ـ عائلتك، اخواتك؟.. أنا اتصرف. ألم اقل لك أنا الرجل هنا، اتفهميني؟ لن تخرجي من البيت بعد الان. أتسمعين كلامي.. أذا نمتم بدون عشاء تعالي واخبريني. أتفهمين.

سقط على حافة السرير وهو يتقيأ نفسه بصياح متلاحق، وهي لا تجيبه " أتفهمين؟.. أتفهمين؟". سمعها تنشج باكية، فتداعت روحه مثل ركام خاو، وتذكر كلام امه البارد (كلهن قحاب)، فردد بخفوت ناظراً اليها والدموع تنحدر على خديه(عاهرة.. عاهر..ة).

بعد ساعة من ذلك، كان يتسكع في الزقاق. طرق على باب بيت جميل گيطان، فبرزت له زوجته. سألها عنه فقالت على استحياء وهي تقرب ستارة الباب الداخلية من وجهها الملفوف بالفوطة أنه يعمل في شفت ليلي على جنبر للسجائر في النهظة.

عاد ادراجه، وحدق في ساعته، كانت تقترب من العاشرة، وبطنه تقرقر خاوية. وراوده ما يشبه النسيان، او فقدان جزئي في الذاكرة، هل كان يصرخ حقاً؟ لقد صرخ بملء فمه دون ان يكترث لفضول الجيران؟

دخل من الباب الذي وجده مفتوحاً كما تركه، وحين صعد الى غرفته وجدها ما زالت على الارض. رفعت وجهها المبلل اليه، وقد عادت سيماء الصلابة الى ملامحها. اقترب من

الكنتور، وفتحه وظل يقلب في ملابسه ثم أخرج فوطة قديمة وحائلة اللون ولفها حول رقبته، وسمعها تسأله بنبرة جادة:
ـ هل ستخرج؟
نظر اليها بجبين مقطب، وتشاغل بلف الفوطة. فوقفت بأستقامة وعادت الى كلماتها المتلاحقة السابقة:
ـ أذا خرجت ثانية وذهبت الى اصدقائك السكارى فلا تعد، اتفهمني؟
ظل ينظر اليها بعينين فارغتين ولا يجيبها، ثم برق في ذهنه خاطر سريع وهو يشيح بوجهه عنها، أين هو؟ لماذا يسمع هذا الكلام؟ هل هذه امه؟ هل هو نائم؟ وهل هي جادة حقاً فيما تقول؟
ـ سأغلق الباب، واذهب حينها اليهم، دعهم يؤونك.
نزل بتراخٍ وانهاك على درجات السلم الحجرية، وشاهد المرأة العجوز تَخرج بأبريقها النحاسي من المرافق، وقد رفعت ردنيها. صفق الباب خلفه، وحث خطاه على اسفلت الزقاق المعتم. مر من الركن الاخر لزقاق البو دراج، وتجاوز حصانين أشهبين يعلفان في نصف برميل صدئ مربوطين على شباك أحد البيوت، داس على الروث الاخضر، وبقع الماء القذر الخارج من فتحات اسفل الحيطان ، وتدافعت في اذنيه النبحات القوية والصلبة للكلب البوليسي فوق السطح الواطئ لبيت رزاق الامير. وصل الى الشارع. حدق في ساعته فرأى العقربين يؤشران العاشرة والربع.
ـ لا تتصور أنني شرير، أو شخص منحرف، أنا اقوم بذلك مكرهاَ.
ـ مثل الاغتيالات الاسرائيلية للفلسطينيين!
ـ يا الله .. لا تمزح معي. أين ذهب فكرك؟
عبر الى الرصيف الاخر، ومر بجوار محال خياطة الربيعي، ومأكولات الشروق، وتسجيلات المروج، ونفسه تراوده بظلاميات داكنة. سيكون مع رفيقه المخلص على اية حال، فليدخلا السجن، أنها لم تعد نود، فليقتلا، لماذا تذكره انه في بيتها، هي من خططت لكل ذلك. كان راضياً بالاعتياش على

فقدانها، أن ألم الفقدان يلائمه كثيراً، هي من شجعته لتخريب كل شيء. قالت له امه، والدموع تغسل وجهها، ليلة خرج بأغراضه القليلة من غرفته وبيت أهله، أنها تستشعر في هذه اللحظات آلام المخاض التي عانتها يوم ولادته. أرعبته كلماتها، وتدفقت مخيلته بطوفان من الصور وهو يتقدم الى باب الحوش. أحس بخطواته تغدو أكثر لزوجة، وأنه يرفعها بصعوبة بالغة، اصوات صراخ ولغط مبهم يرتفع ثم يغيب في رأسه الجنيني، وحين وضع اخيراً قدمه على اسفلت الزقاق خارج الباب، أنفتق صوت من السماء يكرر في أذنيه بخفوت مرعب صدى صراخ طفل رضيع.

عبر الى ركن مستشفى الچوادر، ومر بجوار موقف سيارات الجيب الذاهبة الى حي اور وسبع قصور. ثم تحت وطأة شعوره بالجوع وقف أمام عربة لبيع الداطلي، وظل يأكل دون حساب حتى داهمه غثيان خفيف.

أوقد سيجارة ميركوري، وأستأنف سيره، ماراً بجوار الحديقة الملاصقة للمستشفى، نظر بلا مبالاة ا لى الظلمة التي تكتنفها، ولم يرد ان يتذكر شيئاً. كان سياج الاسلاك الذي يحيطها مائلاً ومنزوعاً في بعض الجهات، ومستنقعات المياه تغمر اجزاء كبيرة من مساحاتها التي كانت خضراء. وحين عبر شارعاً فرعياً اخر، شاهد ثلة من الشباب متجمهرين امام مطرب شعبي يغني مع فرقته تحت اضواء البلوجكترات، على (ستيج) خشبي صغير مرصوف عند احد الحيطان. تذكر انه لم يقم بأي عرس، صفق اصدقاؤه وهلهل بعضهم ضاحكاً، جاءه أبن عمه محمد وصافحه مباركاً، لكنه لم يتأخر معه كثيراً. وضع في يده بعض النقود ثم رحل.

مر من امام سوق مريدي، ورأى عربات الباقلاء واللبلبي وجنابر الحب مضاءة، بينما يحزم بعض بائعي المخضر المتأخرين أغراضهم من ارض السوق المبللة والقذرة. أستمر بالسير، وذهنه يستعيد دون ارادة منه صوراً كثيرة لا رابط بينها، كان الاحساس بالاحباط والتلاشي يستولي على روحه، ولا يعرف هل سيذهب الى صديقه عيدان أم يتخلى عن ذلك.

سيتهمه بالجبن، سيجلسون في مقهى ام كلثوم ويطلب له عيدان الشاي ويعزمه على غداء معتبر ثم ينظر اليه ويقول ساخراُ:
ـ ها .. أرأيت؟ لم يكن الامر صعباً.. كان يحتاج الى رجال فقط؟
هل هو جبان حقاً؟ قد يعترف بذلك مع نفسه، لكن ليس للأمر علاقة بمغامرة عيدان الغامضة. لكنه سيكون مع صديقه، فلماذا الخوف؟ سيكون الامر كله ثأراً مناسباً من ندى، سيرمي النقود في وجهها ويقول لها : " اصرفي واشتري ما تريدين.. ولا تصرخي في وجهي بعد الان".
وقف أمام مصور زياد اللامي، وملأ عينيه بالاضواء الساطعة فوق المحل، تردد في العبور الى الجهة الاخرى من التقاطع، وظل ينظر الى الناس الداخلين والخارجين من مأكولات هلي في الجانب الاخر من الشارع. رفع يده ونظر الى ساعته. وتجمد كل شيء في ذهنه لثوان .كان العقربان قد عبرا الحادية عشر والنصف، وايقن وهو يتلفت يأئساً والبرد يغزوه ، أن أصدقاءه قد تركوه الان ورحلوا.

\- 72 -

ظل يطرق على الباب، لكن، دون فائدة. احس باصابع قدميه وقد تثلجتا في حذائه الواسع، وأعتوره قلق وهو يعاود الطرق بعنف، من ان يخرج الجيران ويشاهدو منظره البائس. صاح عليها بأعلى ما يستطيع " ندى.. ندى.. أفتحي الباب.. ندى"، وضاق كل شيء في عينيه، امام رغبة ملحة في الاستلقاء تحت اغطية فراشه والنوم عميقاً. كان يريدها ان تخرج له فقط، سيقول لها بأنه لم يذهب الى اصدقائه، ولكن، كيف ستصدقه. ستشم زفيره، وتعرف ذلك، ولكنها لا ترد عليه :" ندى.. ندى". لم يشعر في اي وقت مضى بمهانة كهذه، لكنها ستفتح الباب له اخيراً، فكل ما حصل الليلة كان اشبه بكابوس صغير، أنه سريع النسيان الان، ألم تقل له انها بلا ذاكرة؟ أنه

مثلها الان، لا يستطيع أو لا يريد ان يتذكر شيئاً، مثلها تماماً، اليس كذلك؟
ـ ندى.. ندى.
فكر في طرق الباب على اهله، أنها الواحدة بعد منتصف الليل، سيستقبلونه بالاحضان، لكن الاب سيقول بحزم:
ـ ها.. رجعت اخيراً..؟!
ثم يلتفت الى وجوه العائلة ويكمل:
ـ ألم اقل لكم.. لم يستطع التحمل لوحده.
سيطرق على باب عمه غانم، سيستقبله محمد على الاقل. سيقول له بأنه تخاصم مع زوجته. أو يتحجج بأي حجة اخرى، ولكن ذلك كله يبدو فاشلاً ومخجلاً.
ـ ندى.. ندى.
أنها تسمعه بالتأكيد، لم تتعود على النوم أذا كان خارجاً، ما هذه القسوة، هل تريد ان تعاقبه، فلتمضي الى الجحيم. ضرب بقبضتيه على صفيح الباب المتبعج ضربة ختامية، وغادر، والدم يغلي في عروقه، دون ان يعرف الى اين.

- 73 -

طوى ذراعه تحت رأسه وظل ينظر بعينين ساكنتين الى شريكه النائم على السرير الاخر في هذه الغرفة الضيقة. كانت أبواب الفنادق كلها مغلقة، فتذكر وهو يدور يائساً الفندق الذي ينام فيه رسول الكاتب، فدخل في أزقة معتمة في شارع الرشيد حتى وصل الى واجهة الفندق الذي وجده مفتوحاً، وحين سأل عن الرجل العجوز، قيل له أنه سافر الى اهله في الجنوب. أعطاه عامل الفندق المصري مفتاح غرفة وقاده اليها، كان يتخيل أنه سيكون لوحده، فهذه اول مرة يدخل فيها الى فندق، وارتضى مرغماً ان ينام بجوار رجل غريب ضخم الجثة وقذر الملابس، لم يتحرك او ينتبه من نومته رغم فتح المصباح عليه. كان يشخر بهدوء وانتظام، عاقداً يديه السوداوين على صدره المرتفع. لم يستطع حلمي النوم، وكان القلق يتناوشه من جهات مختلفة. أغمض عينيه بعد ان مل من النظر الى الوجه

المشعر والدسم للرجل الغريب. وفكر فيما يفعله عيدان وباقي اعضاء (منتصف الليل) الان. ما الذي سيقولونه عنه؟ هل سيسخرون منه؟ أم ان الامر كله عبارة عن مزحة كبيرة وخبيثة من صديقه العزيز. توقف لثوان مع الخاطر الجديد الذي مرق في ذهنه. فلربما لم يكن الامر سوى مزحة ثقيلة فعلاً. عيدان يهيء لصديقه العزيز مفاجأة ليلية، سهرة داعرة وصاخبة، كان سيرفض حلمي الذهاب اليها لو فاتحه بأمرها مباشرة. ولكن لا، لن يستطيع مغالطة نفسه اكثر. عليه ان ينام، وليحدث أي شيء. وليذهب كل شيء.

- 74 -

ـ أترين؟.. لم يعد .. كل هذا بسببك، أنت التي ألححتي علي لأغضبه.

ـ لماذا لم تفتحي له الباب اذن؟ أم انك تريدين رمي مصائبك على رأسي؟

ـ لم يعد.. لقد مضى اسبوع ولم يعد.. أين سأسأل عنه؟ هل أذهب الى اهله؟ هل ترضين أن اذهب الى اهله وأسألهم؟

ـ لا اعرف.

ـ يجب ان تعرفي.

- 75 -

ـ هل مر عيدان اليوم؟

ـ لا .. ولكن الاستاذ رسول كان هنا، تناول افطاره ثم خرج.

ـ وأصدقاءه.. أتعرفهم.. هل مر أحد منهم الى المقهى خلال الايام الماضية.

ـ لا .. لم ار اي احد.

- 76 -

ـ أنا أعمل في مخبز الامين، هناك وراء سوق هرج.

ـ وكم يعطوك؟

ــ أذا اردت العمــل فسأســأل صــاحب المخبــز. هــل انــت محافظات؟ أين أهلك؟

- ...

- 77 -

بعد ان تناول حلمي طعام الغداء مع صديقه السمين ذي الوجه القذر كثير الشعر، أستأنف عمله في نقل (طاوليات) الخشب المليئة بقطع العجين الى جوار الفرن، حتى غربت الشمس. كان كتفاه يئنان، وساعداه، ولم يعد يستطيع السير باسترخاء كما كان سابقاً، لكنه سيعتاد على ذلك، ان اراد نسيان كل شيء. كان قد فكر عصر هذا اليوم بجميل گيطان، وتذكر جواب زوجته له: (أنه يعمل في النهظة ليلاً، لديه جنبر سجائر)، عاد الى فندقه، وأغتسل من رذاذ الطحين، وارتدى بعد العشاء ملابس نظيفة، ثم ركب من باب المعظم بأتجاه النهظة. وحين نزل هناك، أبتدأ يفتش عن صديقه بين الجنابر المصفوفة أمام الگراج. تأمل الوجوه المطلة من خلف علب السجائر المتنوعة، لكن صديقه لم يكن موجوداً. ربما غير من دوامه او ترك هذا العمل. دخل مع جنود ورجال ونساء متلفعات بالسواد الى داخل الگراج، وتذكر وهو يرى السيارات الطويلة الواقفة في اماكنها على طول الكراج وعرضه، عصر ذلك اليوم البعيد الذي نزل فيه هنا أخر مرة، كان حينها متلهفاً للعودة، واوقف على عجل، خارج الكراج، سيارة اجرة يقودها سائق عجوز معتم الوجه، وقال له بلهفة وحنين:

ـ لمدينة الثورة.. الچوادر.

نظر الى جنابر الحب والسجائر داخل الكراج، لكن، ما من اثر لصديقه جميل. هل سيذهب اليه في زقاق السادة، ولكنه لا يريد ان يرى اياً من افراد عائلته، ولا يريد ان يرى ندى بالذات. سيعاقبها بهذا اشر عقاب.

لقد قادته الصدفة وحدها لكي يعمل في مخبز الامين، بعد حديث غير مشجع مع زميل غرفته السمين. ولولا خشيته من

نفاد نقوده القليلة لما رضي بهذا العمل. وعليه الان ان يجد صديقه القديم فلعله يملك حلاً يخرجه من هذا العمل المؤقت.
وقف على احد الارصفة داخل الكراج وبدأ يدخن، وهو يخير نفسه بين الذهاب او البقاء ليبحث بشكل افضل عن جميل.
وحين القى لفافته المنتهية وزفر حسرة دخان مديدة، نقر أحدهم على كتفه. التفت، وتأمل هذا الغريب الذي بدا مبتهجاً ويفرد ابتسامة عريضة على وجهه:
ـ أني مسافر.. أما عرفتني؟
ـ مسافر.. يا لعين.
أحتضنه، واطلق ضحكة حبيسة في دهاليز روحه، وظل مسافر يربت على ظهر صديقه بمرح، ويهزان بعضهما بحميمية وشوق وهما يضحكان.
قاده الصديق المنبثق من عمق الذاكرة الى مصطبة أحدى بائعات الشاي خارج الكراج، شربا الشاي، واعطى حلمي صديقه سيجارة، لكن مسافر أمتنع واوضح له بأنه لا يدخن.
ـ الم تكن تحش السجائر حشاً في المستشفى؟
ـ ذلك لأنها كانت ببلاش ياصديقي؟
قال مسافر ذلك واطلق ضحكة مجلجلة. ثم بدأ يسأله عن شؤونه وأين انتهى به الحال، وبادره حلمي بالاسئلة نفسها:
ـ ها.. هل حققت شيئاً؟.. أتتذكر كلامك القديم؟
قال حلمي بعينين عاد اليهما اللمعان من جديد، فأجابه مسافر أنه تزوج ويملك مع بعض اقربائه معمل خراطة صغير يعمل فيه الان.
ـ هل تزوجت أنت؟
سأل مسافر بدوره ، فأومأ حلمي برأسه، ثم كأنه تذكر مشاكله اوقد سيجارة جديدة وبدأ ينفث الدخان فوق اباريق الشاي الضخمة. صمت للحظات ثم نظر الى صديقه القديم، وسأله ثانية عما يفعله هنا في النهظة، وأين هو ذاهب. مد مسافر يديه وتثاءب ثم قال:
ـ أنا ذاهب الى اهل زوجتي في چمچمال. لقد ارسلتها الى هناك منذ شهر.

مرت ساعة او اقل، امضاها الصديقان بالحديث في شؤون شتى، ثم دخلا الى الكراج ثانية، وامام سيارات كركوك، ذكر مسافر لحلمي عنوان معمله وكيف يمكن ان يصل اليه. ورغب حلمي لو أن لقاءهما استمر لفترة اطول لكن صديقه بدا مستعجلاً، ولم يكن من اللائق تأخيره أكثر من ذلك.
عاد حلمي الى فندقه، ونسي او كاد هدفه من الذهاب الى كراج النهظة. كانت مفاجأة لقائه بمسافر قد رجت ذاكرته، وطوحت به بعيداً.
ـ أتتذكر الممرضة.. هل تتذكرها؟
هل سأله ذلك ام أنه اراد سؤاله ولم يتشجع؟ وجد رفيق غرفته السمين القذر يجلس على فراشه يشرب من زجاجة قاتمة وضعها على المنضدة بين السريرين، وصوت سعدي الحلي يملأ بثقله قتامة الغرفة.
ـ أية ممرضة؟
ـ نـود
ـ أا.. يا اخي، وما الذي ذكرك بها؟
يصب الرفيق السمين من الزجاجة القاتمة ويقرب كأسه من حلمي، فيأخذها وتغوص قدماه في وحل الذاكرة، وتتزلق خطواته، يحاول النهوظ لكنه جسده المتشنج من ألام العمل في المخبز يرفض الاستجابة، تتمرد ذراعاه، وتتراخى مفاصله العجينية.
(أنا تأخرت في الفرن، واحترقت، لكنك ما زلت للأن عجينياُ)
ـ هل كانت متزوجة من الدكتور هاريسون أريگا حقاً يا مسافر؟ هل هي زوجته؟
ـ وما ادراني، انت تتذكر اشياء قديمة، كم مضى على هذا الموضوع؟
ـ خمس أو ست سنوات، ليس بالشيء الكثير.
ـ حقاً. لكنك ما زلت للآن تحبها، اليس كذلك؟
ـ ليس بالضبط، أنا اتذكرها مثل حلم شفيف.
ـ آه .. ما زلت تستخدم هذه الكلمات، لم تتغير كثيراُ.
(يا يا به)..

كلمة حبيبي انتهت
شختارلك كلمة
وانته بحلاتك شعر
وأبمشيتك نغمة.
(يا يا به)
يسوط الصوت الثقيل من المسجلة الهواء المحبوس في الغرفة، ويفتت الضوء المتخاذل من المصباح الوحيد خلف خيوط العنكبوت السوداء، والرفيق السمين يضرب فخذه الرجراجة بحسرة، لكن شفتيه ترسمان أبتسامة ثابتة، ويقرب كأسه من حلمي.
ـ هل أصبح لديك أبناء؟
ـ نعم، لدي ولد اسميته وطن.
ضحك مسافر لما رأى حلمي يبتسم من جوابه، وأعطى بائعة الشاي ثمن ما شرباه، ثم نهظا مشيعين بأبتسامة فضول من وجهها الليلي.

- 78 -
يسقط طاولي العجين من يده للمرة الثانية، فينظر اليه رفيق غرفته السمين بأشفاق، ولا يستطيع وهو مقيد الى الفرن فعل أي شيء له، يدخل العجين ويخرج الصمون الساخن، ويسمع صاحب الفرن وراء منضدته يشتم الايام والشغل البائس. يحاول أن يخفف عنه بالسخرية، لكن صديقه النحيف ذا الشعر الاشقر والعينين الزرقاوين يبدو منطوياً وغائصاً في ذاته. يحتضنه اخر الليل بمودة عقب ضحكة يتيمة، لكن الفتى النحيف ذا العينين الزرقاوين يرتاب من كل بادرة يصدرها هذا الغول العفن ذو الضحكة الداعرة. ويفكر ملياً في رسول الكاتب ومقهى أم كلثوم، ولكنه لا يستطيع ترك عمله في الفرن نهاراً، وأن اراد ذلك فعليه ان لا يرجع ثانية. عليه ان يعود الى الشارع، كما يقول صاحب الفرن دائماً للعمال المراهقين في الفرن.

ينقلب رفيق غرفته السمين، ويئز السرير تحته، انه يتقلب اثناء الليل كثيراً. من اين جاء، وهل لديه اهل؟ وأين يلبي غرائزه الاخرى؟ أنه يكاد لا يفارقه من ساعة افطارهما تشريب الباقلاء بالدهن عند أحدى المطاعم فجراً، وحتى عودتهما ليلاً الى الفندق. يبدو منسجماً ومتوافقاً مع عالمه الضيق.
يتخيل او أنه حلم بذلك فعلاً، الرجل الغول ينهظ عاري البدن، والشعر الدهين يغطي كل جسده، ويعتلي سريره، ثم ينكب عليه كاتماً انفاسه، يراوده عن نفسه. والفتى الاشقر النحيف ذو العينين الزرقاوين يحاول التملص من قبضته، دون فائدة. يصرخ، لكن صوته لا يخرج من فمه، او ان كل من في الفندق نائمون، ولا يسمعون او يكترثون لأي شيء.
يستيقظ صباحاً، ويرى سرير رفيقه فارغاً، وحين ينهظ ناظراً من الشباك المغطى بشبكة من الاسلاك نحو فضاء المنور الداخلي، يرى نوافذ الغرف الاخرى، ويعجب لأنها مفتوحة على مصراعيها امام الشمس، لا مشبكات حديدية ولا قضبان. اشخاص يرتدون الفانيلات يحلقون لحاهم على مرايا دائرية معلقة على الشبابيك، وشخص يلعب التمارين السويدية على الضوء المنبعث من الشباك. شخص تؤطر حدود النافذة هيأته الانيقة وهو يقرأ على ضوء الصباح، كأنه صورة اخذت في الستينات.
يتعرض للتوبيخ من صاحب الفرن، وحين ينفرد بصاحبه السمين، يسأله بانزعاج:
ـ لماذا لم توقظني؟
ـ كنت متعباً، لقد شربت البارحة كثيراً.
ـ من الذي شرب؟.. أنا؟

* * *

ـ أليست هناك اخبار عن الجماعة؟
ـ لم يأت الى المقهى أي احد منذ زمن.
ـ والاستاذ رسول؟
ـ يقولون أنه سافر، أو ربما مات.

يضحك العامل، ولا يفهم حلمي شيئاً.

- 79 -

ـ هل جاءتك العادة يا بنيتي؟
ـ نعم.
ـ الحمد لله، لم تحبلي من هذا المقموع.
ـ لماذا تتكلمين عنه هكذا، ماالذي فعله لك؟

تدخل مختنقة الى غرفتها. وامام مرآة ميز التواليت العتيقة تقف، وتتأمل هيئتها، تحدق في الهالتين حول عينيها، ثم تشيح بوجهها بعيداً، وكأنها ملت من هذه النظرة الساكنة. نزعت ملابس عملها. وتنسمت مسامات جسدها لفحة برودة خفيفة، جعلتها تسحب شهيقاً بطيئاً. تذكرت تحرشات العامل الذي يجاورها على الماكنة في معمل الخياطة. تألمت لنفسها لأنها غير قادرة على المجابهة طوال الوقت. أخرجت نفنوفها الصيفي ذا فتحة العنق العريضة ورجعت لتجلس على الصفيحة المغطاة بالوسادة امام ميز التواليت. كومت النفنوف في حجرها، وتأملت عنقها وصدرها، تلمست ذراعيها بهدوء ، ومرت بكفيها الخشنتين على فخذيها وتأوهت. تناهى اليها صوت قرع منتظم من عربة نفط مرت في الزقاق، وهبت من الباب المفتوح ريح فاترة تبشر بصيف لاهب. نظرت الى اعلى المرأة على الحائط، الى صورتهما معاً، التي أخذاها في ستوديو ابو سهى. الى ابتسامتها، ونظرات عينيها الثاقبة، والى عينيه الناعستين، ومسكته المرتخية لخصرها.

(ندى طالعة عليًّ، ذكية وتشبهني)

تذكرت كلام ابيها. أنها ليست قوية الان. أعطت لأمها راتبها الشهري، وظلت واقفة بجوارها تتأملها وهي تفتح الكنتور بمفتاح معلق بطرف شيلتها، وحين أز الباب الخشبي، شاهدت ندى أغراض امها المبعثرة، وستر ابيها المصفوفة بأنتظام في عمق الكنتور. وهناك، في الاعلى صندوق صور العائلة، وبجواره فوط وملابس قديمة وصرر صغيرة. اقتربت ندى من امها وهي تحصي النقود، وقلبت عينيها في موجودات الكنتور.

تشممت رائحة عطور قوية، وتلمست بيدها النحيفة صندوق الصور، والفوط السوداء. رفعت منديلاً رطباً، وقربته الى الضوء، وتأملته.
ـ أنه منديل ابيك.
قالت لها امها بوجه متهدل. ثم نظرت الى صورته الشاحبة والمتربة على الجدار، وقالت بحسرة:
ـ لا اعرف يا بنيتي، هل هو مبلل هكذا على الدوام، ام أنني خرفت.
أخر الليل، كانت تئن لوحدها على سرير فارغ. تتخيل حلمي بجوارها، تتذكر معابثاته، وكلماته البريئة:
ـ أنا فرحان.. فرحان.
كان يصيح في العتمة، وهو فوقها،وتحتها، وبين يديها، وكانت تضحك، وتتيقن أكثر فأكثر، انه رجلها/ طفلها الذي بحثت عنه. أنه يلائمها أكثر من اي كائن اخر في الكون. أنه دميتها الجميلة، وشيطان ليلها الطويل.
في ليلة عرسهما، نزعت الخاتم الفضي ذا فص العقيق، واعطته اياه:
ـ لماذا تعيدينه الي؟
قال بأندهاش.
ـ لقد أنتهى الحلم ، نحن الان معاً، أننا لا نحلم.
قالت ذلك وعيناها الساكنتان مثل عيني فيروز في (بغداد والشعراء والصور) تفتحان له فضاء بهجة لا حدود لها.
بعد ان لم تستطع تحمل قلقها عليه، او على مصيرها معه، عاودتها الفكرة الاولى التي طرقت رأسها حين احست بأن غيبته طالت اكثر مما يجب. بعثت بأختها الصغيرة منى، عصر احد الايام الى بيت اهله. طرقت البنت الصغيرة الباب الذي وصفته لها ندى، وانفتح لها فجأة، ولأنها أخبرتها أن تسأل أي احد يفتح لها، بادرت منى من فورها:
ـ آني منى، اخت ندى، زوجة حلمي. ندى تقول، ماكو اخبار عن حلمي، حلمي لم يعد منذ اسبوعين.
ـ فلتذهب وتبحث عنه، وترى أين فقدته.

أجابها الوجه المبهم، وصفق الباب بوجهها.
قربت منديل ابيها المبلل من انفها، وضعته مثل كمادة على وجهها. أنها ليست قوية الان، ولا تستطيع مقاومة البكاء اكثر من ذلك. فلتبكي، ما دامت بعيدة عن اعين الاخرين، فلتذوب نفسها في هذا البكاء القاتم واللجوج، فمن الذي سيعرف على اية حال. أن خبرتها بالراحلين عنها تنبؤها انه لن يعود، سوف لن يعود.
أشفقت على دموعها المالحة من الانحدار الى الوسادة، فتلقفتها بمنديل ابيها الرطب.

- 80 -
أستيقظ عند الظهر، ووجد الشمس قد دخلت من النافذة المشبكة، قادمة من اعلى المنور. لم ير هذا المنظر سابقاً، لأنه لا يكون في الغرفة عادة في هذا الوقت. تذكر في الحال انه تأخر عن عمله، تأخر كثيراً. ولكن، لماذا لم يوقظه رفيقه السمين؟
اراد ان ينهظ، لكن جسده لم يسعفه. شتم في داخله هذا الجسد الذاوي، وتخيل دون ان يعرف لماذا، انه لو كان مواطناً المانياً في الحرب العالمية الثانية، لتخلص منه هتلر مبكراً.
تأوه على وسادته، واحس بسكاكين كثيرة تنغرز في احشائه، وكأن هذه الالام أستيقظت معه للتو. وقبل ان يقرر شيئاً، كان قد عاد الى النوم مجدداً. حين فتح عينيه ثانية، شاهد الوجه المنتفخ الاسود كثير الشعر بجواره يتمتم بكلمات مبهمة، ثم غطت كمادة باردة وجهه، فأغمض عينيه، وغاب ثانية.
ـ لقد شربت كثيراً البارحة، انت هكذا، في البداية تمتنع، وتنظر الي بفضول، لكن ما ان تأخذ اول رشفة حتى تستمر في ذلك.
ـ من هي ندى، ومن هي نود، ومن هي نادية، لماذا تذكر النساء دائماً قبل ان تنام؟
شاهدها تسير بجوار شاب طويل مسترسل الشعر يرتدي بنطلون جينز وسترة جينز وحذاء من جلد البقر. صاح عليها، لكنها تجاهلته، ركض اليهما، لكنه كمن يراوح في مكانه. كانا

يسيران ببطء، مثل من لا يعنيه الوصول الى مكان ما، قدر عنايته بالسير مع حبيبه او حبيبته. صاح ثانية، فحوط رجل الكاوبوي ندى بيديه، كأنما ليغيضه، ثم دنا امام مرأى الجميع من شفتيها، وانحنى ليقبلهما.

ـ هذا لديه التهاب الكبد الفايروسي.

ـ لديه تشمع في الكليتين، انا اعرف هذا المرض، اخي طبيب اعشاب.

ـ لا هذا مصاب بمرض غريب، يسببه اليورانيوم. أنه احد ضحايا الاعتداء الامريكي على قطرنا العزيز.

(مائة وخمسون ألفاً وانقلك الى خارج الحدود). من اين يجلب هذا المبلغ؟

(مشكلتك النقود أليس كذلك؟.. أجلب نقود.. تحصل على نقود) فرك خاتم الفضة على اصبعه النحيف، وتأمل البريق على فصه العقيق، انه يلائم أبهامه أكثر من اي اصبع اخر في يده العظمية.

ـ أنه خاتم ثمين، ورثته عن جدي كشاش، كان قد أشتراه من مؤذن الحرم المكي مع وسادة من ريش النعام.

ـ أأ .. أنا اريد ريش النعام. سأعطيك مائة وخمسين الفاً لو جلبت لي الوسادة.

يتضخم الحزن في داخله، وتتدحرج هظيمته على شبابه الذاوي مثل كرة ثلجية على سفح معتم، حدق الى المتهمين من خلال عدسة مكبرة، أمه وجدته وقسوة ابيه، وندى التي لم تحبه في يوم من الايام. فيستيقظ الزئير الساخر لذلك الاسد العجوز في داخله :" لا أحد يكترث لك يا عزيزي، فلا تفكر كثيراً".

تدخل نودت هاريسون أريگا الى غرفة العمليات الجراحية، ويكون مغشياً عليه، لن يكون هذا لقاءهما الاول، سترى جسده المسجى مثل مسيح أنزل تواً من الصليب، وتتذكر نصف التفاحة المفقود في حكايات طفولتها.

ـ لا اريد مرضى او ميتين في فندقي.

يقول صاحب الفندق ومن خلفه عامل الخدمة المصري، ويحتد الغول السمين قذر الوجه:

ـ أنا اعالجه الان، ألا ندفع لك ايجار الغرفة؟.. ما المشكلة؟
يتراجع صاحب الفندق خطوتين، ويلهي نفسه بتأمل الغرفة الكئيبة.
ترميهما السيارة في نقطة غير محددة من الليل بعيداً عن الشارع العام، وتستدير لتعود مطفأة الاضواء. الجو بارد هنا، رغم الغليان النهاري للصيف المبكر.
ـ ستجدون قبل الفجر سيارة هناك تنتظركم. حين يوصلكم بأمان، اعطوه نصف المبلغ المتبقي.
أذا عاد بالنقود، سيتمكن من اصلاح كل شيء، أنه مشتاق منذ الان الى وجه جدته، الى النظر الى صلعة ابيه اللامعة، والوشم الصليبي في حنك والدته، الى اطفال سناء، ووليدها الصغير (سلام)، الذي قالت الجدة يوم ولادته: (انه يشبه حلوم، كأنهما حبة مقسومة الى نصفين). مشتاق الى حضن نود الخائنة:
ـ أنها متزوجة يا صديقي، كيف ستذهب معها الى أميركا، من قال لك ذلك؟
ـ ألن تذهب أنت أيضاً.
ـ لا .. لدي بلد.. لماذا اتهجول في الغربة؟
ـ سأذهب معها الى اميركا يا مسافر، سنتزوج، لأني حلمت بذلك.
ـ أنها زوجة الدكتور هاريسون اريگا. الم تقل لك ذلك؟.. أنها امرأة الاميركي ياعزيزي ولن تكون لك. هل تفهم كلامي؟
- ...
ـ يا خدا.. چكم وي أي مناله.(*)
ـ ماذا تقول؟
ـ لا شيء.
صاحب المعمل يغلق الباب بقدمه ويطرحها ارضاً وهي تضحك، بينما هو هناك أمام التة الجهنمية، ينسى يديه على الشريط المتقدم الى فتحة الالة، وتنغلق كل المنافذ في ذهنه مع انغلاق الباب، فتروح يداه وتتغلفان، ثم يدخل بأجمعه الى الالة الجهنمية، ويرى بعينين ساكنتين مثل عيني مخدر او ميت

السوليفان الملون بعبارات الشركة يمر على وجهه. يخرج من الجهة الاخرى مغلفاً ومسلفناً كيوم ولدته امه. تأخذه يد عاملة سمينة، يكتشف انها الحاجة امينة، وتضعه مع اخواته الاخريات من قطع الشوكولاته في صندوق ورقي.
يهبطان وهدة ترابية مكسية بالاشواك، ويمران وراء وهدة اخرى، وحالما يكونان امام سهل فسيح تبين من ورائه نقاط ضوء صغيرة مثل نجوم متراقصة، يسمعان صوتاً مألوفاً، لمحرك عجلة، يتلفتان ولا يريانها. ثم تنفتح في وجهيهما فجأة مصابيحها القوية. يركضان بدافع غريزي نحو جهة غير محددة. وحين تغيب مصابيح السيارة يتلفت ولا يجد رفيقه. يأخذه الخوف،ويبقى يركض لوقت غير معلوم، ثم يهده التعب، فيبرك على الارض المعشوشبة، وتنغرز شوكة وقحة في ركبته اليسرى. يتأوه، وتمتد يد نودت هاريسون وتضغط على جبهته فيصمت.
ـ أنه ضحية جديدة، يجب ان نضعه على بيكب ونحوطه باللافتات، ونمر به من امام لجنة الصليب الاحمر والهلال الاحمر، ومكتب الامم المتحدة، ومنظمة حقوق الانسان. يجب ان يعلم العالم أجمع بجرائم الحضارة البربرية الامبريالية.
ـ أنه اشقر وعيونه زرق مثل الاميركان.
ـ لا .. أن وجهه يشبه وجه الجنود الاميركان المصابين بمرض لعنة العراق.
ينهظ، ثم يستهدي ببوصلته الداخلية، لكنه يكتشف ان ذلك خرافة لا اكثر. ليست هناك اية بوصلة داخلية. أين الشمال والجنوب، اين النجمة القطبية. لقد كذبوا علينا في المدرسة، ليست هناك اية نجمة قطبية. يسير لا اكثر. لن يفرق معه الامر كثيراً، انه يسير دائماً، وفقط. ها هو عارٍ من اي شيء، يواجه نفسه كما عرفها اول مرة. هاهو في (الان) نفسه. لم يكن يستطيع مغادرة (الآن)، كان طوال الزمن الماضي يوسع جدرانها لا اكثر. حدق في العتمة، وعاودته رهابات الطفولة، بكى، ونشج وهو يمشي في العتمة، ومسح السائل اللزج عن شفته العليا، دعك عينيه الدامعتين بردنه، واستمر يمشي،

والالم يتزايد في ركبته اليسرى. ثم لم يعد يقدر على المشي والبكاء معاً، عليه ان ينتهي من احدهما اولاً. توقف غارزاً وجهه في كفيه. مفرغاً ما في صدره من حرقة ولوعة. ثم جثا على ركبته اليمنى، وأنزل كفه اليمنى على الشعر المترب لعبد الله الاكبر المسجى في حجره . وحين أنتهى لطم المقاتل في اذنيه، رفع يده عن وجهه المبلل ونظر الى الطريق امامه، وشاهد كلباً اسود يقف على مبعدة منه يراقبه بصمت.

(حَـلـَمْ بالحوش يتگلب. .

عطية وجاية من الرب.)

يقف محمد بوجهه الاسمر وشعره المشعث ودشداشته البازة المقلمة عند رأس الشارع ، ينتظر الحافلة 88، لأن حلوم الصغير يبكي كل صباح بعد خروج الاب. تظهر الحافلة 88 عند المنعطف، وتتهادى بزئير مكتوم مشعة بلونها الفاقع وهيأتها المهيبة. انها اعلى من كل السيارات. كأنها عمارة. يقف الاب بتنينه الاحمر ويضحك بوجه صغيره الذي البسته امه ملابس العيد الماضي. يركض حلوم اليه، تاركاً يد ابن عمه المراهق، وينادي بلهفة على ابيه خلف النافذة العالية. يفتح الاب الباب، ويركب حلوم بجواره، ويتركه يمسك بحافة المقود الكبير. يرعد المحرك الضخم للحافلة، فيدق قلب الطفل الصغير، وينظر من شباك السائق الى محمد، تبتعد الحافلة، أو ان محمد يبتعد بوقفته على الرصيف. تبتعد منطقة الحافلة، والسابلة وبائع السجائر، والدكان والبنچرچي والبايسكلات، والاطفال الذين يلعبون الدعابل. تدور الحافلة بالطفل السعيد دورة كاملة، تمر به في السوق، ويهتز طرباً مع كل دوسة كابح مفاجئة، يرى اطفالاً اخرين، ونساء يحملن سلال الخوص على رؤوسهن، يرى بائع الشعر بنات، وتهفو روحه الى طفل يلعق الايس كريم، يدور الاب بطفله الوحيد في الشوارع، ويراقب الساعة الدائرية المعلقة أمامه. وعند انتصاف النهار، يعود الاب الى نفس المكان. ينزل طفله على الرصيف بجوار محمد، والذي بدا وكأنه لم يغادر مكانه، ويصيح عليه (وديه

للبيت). يرجع الطفل مبتهجاً وفي يده بالوناً غازياً مربوطاً بخيط طويل.
وعند العصر، يبكي حلوم، لأنه يترك وفي لحظة غير مفهومة، البالونة تفلت من يده. أمه تربط خيط البالونة دائماً في سبابته، ولكنه سرعان ما يمل من ضغطة العقدة على أصبعه، يفلها او يقطع الخيط باسنانه، ثم ينظرالى الجسد المتوتر اللامع للبالونة وهي تغادره مخترقة الاجواء الى الاعلى. يستغرق في متابعتها وهي تتلوى مثل السمكة، حتى تغيب وراء الغيوم الشاحبة. تسمع الام وهي في المطبخ صراخ إبنها، فلا تقطع اشغالها، لانها تعرف انه ترك البالونة من جديد.
يلعبان فوق السطح، والشمس الشتائية تلسع جسديهما بلذة. تنزل الام بعد نشر الملابس، تاركة ابنها وابنة عمه يدخلان تحت الفرشات المنشورة على الستارة الحجرية ويخرجان من الجهة الاخرى. وحين ينتبهان الى نزول الام. يدخلان من جديد تحت الفرشات، وهما يقلدان صوت القطار. لكن الفتاة تجلس متكئة على الستارة ذات النقشة الاسمنتية المخرمة. يجلس بجوارها، مظللين بالفرشة الثقيلة، ويلعبان لعبة كل يوم!
ـ لقد تحركت سريتهم الى الجنوب.
قال محمد، فاستغاثت أم حلمي ورفعت يديها مولولة. صاح عليها الاب، لكنه لم يكن افضل حالاً منها، لم يعد ابنه في الاجازة الاخيرة، وقد أنقظت على غيبته ثلاثون ليلة. وفي دوامة توتره يأخذ الاب سيجارة من أبن اخيه، ولا ينتبه إلا بعد ان يلقي بعقبها الفارغ على الارض انه ترك التدخين منذ زمن بعيد.
ـ ما الذي تريده مني أيها الحيوان؟ هل تريد ان تقضم ساقي؟
ـ عليك ان تعود.. ما زلت صغيراً.
ـ اشر لي على جهة فاذهب من فوري.
ـ لا يهم أي جهة، المهم أن تفكر وانت تخطو.. انك عائد.
ضربت الطائرات الاميركية قاعدة الصواريخ التي كانوا يحرسونها. كان حلمي بسلاحه وخوذته قرب كرفانات الحراس حين انقلب كل شيء حوله رأساً على عقب. ومر وقت غير

معلوم قبل ان يستفيق حلمي من اغماءته ليجد ان نصف جسده غائب تحت ركام احجار واشلاء جنود وأغطية. وكان رأسه غاطساً في حافة مستنقع من الوحل والدماء. هزه الالم القادم من اطرافه السفلى، فكان اقوى من قدرته على التأوه او نطق اي شيء. أغمض عينيه، ولكنه فتحهما سريعاً حين سمع صوت مروحيات تقترب، وشاهد على صفحة السماء الغائمة جثثها السوداء تملأ مدى الرؤية.

ـ يا ولد.. انهض يا ولد، لقد تركت فرن الصمون، لقد طردوك من العمل انت ايضاً، انهض، لقد تعاركت مع صاحب الفرن، كنت موشكاً على ادخاله في الفرن، لولا ان الله ستر. انهض يا ولد.

أنه اشقر، أنه اجنبي، يشبه جورج مايكل، وصورة المسيح والسيدة العذراء على حائط التعاويذ في غرفة جدته، انه عجيني، لم تشوه الشمس ولا الفرن جيداً، وأبوه وعمه يشبهان صور الائمة داكنة اللون.

يحصره التلاميذ في الزاوية ويضربون بطنه وظهره ورأسه، وهو ينتظر سناء، متى ستدخل الصف، يمسك بيد أحدهم لكن ضغطته ضعيفة، يتأرجح بينهم منتظراً سناء التي تضربهم دائماً، وحين يتركوه، يولي الادبار هارباً من باب الصف. يقف تحت الشمس وتلمع فروة رأسه. ينظرون اليه بحسد، ويبصق بأتجاههم قبل ان يهرب ثانية.

ـ أنا مسافر ناظم خورشيد.

ـ انا حلمي سالم كشاش، جندي مكلف مشاة. السرية الثالثة، الفوج الثاني، لواء 426.

يأخذ سالم زوجته الى أم جابر قرب سوق العورة. لقد اولدتها في المرة السابقة. يذهبون جميعهم مع ناجي بسيارته الحكومية، ويقودهم بين الازقة حتى يصل الشارع العام، ثم يندفع على الاسفلت والام التي ضربها الطلق لا تستطيع كتم صراخها. وصياح ابنتها الصغيرة التي تركتها في بيت عمها يملأ اذنيها. عند الثانية صباحاً انجبت كتلة شحمية ضئيلة، أخافت للوهلة الاولى ام جابر الداية، ولكنها بعد ان طبطبت

عليه حمدت الله وشكرته. وفي الصباح، كانت العائلة كلها تحف بالام في غرفتها بجوار صينية وليدها الذكر، بينما الاب يفطر مع اخيه الكبير، وعبد الحليم حافظ يغني من المذياع: (احلم بيك انا بأحلم بيك..). تدخل نساء الجيران على الام، ليباركن لها ويسألنها عن جنس المولود، فتقول بعد تردد : انه انثى، أنثى ايضاً!

تدخل الجدة قسمة بعد ذهاب النساء، وترفع القماشة البيضاء الشفافة عن وجه الوليد، ترمقه بعينين ناعستين ووجه يابس، لكن، سرعان ما يظهر البشر على ملامحها المتهدلة، وتصلي على النبي وآله.

[وبعد ان انهى الكلب الاسود مقالته، رفع رأسه بشموخ، ولم يدنس لقاءه مع الولد الباكي بأية نبحة، ولأنه اطمأن الى أنقطاع النشيج، أستدار بخفة عائداً الى العتمة التي أنبثق منها.. .. ها ياحلوم؟!.. حلوم؟.. أتسمعني.. ؟

.. الحمد لله .. لقد نام اخيراً.]

ـ هل تسمعني يا ولد.. انهض.. أفق يا ولد.. انهض.. لقد طردوك من الفرن أنت ايضاً.. انهض.. انهض..

القسم الثالث

الهـارب

الساعة على الحائط
معطلة منذ العام الفائت ..
لقد أبقيتها هكذا..
تمثالاً ..
للوقت الشهيد.

***كوان شين طاو**

كنت اريد ان انهي القصة بشكل افضل، لكني في الحقيقة لا اعرف ماذا يعني (افضل). وأعتقد ان لوضعي النفسي علاقة بالامر. ربما لم يكن جائزاً أن يحضى بطلي بنهاية لم احض بها انا. فمثلما أنتهى بي الامر الى الاختلاء مع نفسي، كان عليه أن يختلي مع نفسه ايضاً، او داخل نفسه، لا فرق. وهل تستطيع الكتابة ان تعالج شيئاً او تغيره؟ لا أستطيع الجزم بذلك، انها تشكل في افضل الاحوال ما هو مشوش في التجربة، تجلوه، او تعيد توجيهه نحو افق ما.
فتح افق ما، أهذا ما توفره الكتابة؟ هل احتاج الى افق ما وانا في هذا المكان؟ وهل أستطيع التحكم في هذه المسألة القدرية : (حاجة الانسان الغريزية الى افق ما حتى لو كان خيالياً من أجل الاستمرار)..؟
كنت افكر دائماً ان على احد ما ان يقرأ ما اكتب من اجل ان أكتب اصلاً. فهل انا متيقن الان من هذا (الاحد)، وقد وصلت الى كلماتي الاخيرة؟ أم ان الامر لا يعدو كون (الاحد) الذي افترضه مجرد افق شخصي خيالي من اجل ممارسة شخصية جداً وغير مضمونة النتائج.

* * *

اراجع مخطوطتي، واتوقف عند بعض الحوادث، اغيرها، ثم اجترح حكاية اخرى، لكنه يرفع رأسه الي، ويشتمني، ثم يسلك في طريق أجهله، وابقى الاحقه وانا لا اعرف ما يدور في رأسه.
ـ ألست صنيعتي ؟ أنا وصديقي العزيز اباؤك.

ـ وهل سيستمر ذلك ابد الدهر، علي ان اشارك في مصيري على الاقل.
ـ وتحت اي سلطة تدرج تمردك هذا؟
ـ تحت سلطة المخيلة.

* * *

البرد قارص. كنت قد اغلقت فتحة النافذة المكسورة بجواري بلفة من الصحف، لكن خيوط الهواء الباردة تتسلل من حيث لا ادري. أحاول تشتيت ذهني وهو يندفع بصور متلاحقة، لأني اريد النوم، ولكن، عبثاً. أنا متعب حد اللعنة، متعب من التفكير، وأشعر أن رأسي قد غدا مقلعاً لنفايات لا حصر لها. تتدافع الصور دون ارادة مني، ثم تمر واحدة فألتقطها، لأنها قد تساعدني على النوم. (اللاشيء).. سأفكر في اللاشيء إذن. لأنه عدو الاشياء. اركز على اللاشيء. فتتحدب الاسهم الكهربائية المنطلقة من نقطة مجهولة في الرأس متجهة الى نقطة مجهولة اخرى. اركز اكثر، واتقلب تحت بطانياتي الثلاث. كانوا قد اذاعوا في نشرة الاخبار من مذياع أحد زملائي في الغرفة، ان درجة الحرارة الواطئة لهذه الليلة ستكون ثلاثة تحت الصفر، وهذا شيء نادر الحدوث في مناخاتنا القارية. اسحب الاطراف المتهرئة لبطانياتي الثلاث على وجهي، موقناً ان (معرفتي) بالبرد القارص الليلة لها دخل كبير في الارتجاف الذي يعتريني الان.
ولكن آه، لا يبدو التفكير في اللاشيء نافعاً لحالتي، ها ان وتيرة الاسهم المنحرفة تتزايد، وتضرب بعنف صفحة الرؤيا في صالة عرض النعاس، فترد في خاطري صورة بوذي متأمل، انه يفكر في اللاشيء كما يقولون، (أن اللاشيء هو مصدر كل الاشياء) تبرق هذه الجملة على شاشة عرض النعاس، ولا اعرف مصدرها. أن التفكير في اللاشيء يجلو الذهن أكثر، ويساعد الاشياء كلها على الحضور بصورة اسرع. هذه هي المعضلة .. يا للهول. ارق لهذه الليلة أيضاً، مع ثلاث بطانيات مخرمة، وثلاث درجات من البرودة تحت الصفر.

* * *

(أن ما لا ليس له معنى ، متفوق على الذي له معنى) أكتب هذه الجملة الفلوبيرية، واتذكر اللاشيء الذي خرب ليلتي الماضية. انا اتذكره، لأني لم استطع اليوم وانا اخرج للتعداد تذكر اي شيء اخر، صراع عنيف بارد ومعتم ومرضي مع اللاشيء، من اجل النوم لا اكثر.

أن ما تزرعه في النهار تحصده في الليل، لقد قال ذلك أحدهم، لكني الان غير معني بتذكر الاسماء. الجدال الذي دار بيننا انا وياسين وجاسم عصر اليوم الماضي هو من سبب ارقي. (ليس هناك شيء من لاشيء) قال احدهم ذلك ايضاً ولا اتذكره.

كنت قد افرغت كل ما لدي من كلمات، وأستمعت لهم طوال الاشهر الماضية، وانبت نفسي، وجلدتها، وعاقبت روحي اللائبة باشد ما لدي من لا مبالاة وقسوة، ولكن كل ذلك قد انتهى، لماذا يعودون دائماً الى النقطة ذاتها، لماذا لا يبحثون عن كلمات اخرى.

(الكلمات هي من تختارنا، لا نحن من نختارها) لقد قال ذلك احدهم، ولست انا. لكن ذاكرتي تشيخ وتتآكل، وأنا بدوري ادفع بأتجاه ذلك عن عمد. لم اعد أعبأ بالمقولات. وحين جلب لي اخي الكبير دفاتري التي اوصيته عليها في المرة السابقة، قلبتها كأنها لشخص غريب. قرأت مجموعتي الشعرية التي لم انته بعد من تحكيكها، وسخرت من نفسي لأني أنفقت جهداً كبيراً امام كلمة لن يعبأ بها احد على اية حال.

خططت بقلم رصاص على جمل كثيرة، واعتبرتها مقولات، تملك قيمتها من وجود اخرٍ ما، تماماً مثلما يحتاج عود الثقاب بالضرورة الى سطح خشن من اجل أن يكون عود ثقاب حقيقي.

لماذا لا يتركوني في حالي؟ لماذا لا يصمتون؟ أتخيل رجلاً أعجب بأمرأة، وهما في رحلة جوية، ويقرر بسرعة مع نفسه أن يقضي معها وقتاً جميلاً، وقتاً جميلاً لا اكثر. لكن الطائرة تسقط، ويكون هو مع هذه المرأة الناجيان الوحيدان. ولحسن او سوء الحظ يستطيعان السباحة والوصول الى جزيرة ليست

على الخريطة. بعدها يقضيان الخمسين سنة التالية مع بعض، ويكون الرجل مرغماً على نسيان أنه اراد ان يقضي معها وقتاً جميلاً. وقتاً قصيراً لا اكثر.

هذا هو حالي الان مع اصدقاء الصدفة. بدأت اتحاشى الجلوس اليهما، ولمسا انني اتقصد عدم مواجهتهما كثيراً. انهما لا يتوقفان عن إتهامي آناء الليل واطراف النهار، انا السبب فيما حصل لهم، أنا الذي أغويتهم، انا الشيطان الذي حوطهم وأزلهم:

ـ لماذا لم يأت حلمي معنا؟.. ها؟.. هل فرضت عليه شيئاً؟ كان حراً. لماذا لم ترفضوا انتم ايضاً؟

ـ وما معنى الحال الذي انتهينا اليه؟ قل لنا؟

ـ ليس هناك معنى.

صحت في وجوههم، وأنتبه الى جدالنا باقي النزلاء.. لكني أكملت دون اكتراث، مستعيداً نبرتي التي أنضجتها الشوارع والمقاهي والهواء الطلق:

ـ الوجود ليس له معنى، لا شيء هناك له معنى، لا معنى لنا، او لأي شيء، لا معنى لتكرار هذه المحاكمة كل صباح ومساء، لا معنى لكلامكم اطلاقاً.

* * *

قلبت، حال ذهاب اخوتي واصدقاء محلتي، الكتب والدفاتر التي جلبوها لي. فتحت الكيس البلاستيكي، وأخرجت الكتب جانباً، ثم تلقفت مخطوطاتي، قلبتها دون اهتمام ورميتها على الفراش. بعدها رفعت دفتراً غريباً، فتحته وعرفت في الحال انها (ملاك وحيد)، القصة التي أعطاني اياها حلمي ولم يسألني عنها ثانية. لقد دخلت في اغراضي خطأً، وكأنها تريد ملاحقتي، ومحاكمتي ايضاً.

* * *

سأقترح شيئاً اخر، من اجل الهروب لا اكثر، أنا لست في السجن الان، او انا في سجن ذاتي، كما يحب الرومانسيون أن يقولوا. أقرأ القصة التي اعطاني اياها حلمي نهار هذا اليوم، تتلاحق أمامي كلماته الناعمة والحمراء، وتخزني عميقاً، ما

الذي يكتبه هذا الولد، ياألهي، انه يتكلم عن شيء اعرفه.
لماذا قال رسول الكاتب عنها انها قصة سيئة، أنها ليست سيئة تماماً، أو انها بصيغة أخرى، تعنيني كثيراً، لذا لا املك حكماً نقدياً عليها.
(عليك ان تغير النهاية ربما ، كي تكون قصتك أكثر واقعية)
لماذا عليه ان يغير النهاية، أن هذا ما حصل في النهاية، لماذا علي ان اغير او يغير النهاية، انا لا استحقها، انا لا شيء. وهو لا يملك نهاية اخرى. أعرف ذلك.
أه..
ـ بدلاً من ذلك.. دعني اقترح.
يسحب رسول الكاتب شهيق دخان من ذراع النرجيلة، ويستغرق في التفكير لثوان ثم يفلت ذراع النرجيلة بثقة وينفث الدخان في وجوهنا ويقول:
ـ بدل ان تهرس البطل سيارة مسرعة، تمر السيارة بجواره دون ان تصدمه، بعدها سيعود الى شقته ويجد نود بأنتظاره وهي مبتسمة. يغلق باب غرفة النوم، بينما تحل هي الشريط الوردي الذي يربط جانبي ثوب نومها وتدعوه اليها.. هكذا هي النهاية الجيدة.
قال ذلك ثم قهقه ضاحكاً، وأبتسمنا دون ان نعرف سبب ضحكته الشائخة.
ـ لكنه فقدها الى الابد.. انا اعرف ذلك.
طفا صوت حلمي المرتج مثل صوت فتاة مراهقة، فالتفت اليه العجوز، وقد تغيرت نبرته، وبدأ يحاكمه بهدوء:
ـ وماذا تعرف أنت عن الفقدان؟ ما زلت صغيراً ولحمياً، ولد صغير فقس من البيضة للتو.
قال العجوز وفهمنا انه يحاول تشجيعه بهذا الكلام، ثم اكمل مستغرقاً مع نفسه وذراع نارجيلته:
ـ أما انا فلو وزعوا الفقدان الذي اعيشه على كل البورصات ومكاتب الصيرفة لأفلس العالم.
قال ذلك وضحكنا دون استئذان، وكنا نعرف السبب هذه المرة.

* * *

سألت عنه اخي الكبير، ولكنه استغرب من الاسم:
ـ حلمي! هل هناك احد اسمه حلمي حقاً؟
ـ أنه صديق لي من ايام الدراسة، انه صديقي الوحيد!
قلت ذلك، وكأني لمست الحقيقة دون قصد، الحقيقة التي كشفها لي هذا المكان جيداً.
ـ ولكنك لم تخبرني عنه سابقاً؟
قال اخي ، فصمتُّ، بعد ان أيقنت أن الكلام لم يعد ينفعني كثيراً.
في الليل قلبت اوراق قصتي ثانية، وفكرت: ماذا لو اصر الكل على عدم معرفته، ماذا لو انكروا جميعاً وجود شخص بهذا الاسم. سأخرج عاجلاً ام اجلاً، واذهب الى نهاية الچوادر، وادخل الى زقاق السادة. وحين اسأل عنه، او عن عائلته، لا يرشدني أحد. أبحث عن ندى، فلا اجد لها اثراً. حينها، هل سأصدق أنه لم يكن سوى شخصية خيالية في قصتي التي كتبتها؟

* * *

أكتشفت انني هنا قادر على فهمه أكثر من أي مكان اخر.تهاوت صور واشياء كثيرة كانت تشغلني في الخارج، وأستيقظت فجأة وبألحاح كل كلماته الخافتة وغير المسموعة، لم اكن انصت له جيداً، كانت الضوضاء حولي وفي رأسي، كنت جزءاً من الضوضاء ذاتها.
وانا الان حبيس الصمت الذي طفا بعد خفوت كل شيء، لكن نبرته المرتجة ترافقني، ولا استطيع القول ان ذلك يريحني، او يبعث الطمأنينة في روحي، انه يؤرقني، لذا، شرعت في الكتابة، كتبت قصائد، ومزقتها، لأن الضوضاء أنبثقت معها. عدت الى مسوداتي وشرعت بتمزيق كل شيء، سأعود الى نقطة صفرية قديمة، ولكني مع ذلك لم ارد الصمت، لأن صوته سينبثق حينها. امسكت بقلمي وشرعت في كتابة حكاية، أنتبهت بعد حين، انها حكايته، او حكايتي، أو حكاية تمزجنا معاً. بهذه الطريقة ربما سأخرج صوته من رأسي، لا اريد منه ان يجلدني هو ايضاً.

أن ذنبه الوحيد تجاهي، أثمه الذي جعلني لا اتشجع للقياه ثانية، هو انه لم يتغير، كان صورة قديمة عني، كان صورتي التي عملت كل شيء من اجل تمزيقها. صورتي التافهة التي ضننت انني رميتها ورائي، فوجدتها في نهاية النفق مثل مرأة ناصعة.

* * *

ولكني قلت منذ قليل، انني في سجن خيالي، ألا يمكن لي ان افترض ذلك؟ أنا هنا في غرفتي اتابع القراءة في قصة (ملاك وحيد) التي كتبها صديقي. يتأخر بي الوقت، لأنني اتوقف مع كل جملة واسرح بذهني بعيداً. أشعل سيجارة جديدة، وأذهب بعيداً، اتذكر (ن) التي فقدتها. أنه يكتب شيئاً يذكرني بها، انه يكاد يكتب قصتي.
ملاك وحيد.. هل هي أمرأة برزخية ما بين تحققها وأستحالتها.. أن (Node) تعني بالانگليزية المأزق، او نقطة اللقاء، او نقطة تقاطع مدارين. هذا ما استطعت قراءته في أحد القواميس.
هل كان يعي كل هذه الاشياء؟
انهي القراءة في دفتر صديقي، وأجد نفسي مخنوقاً، أغالب هجمة أحاسيس تافهة، أفتح الراديو، واحرك الموجات دون ان اقف على اذاعة محددة. وحين تفشل كل محاولاتي في أبعاد صورتها المستيقظة في اعماقي، ارخي رأسي الى الوراء واستسلم نهائياً.

* * *

أتذكر تلك اللوحة على غلاف احدى المجلات. يد ترسم بقلم رصاص يداً اخرى، ترسم هي بدورها اليد الاولى. تساءلت في وقتها عن اليد التي أبتدأت في الرسم اولاً، الخط الاول، والنقطة الاولى، وقادني ذلك الى تشعبات لا نهاية لها. لكن الذي تبقى من كل ذلك في ذاكرتي الان، هو يدان ترسمان بعضهما.

أفتح الدفتر وأحاول استعادة الرسم من ذاكرتي، ارسم، ثم أكتشف انني رسمت شيئاً جديداً. أتذكر، وأكتشف انني أعيد كتابة الاشياء في ذاكرتي.
لقد تلاشت لدي الحاجة للكتابة. لم يعد هناك سوى هاجس وفاء غير مفهوم لصديق غائب. أحاول الاقتراب منه والتصالح معه من خلال الكتابة.
أترك لكلماته الخافتة سلطة ان تتسلل الي، او الى الاوراق البيضاء، التي تركها فارغة في نهاية دفتر قصته (ملاك وحيد). أغرق نفسي في مهمة ليس لها معنى أيضاً، مثل جلوسي هنا، او أستماعي لمحاكمات اصحابي الطارئين.

* * *

.. بعد ان أختفت المروحيات من السماء الملبدة بالغيوم، تمكن من سماع صوت اخر، وقع اقدام كثيرة، وقعقعة سلاح، وهمهمات غير مفهومة تقترب بتثاقل. لم يكن يستطيع تحريك رقبته ليرى ما حوله، كان يرى السماء الرمادية فقط.
حين سحبوه، او أزاحوا الركام من عليه، كانت ركبته اليسرى مغطاة بالدماء تماماً، وحين أمرها بأن تتحرك لم تستجب له.

* * *

.. قالت له، ان في عروقك دماء انگلوساكسونية.
- بل انت من تجري في عروقها دماء سامية.
(هو من قال لي ذلك..) !
هل كان يجيد التحدث بالانكليزية؟ لا اعرف بالضبط، لكنه ردد امامي ولاكثر من مرة جملة أنكليزية ينسبها اليها:

you have a wilted eyes like sting of love -

والتي تعني حسب قوله (لديك عينان ذابلتان مثل لدغة الحب). أنها تشبه جملة من حوار في فيلم اجنبي، لم أستطع تصديق أن كل هذه الاشياء حدثت معه، لم يبد عليه انه مر بمحن كهذه.
قال لي يومها، ان الموظفين الدوليين عادوا اليه، وكرروا عليه الاسئلة نفسها،من أجل ان يحسموا الامر نهائياً. لكنه هذه المرة كان محبطاً. لقد فقد نود، بسبب صديقه مسافر. لقد حطم رفيق

غرفته الكردي، أملاً طفولياً كان قد استعاد من خلاله أجواء الحكايات الخيالية التي روتها له جدته.
ـ أنها للاميركي .. وليست لك.
من اين عرف مسافر انها زوجة الدكتور هاريسون اريگا، ولماذا صدقه بسرعة؟ ألان كل ما كان يدور في المستشفى يشير الى ذلك، أم لأنه لم يكن يصدق مع نفسه تماماً أنه يعيش حكاية طفلية؟
كرر الموظف الدولي بلهجة شامية سؤاله ، من اجل التأكد. لكن جواب حلمي جاءه ثابتاً:
" اريد ان اعود الى بلدي.. اريد بلدي.. لا أرغب بالذهاب الى أي مكـان اخر.

* * *

صباحاً، وجدت النافذة التي تطل على سريري مفتوحة على مصراعيها ، وغزاني ضوء صيفي، وايقظتني الايدي اللاسعة لدفء اول النهار. وحين نهظت دفعت البطانيات عن قدمي، ونظرت الى باحة السجن من النافذة، فشاهدت الشاعر كوان شين طاو يلعب التمارين الرياضية مع النزلاء الاخرين.
تذكرت مع نفسي،أنني أنتهيت من الكتابة ليلة أمس. سيتركني صديقي الان أستمتع بالسكينة، سيغادر منطوياً على اسراره الكثيرة الاخرى، التي لم يفصح لي عنها، ولم تسعفني الكتابة في أكتشافها. عائداً الى زقاقه، ومحلته، وجيرانه، واصدقاء طفولته. ولن أكون بينهم بالطبع. سأمر في خاطره ربما مثل طيف باهت لصديق جاحد يابس القلب. لكنه أكثر وفاءً مني، أنا اعرف ذلك، لقد سأل عني وتقصى أخباري، لكن المشاغل اخذته حتماً.
نظرت الى قصة صديقي التي كتبها عني، كما افترضت ذلك، ومررت سريعاً على الحكاية التي كتبتها عنه في الصفحات البيضاء الفارغة من الدفتر، فأنتابني شعور بأنني أنجزت شيئاً من (حس التوازن) مع العالم الخارجي، سددت شيئاً من ديني لشخص يمثل لي الان شاشة حياة ماضية.

أتخيل أنه سيقرأ ما كتبته كتتمة لقصته، سينظر الي بعينيه الذابلتين، وتنبئ ملامحه أثناء القراءة عن حيرة غير مكتملة. لكنه سيطوي الدفتر في النهاية ويعطيه الي قائلاً كعادته:
ـ أنها قصة جميلة .. لماذا لا تنشرها؟

* * *

ربما استفاق من الحمى استجابة لرجاء الغول كثير الشعر، او سلك طريق العودة بعد لقائه بكلب حكايات جدته الاسود. أتخيله الآن مع ندى او نادية أو نود، ينتظر ولادة طفلته التي تشبه حتماً الجدة العجوز قسمة، لا لشيء إلا لأن ذلك كتب في الازل: أن من يلتقيان في البدء، يستمران في ذلك، يعبران الامكنة ويطويان الزمن، تفرقهما الصروف والمحن، لكنهما يلتقيان ثانية، ليعيدا امراً كان قد حدث قبلها لآلاف المرات.

* * *

[لقد أنجبت ثمرتنا. السيد هاريسون أريگا يعتقد ان المولودة أبنته. لقد اسميتها (ice-maw)، على أسم جدتي التي تعود بأصلها الى الهنود الحمر، ويعني (حوصلة الثلج). أن لديها ثقباً في القلب، ولكنها ستعيش. اعرف ذلك.
هل تتذكر تلك الليلة؟ ما زال خاتمك معي، يذكرني دائماً أن لقاءنا لم يكن حلماً].
(نوديت هاريسون اريگا
ولاية ميشغان/ الولايات المتحدة.

* * *

عند الثانية فجراً هبت الرياح لتقرقع الاواني المنسية في باحات البيوت، وتأخذ الثياب المتروكة من غير مشابك. ترتجف أجساد الخيل شبه النائمة في زقاق البودراج، وتموء القطط التي حركتها غرائزها للتسكع بعيداً عن مخابئ نومها. ينبح الكلب البوليسي لرزاق الامير، ويصمت، ثم يكرر نبحاته المتضايقة من شيء مجهول، ويدور بسلسلته الطويلة على سطح البيت المبلط بالكاشي. ما سوى ذلك، تنفرد الريح القوية

بعـزف مقطوعتهـا الليليـة داخـل التجـاويف التـي تصـادفها، وتستمر في ذلك حتى انبلاج الفجر.
عنـد ضـحى اليـوم التـالي، كانـت ناديـة علـى السـطح تجمـع الملابس الرطبة بسبب امطـار ليلـة البارحـة. تنظـر الـى السماء الشاحبة، وتشاهد ثلـة مـن الغربـان تـدور حـول بعضـها بزحـام شديد في اعلى السماء، وتنتبـه الـى أنهـا جميعاً ترتـدي قمصـاناً بلـونين ابـيض واسـود. ترفـع قميصـاً لأخيهـا محمـد مـن علـى الحائط الفاصل بين البيتين. وتنظر من وراء الحائط، الى سطح بيـت عمهـا، فتـرى فوطـة والـدتها جاثمـة علـى البيـت الطينـي المتهدم لـ (حِيوان). والتي أخذها الهواء من الحبل اثنـاء الليل مع ملابس اخرى .
تعبت من الصياح علـى أبنـي أخيهـا، وهـي ترجـوهم ان يقفزوا الى سطح البيت الاخر، ويلموا الملابس من عليـه. أرخـت يـدها على الستارة ناظرة الى بيت صديقتها السمراء، وعزمـت علـى انتظـار صـعودها بالصـدفة، بينمـا صـوت الغربـان الضـعيف يستمر فـي طـرق أذنيهـا. فجـأة ترتعد فرائصـها حين يصلها صـوت اخـر، صـياح مرعـب مـن عمـق البيـت. ألقـت الوعـاء البلاسـتيكي المفطـر مـن يـديها وهرعـت نازلـة علـى السـلم الحجري المنحني.
كانت سناء تمسح فناء البيت حين طرق الباب أحد العمال الذين يخرجـون كـل فجـر مـع محمـد. فتحـت لـه، وخامرهـا احسـاس سيء حين شاهدته، فالنهار لم ينتصـف بعد، وهم لا يحضـرون عادة في وقت كهذا.
أخبرهـا أن محمـد مـريض وقـد نقلـوه الـى المستشـفى، صـاحت وهرع كل من في البيت اليها، وظل العامل ينظر الـى الفوضـى التي سببها وهو يدعك الاسمنت والجص من يديه.
احسـت العائلـة وهـي تتحـرك بسـرعة مـن اجـل الـذهاب الـى المستشفى أن في الامر شيئاً أكبر، وحين سـألت الجـدة، أجابتهـا ناديـة بحـزن أن محمـد نقلـوه الـى المستشـفى، ربمـا سـقط مـن سقالة البنـاء العالية.

فـرغ البيـت فجـأة أمـام عينــي الجـدة، لـم يطلـب منهـا احـد ان تذهب معهم لتطمئن علـى حفيدها. الاول اختفى فجـأة، وهـاهو الثاني على شفا ان يفعل ذلك.
(يا الهي ما الذي فعلته معك لتجازيني هكذا)
رفعت يدها المعروقة بالدعاء، غير واثقة من سؤالها للإلـه، لأنها تعرف في قرارة نفسها، لماذا يفعل معها الاله ذلك. تحدق في ارجاء البيت الذي غزته الرياح الخريفية ليلـة امس، وترى أن زوجـة ابنهـا سـالم، لـم تنتـه بعـد مـن تنظيـف البيـت ولـم اغراضه. ترفع بين خطوة واخرى عينيها الى السماء بأنخذال، وتتخيل ان الاله ينظر اليها من ذلك المكان الشاهق ويعاتبها:
ـ لم تـف بنـذرك لـي يـا قسـمة، لمـاذا تسـأليني، وانـت أعـرف بنفسك؟
تتذكر فجأة حلوم، كانت تسأل ابنها كل ليلـة عنـه، فيجيبهـا دون ان ينظر اليها، انـه لا يعرف مكانـه، صديقه الذي كـان يـزوره في بيت زوجته أختفى ايضاً.
ـ ربما عمل مكسورة ودخل بسببها السجن.
أجابهـا أبنهـا بـذلك، والتعـب يرسـم خطوطـاً دقيقـة حـول عينيـه وعلى جبهته. أنها لا تعرف القلق الذي يأكل سالم تجاه مصير ابنه. كلام البنت الصغيرة عصر ذلك اليوم الذي جاءت تسأل فيه عن حلمي، جعله يفكر جدياً بالبحث عن هذا الولد العـاق، ومحاسبته وعقابـه ان تطلب الامر، مـا الـذي يعتقده، اليس لـه اهل وراءه؟
كانــت الجــدة العجــوز تســتغرق حــين يتركوهــا لوحــدها فــي (نعاويها) المعتادة، نائمة على وسادتها من ريش النعام، وتعدد اسماء مفقوديها، من الابـاء والابنـاء، تـذكر كشـاش وأيامـه، ثـم أضافت لهم مؤخراً حلمـي، وبدت اكثر لوعـة علـى فقده، ربمـا لأنها تعتقد أن لهـا يداً فـي أختفائـه. لكـن، مـن الـذي يكتـرث لمـا تفكـر فيـه، أنهـم مشـغولون بأنفسـهم، وحريصـون علـى ان لا تسبب لهم ، وهي في أرذل العمر، مشكلة ما او مصيبة .
(قـل لـي مـا الـذي تريـده منـي؟ مـاذا افعـل كـي لا تضـيع هـذه العائلة؟)

تخاطب ربها، وحيدة في وسط الحوش، بينما نادية هناك داخل البيت الثاني، تركوها مع الاطفال. فلم تستطع وسلام الصغير في حجرها ان تكمل باقي اعمال البيت.
نظرت الجدة العجوز الى الحائط الذي علته الصور المغبرة، ثم رنت الى العنكبوت الحارس في شبكته، وودعته صامتة .
أقتربت من ثوب يعود لسناء، شاهدته ساقطاً على الدرجات الاخيرة من السلم. أخذته وتلمسته فرأت انه ما زال رطباً، وملوثاً بالتراب. نظرت الى السماء ثانية، ورأت كتلاً سوداء شاحبة لم تميز ما هي تدور وتدور، وكأنها تفعل ذلك في مخيلتها ورأسها هي. استغفرت ربها، وعقدت العزم، بعد ان أيقنت أن احداً سوف لن يمنعها الان، على تنفيذ نذرها، وليغفر لها الله انها ستأتي به متأخراً.
إرتدت الثوب الرطب، ونعلها البلاستيكي الاسود، ودنت من الباب، الذي ترك مفتوحاً، تأملت الزقاق، وأحست بأن وقتاً طويلاً مضى منذ اخر خرجة لها. وضعت عباءتها على رأسها، مغالبة شعوراً ممضاً بالمهانة، فيما لو رأتها نساء الحي بهيئتها الغريبة. توكلت على الله والنبي وآل بيته، وخطت خارجة من باب البيت، تلفتت بعينها، ويدها اليابسة والنحيفة مثل قصبة، تمسك بطرف العباءة المدلاة على رأسها. ثم نظرت الى السماء، كأنها أحست بلسعة ما من عيني الاله، فنزعت العباءة مذعنة، وطوتها في يدها، وبدأت تسير دون ان تعبأ بالفضول الذي اعترى العيون المارة بجوارها. خطت بمشيها الوئيد حتى وصلت دون ان تنتبه الى دكان ابي ناجي، وكانت هذه المسافة هي حدود نذرها القديم، لكنها تجاوزت الدكان وثلة النساء اللواتي يستلمن الحصة التموينية من ابي ناجي، واستمرت بسيرها حتى خرجت من طرف الزقاق. كانت تفكر بأنه سيعود ثانية، وان العائلة لن يصيبها مكروه أخر. ان الرب يعلم بنيتها، ولكنهم مساكين لا يعلمون شيئاً. سيعيده الله اليها ثانية، لأنها لم تفعل شيئاً في حياتها يغضبه.
هاهي تعبر، وكأنها نسيت نفسها، الى سوق الحرامية. خرقت الحدود التي أختطتها لنفسها عصر ذلك اليوم البعيد حين وقفت

والتنور الطيني على السطح يشتت الاشياء بدخانه، وفتحت زيقها متوجهة نحو مرقد ابي الفضل العباس، لتنذر نذرها الغريب.

في هذه الاثناء كان مصطفى الذي لم يعلم بعد بما حصل في البيت يمرق بين السيارات بدراجته الهوائية التي أكتراها دون رضى اهله او علمهم، وحين أنحرف من استدارة الشارع، خيل اليه انه لمح جدته ترتدي ثوباً احمر بزهور بيضاء تسير بين المتبضعين في سوق الحرامية. توقف واسند قدمه على الارض، وحد البصر الى الموضع الذي رآها فيه، لكنه وجدها قد اختفت. ثم انتبه ان رفاقه قد سبقوه على الدراجات الاخرى ، فعاود الاندفاع بدراجته، موقناً وهو يزيد من سرعته انه تخيل او أشتبه بأمرأة اخرى.

تضغط بنعلها البلاستيكي على اوراق خس ذابلة وعلى أكياس ورقية ممزقة وخيوط من الليف والنايلون واغلفة علكة وحلويات واشرطة قماشية مختلفة الالوان، وتفكر بما جرى للحياة، كل هذه السنين.

ربما كانت قدماها المتيبستان تحنان الى الخطوات الثابتة والقوية لتلك الفتاة التي كانتها، وهي تتخطر مزهوة على شريعة النهر في العباسية المندثرة. أو انها الان مع نسيانها لأي شيء اخر، قد نذرت من جديد نذراً غريباً لا يعلمه احد ألا هي ، تفكر ان تفي به آجلاً، قبل ان يداهمها القدر بصروفه، او تودع هذه الحياة.

(إنتهت)

(*)[يـا خـدا چكـم أي وي منالـه] باللغـة الكرديـة، وتعنـي: يـا ألـهي ماذا افعل مع هذا الطفل.